في الحياة والأدب

لسلامه موسى

صاحب ومحرر المجلة الجديدة

طبع بمطبعة المجلة الجديدة



لسلامه موسى

صاحب ومحرر المجلة الجديدة

يطلب من عبد الحميد محمود

صاحب مكتبة الفجالة المصرية

الثمن ١٢ قرشا

طبع بمطبعة المجلة الجديد

في الحياة والأدب

لسلامه موسى

صاحب ومحرر المجلة الجديدة

طبع بمطبعة المجلة الجديدة

مؤلفات سلامه موسى

نظرية التطور واصل الانسان

مختارات سلامه موسى

اشهر الخطب ومشاهير الخطباء

اليوم والغد

أحلام الفلاسفة

اشهر القصص التاريخية

العقل الباطن

حرية الفكر وتاريخ ابطالها

تاريخ الفنون وأشهر الصور

الاشتراكية



المقدمة

هـذه المقالات القصيرة التي جمعتها في هذا المجلد قد سبق لي نشرها في احدى المجلات الاسبوعية التي تصدر عن القاهرة. وقد كانت جميعها وحي الحوادث والظروف. والخطاب فيها للشباب. ولكني لم أجمعها جزافا وانما اخترت منها هـذه المقالات لاعتبارات مختلفة وتركت ما كنت قد كتبته باملاء الساعة وبعض الحوادث التي ربما تكون قد نسيت فلا تتضح منها العبرة الآن

أما هذه الاعتبارات التي قررت لي اختيار هـذه المقالات فتختلف. وربما كان أهمها مغزى من حادثة يراد به رفع الشباب والتسامي بافكاره. أو اتجاه نحو الحضارة الاوربية التي لاأعتقد أن لنا طريقاً آخر نستطيع أن نسلكه ونوفق فيه في هذه الدنيا غيره، أو الحض على اتخاذ الطرق العلمية بدلا من الطرق الادبية الشرقية المألوفة في معالجة المواضيع. ولست في ذلك احتقر الادب بل أنا اؤثره على العلم وأرى فيـه الوقاية من أخطار العلم ولكني أحتقر ذلك الأدب الذي نشأنا عليه ودرسنا طريقته في مدارسنا أدب اللهو والزخارف والسخف وفسيفساء الالفاظ. هـذا الادب الذي مازال مدرسو اللغة العربية يؤذون به الشباب المصريين في مدارسنا

أما الاتجاه نحو الحضارة الاوربية فقد أصبح محتوما علينا أن نحض عليه ونتوسل اليه بكل الوسائل اذ قد أفلست حضارة الشرق وأصبحنا هدفا لهذه الحضارة الغربية التي اذا لم نعتنقها ونتخذها ونندغم فيها سحقتنا سحقا. وكلما أسرعنا في اعتناق مبادئها كان لنا من هذه السرعة ماينقذنا من حال التقلقل الناشيء من ضياع القيم الاخلاقية القديمة قبل اتخاذ قيم أخلاقية جديدة ومايجلبه هذا التقلقل من فوضى

سلامه موسى

فتوحات العلم

لو أن انسانا أراد أن يعيش فى مفاجآت متوالية من مخترعات ومكتشفات لما وجد أوفق من هذا العصر الذى نعيش فيه . فلا جرم اننا نعيش فى عصر العجائب ولسنا نعنى بذلك اننا أسعد حالا من آبائنا وانما نحن ننظر الى الحياة بخلاف ما كانوا ينظرون اليها . نحن ننظر اليها باعتبارها معملا كبيراً للتجارب نجرب فيها كل مايخطر لنا فى بال فان نجحت التجربة فذاك والا فنحن عائدون الى تجربة أخرى . ومن هنا كثرة مايجد كل يوم فى ميدان الصناعة والعلوم . أما آباؤنا فكانوا كبعض الأمم الشرقية الآن يقنعون بما صنعه لهم السلف الصالح ولا يعارضون فى القديم المألوف . ومن هنا قلة اختراعاتهم

هأنذا أحد الناس أذكر أنه قد جد فى حياتى أكثر من عشرة مخترعات ومكتشفات . لقد رأيت الاتومبيل لأول مرة فى القاهرة وأنا طفل وعدوت وراءه مع سائر الأطفال لكى انظر اليه وسمعت من حولى وهم يتعجبون من براعة هؤلاء الافرنج الذين يجعلون الجماد يجرى فى الشوارع . ثم هأنذا قد سمعت باذنى هذا العام وأنا فى القاهرة أصواتا حملها الاثير بلا سلك من لندن

أليست هاتان عجيبتين ؟ وهل أحتاج الى ذكر الطيارات التى تحمل هذه الصحيفة احيانا الى بغداد ؟ أو هل أحتاج الى ذكر عجائب التلغراف اللاسلكى أو الى ذكر الذرات التى تخيل الاغريق وجودها وصار العلماء الآن يقيسونها ويزنونها

ثم ماذا نقول عن المعالجة بالغدد التى فتحت فتحاً جديداً فى الطب وتكاد تجعل الشباب يغارون من الشيوخ والتى ربما سيطول عمر الانسان بواسطتها الى اكثر من مائة سنة ؟

أليس كل هذا عجبا ؟ ثم يجب ألا ننسى أعجب العجائب : روسيا التى محت الماضى من الوجود وصارت تنظر الى الحكومة والعائلة والتعليم والمال كأنها أشياء قابلة للتجربة . ولست فى هذا امتدح ماعملته روسيا وإنما أتعجب من تلك الجرأة التى يتسم بها ذهن الانسان هذه الايام حتى صار ماقدسه الزمن والعادة قابلا للتعديل والالغاء والتجربة

وليس أحد ينكر مخاطر التجربة . وهذه روسيا شاهد على ذلك . ولكن ما من تقدم

حديث فى العالم إلا وكان نتيجته الخروج على المألوف وابتكار الشيء الجديد . ولولا هذا ما كان اختراع أو اكتشاف

ولكن يجب مع ذلك ألا نغتر فنعتقد أننا فى جديدنا قد فقنا السلف وخرجنا عليه . فانما نحن نبنى على ما أسس . حتى ثوراتنا وانقلاباتنا أن هى الا تطور كانت لهم فيه البديئة . فجميع بذور المخترعات الحديثة ظهرت فى القرن التاسع عشر وهذه البذور نفسها لم تكن لولا أن أبناء القرن الثامن عشر قد هيأوا لها التربة وهكذا الى من قبلهم

أجل . أن حبل الثقافة متصل من السلف الى الخلف . ولكننا فى حاجة من وقت لآخر الى الشك فى حكمة هذا السلف والى الخروج على بعض مبادئه والى أن نجعل العقل فوق النقل لأنه بذلك ارتقت أوربا . وبعكس ذلك تأخر الشرق . ومن هنا نجد أن عصر العجائب هو عصر الاوربيين أما الشرقيون فلا شأن لهم فى هذه العجائب

هذا العالم

حدث منذ سنوات قريبة أن أحد الاميركيين كان يجول فى جبال الروكى فى غرب الولايات المتحدة فوجد راهباً فرنسياً يفعل فعله ، يتوقل الجبال ويخاطر بحياته فى مجاهلها . فلم يتمالك الاميركى من ابداء استغرابه لهذا الراهب الفرنسى الذى كان ينتظر منه أن يعتكف فى صومعته ويلزم ديره لاأن يخرج الى الجبال الشاهقة حيث تبلغ الارض السحاب وحيث يحمل الانسان حياته فى كفه كما يقول الانجليز

وأدرك الراهب ما جال بخاطر الاميركى فقال . «أنك تعجب لوجودى هنا ولكنك اذا عرفت قصتى لم تعجب . فقد حدث لى منذ عام أنى مرضت وأوشكت أن أهلك لفرط ماأضنانى المرض . وكان يغشى على وأستفيق فاصلى فى فترات الصحو واستعد بصلاتى للموت . وبينما أنا فى ذلك واذا بهاتف يهتف بى كأنه ملك من السماء ويقول : « والآن أيها الأب أنك توشك أن تدخل الى العالم الآخر . فماذا رأيت من هذا العالم الذى أنت مغادره الآن ؟ » وصكت هذه الكلمات أذنى فافقت وأنا أتساءل : حقاً ماذا رأيت من هذا العالم الذى ساغادره قريبا ؟ ثم لم تكن إلا أيام معدودات عقدت فيها العزم وتهيأت لرؤية هذا العالم وتركت فرنسا وخرجت أجول وأجوب فربحت عافية

الجسم وغذاء العقل بمعرفة هـذا العالم العجيب الذى كنت أجهله . وهذا هو السبب فى وجودى هنا الآن كما ترانى »

والحق أنه لسبب وجيه ولم يتقرب الراهب لربه بأحسن مما تقرب اليه برؤيته عجائبه فى هذا العالم وضربه فى الارض الواسعة يرى النبات والحيوان والانسان . يحس خلوة الصحراء الصامتة وعجيج الحياة فى الغابة يتسمع الى صوت الطبيعة فى عباب الاقيانوس أو على قمم الجبال حيث تتصل ثلوج الغبراء بسحب السماء . يرى الشمس وهى تبزغ قرصا يتوقد ويبدد ضباب الصباح أو الحقول وهى حافلة بآلاف الاحياء من نبات وحيوان . يرى آسيا وأفريقيا وأميركا وسائر قارات هذا العالم العجيب . وهل أفضل من أن يتقرب الانسان الى رب هذا الكون برؤية عجائبه ؟

أنها لمأساة عظيمة تلك التى يمثلها انسان يقضى عمره عاكفا على صناعته لازما بلدته كأنه شجرة قد نبتت فى مكانها لاتبرحه . وأنه لعمر قفر جديب ذلك الذى يقضى فى دائرة ضيقة من أعمال المعاش مهما طالت أعوامه وتعددت أيامه

ولكننا لسوء الحظ وأيضا لسوء النظام الاقتصادى لايمكننا كلنا أن نسيح فى هذه الكرة كما فعل ذلك الراهب وحسبنا الآن مايقال لنا من أن هذه السياحات ستكون من حظوظ أولادنا . وانما فى مقدور كل منا أن يعرف هـذا العالم بالواسطة اذا أعجزته معرفته مباشرة . وذلك بأن يدرسه ويعرف تاريخه وجغرافيته وحيوانه ونباته بل جماده . واذا نحن درسنا هذا العالم تكشف لنا عن ملكوت عظيم نزداد تعلقا به وتقديراً كلما زدناه تعرفا واختباراً

شرف الصناعة

ذكر جوستاف لوبون فى أحـد كتبه أن من الالفاظ المألوفة فى المصانع الاميركية والالمانية ان تسمع احـد العمال ينادى عاملا آخر بقوله . « يادكتور . ياأستاذ » ونحو ذلك من الالفاظ الغربية التى يعتقد الانسان أنها بعيدة كل البعد عن ان تلتصق بعامل يعمل بيديه

وانما نحن نستبعد ذلك ونستغربه لبقية باقية فى اذهاننا من اعتقادات القرون الوسطى وآداب بغداد . تلك الآداب الشرقيـة التى لاتتفق وروح العصر الحاضر عصر الصناعة

والعمل . فالغزالى مثلا يخبرنا بان الحجامة والصباغة من الصناعات الوضيعة التى يجب أن يأنف منها الرجل الشريف . مع ان الحجامة أى الحلاقة من الصناعات الشريفة فى أيامنا هذه . وقد كان امبراطور المانيا وهو رجل السيف والشرف المؤثل مساهما فى شركة حلاقة كبيرة فى برلين . أما الصباغة فحسبك أن تعرف ان المانيا قد احتكرت أسرارها وان الحكومة الانجليزية قد انفقت آلاف الجنيهات لكى تقف على هذه الاسرار

فالصناعة الآن هى شعار التقدم واليها يرجع الفضل فى تقدم أوربا وسبقها للشرق . وهى لم تتقدم الا لأن ذوى الاذهان الكبيرة قد دخلوا فيها فصار منهم « الدكتور » يعمل بيديه قطعة من الخزف أو يبتكر رسما جديداً للقماش . وصار منهم « الاستاذ » يترك جامعته ويدخل فى المصنع لكى يعرف مقدار ما تمتاز به آلة من آلة أخرى فى توفير الوقود أو فى متانة الصنع . وبمثل هؤلاء الصناع الأذكياء اخترع الأوربيون الطيارات والاتوموبيلات والحرير الصناعى والاصباغ والعطور المختلفة ومئات المخترعات الاخرى العديدة . وهل كنت تظن ان عاملا يستطيع أن يأتى بهذه المخترعات لولا انه قد ثقف ودرب على أن يفكر تفكيراً علمياً صحيحاً توافق نظرياته عملياته ؟ وهذا التثقيف يحتاج الى تربية مدرسية طويلة لا تقل مدتها عما يقضى فى درس الحقوق مثلا . ولكننا نحن الآن متخمون بالمحامين تخمة مؤذية فى حين اننا فى أشد الحاجة الى صناع متعلمين يتولون صناعاتنا المختلفة من ادارة الفنادق الى صنع الاحذية والخزف والاثاث والمطابع والقهوات ونحو ذلك . وحسب القارىء أن يعرف ما يربحه الاجانب فى مصر من احتكارهم للفنادق ويتحقق عندئذ مقدار الخسارة التى نخسرها كل عام باحتقارنا الصناعات التى كان يقول عنها الغزالى وأمثاله انها وضيعة . ولو كانت وزارة المعارف عندنا تتمشى مع روح الزمن لارسلت بعثاتها لتعلم الصناعات لا لتعلم العلوم النظرية فان هذه يمكن درسها من الكتب . ولكن الصناعة كالسباحة لا يتعلمها الانسان الا اذا مارسها بنفسه وعالجها بيديه وانغمس فيها وتلوث بمدادها الشريف

لقد مرت بذهنى هذه الخواطر وأنا أجول فى المعرض الزراعى الصناعى فهناك من الصناعات ما يرفع الرأس ويبهج القلب ولكن هناك أيضا ما يخجل المصرى لضعف صناعته وسوء فنه . ولا علاج لذلك الا بأن يدخل ذوو العقول الكبيرة النيرة هذا الميدان ويفيضوا من أذهانهم عليه ما يرفع الصناعة ويجعل لها من الشرف ما يتسابق الى حيازته الاذكياء المتعلمون وعندئذ نرى الدكتور والاستاذ يعمل بيديه فى وسط معمله فنحترمه ونجله أكثر مما نحترم المزارع أو المحامى أو الطبيب لاننا نعرف انه هو سبيل نهضتنا

الصناعية وثروة البلاد التى لا يمكن الرقى الادنى بدونها . لأن الثروة فى هذا العصر أساس كل شىء . وأكبر أساس للثروة هو الصناعة

اوربا ام اسيا

فى النزاع الحاضر بشأن الخلافة أو القبعة أو غيرهما من الشؤون ظواهر تبدو على السطح وبواطن تحتاج الى التعمق لاستكناه سرها وتعرف أصولها . ومن مصلحة الامة أن تعرف سر هذه النزعات لكى تدرك العوامل التى تستثير شباننا وشيوخنا وتدفع كلا منهما الى أن يختط لنفسه طريقا فى الحياة يختلف عن طريق الآخر

فليس شك بعد عرض حركات شباننا فى هذه السنين الاخيرة انه تتنازعهم رغبتان : الاولى هى التطلع الى أوربا والتشبه بها والرغبة فى الانضمام اليها والثانية هى الحنين الى آسيا ورعاية التاريخ الماضى الذى كان يربطنا بها

فشباننا يرون الآن أن الاوربيين هم سادة العالم فيهم الجمال والذكاء والثروة والقوة . منهم علماء يستكنهون ذرات المادة ويكادون يلمسون منها سر الوجود . ومنهم أدباء وفلاسفة ينشرون على الناس أرق الافكار وأنصع الخواطر . ومنهم مخترعون ركبوا السحاب ومخروا بسفنهم تحت الماء وملأوا العالم بالقطرات والبواخر وسائر الآلات . ومنهم رجال ابرار ينفق أحدهم ملايين الجنيهات لوجه العلم لا يبغى جزاء ذلك أجرا . ثم فيهم — مع ذلك — وطنية تدفعهم الى أن يقتل فى حرب واحدة من حروبهم عشرة ملايين من شبابهم احقاقا لما يعتقدونه حقا . ثم لهم مع ذلك أرقى الحكومات وأمثل المدارس وأنظف المدن وفى نسائهم من روح الجد والقوة ما يدفعهن الى الدخول نائبات فى البرلمانات والى أن يكن معلمات أو قاضيات أو تاجرات

هذه هى أوربا التى يراها شباننا أو بعضهم وينزع الى تقليد أبنائها على نحو مافعل الاتراك بل هو يرى اننا أولى بتقليدهم لأننا من الجيل الارى أما الاتراك فمغول أسيويون . ولكن هناك فئة لاتزال تحن الى آسيا والشرق وتعتبر أننا شرقيون . وهذه الفئة قليلة بالطبع وحجتها تاريخية لا أكثر ولا أقل

اذ ما هى آسيا الآن ؟ أليست هى مجموعة من الامم قد ذللها الاوربيون وبسطوا عليها نيرهم ولم ينج من هذا النير سوى اليابان . وهى انما نجت لانها اصطنعت حضارة الاوربيين واعتنقتها بلا قيد ولا شرط وحملت القبعة شارة الاوربى على رءوسها ؟

فشابنا الناهضون الذين يرغبون فى اصطناع القبعة لا يريدون القبعة بالذات وانما هم يريدون مدلولها . يريد احدهم أن يتنصل من آسيا وا يعيره أحد بانه شرقى لانه هو يرى فى ملامح وجهه ونزعات نفسه أنه غربى . وهو لو كان شرقياً حقاً لانكر شرقيته لانه يأنف أن يوضع فى صف واحد مع الصينى والهندى والملقى اذ هو تصبو نفسه الى أن يكون على مستوى واحد مع الالمانى والانجليزى والفرنسى . ثم هو يرى أن مبادىء الغرب مثل الحكومة البرلمانية وحرية المرأة والتعليم العام جديرة بأن يجرى عليها المصريون وأن يجحدوا ما قابلها من المبادىء الشرقية . ونقول بعبارة أخرى انه يرغب فى اتخاذ القبعة لان نفسه تتوق الى الرقى الاوربى ولانه يأنف أن يكون شرقياً . ثم يرى أيضاً أن من الخرق البالغ أن نحاول ابتكار لباس خاص لرؤوسنا فان فى العالم نحو ١٨٠٠ مليون نفس منهم نحو ٧٠٠ مليون من المتمدنين يلبسون القبعة . فهل نقف نحن فى وسط هذا العالم ونشذ عنه مع أننا متمدنون مثله فنلبس لباساً خاصاً حتى يأتى السائحون فينقلون صورنا كاننا جيل خاص

وانما الامم الاخلاق

ولسنا فى حاجة الى أن نسرد ألفاظ هذا البيت الشريف الذى ألفه شاعرنا شوقى . فان الاشارة اليه تغنى عن ذكره . ولكن هل نحن ندرك قيمة الاخلاق فى حياة الامم وخطرها فى رفعتها أو انحطاطها تمام الادراك ؟ وهل نحن نعمل لرفع مستوى الاخلاق فى مصر بحيث نبلغ بها ذلك المستوى العظيم الذى نأمله لبلادنا؟

ان من يستقرىء التاريخ يجد أنه ما من أمة نهضت إلا وكانت نهضتها متمشية على نسبة أخلاقها . ففى نهضة العرب نجد عمر بن الخطاب الذى لم يكن فى الحقيقة سوى كتلة أخلاق عجيبة هى الغاية القصوى فى المتانة والثبات ومحاسبة النفس على كل ما جل ودق . فلم يكن الرجل عالماً ولا فيلسوفاً بل هو نفسه قد ضحك مرة من نفسه لان احدى النساء أصلحت له خطأه . ولكنه كان فى الخلق كانه جبل راسخ وسائر الناس تراب . وحسب أمة ينبغ فيها مثل الفاروق أن تفتح نصف العالم المتمدن فى بضع سنوات

ومن تأمل فى أحوال الانجليز وخاصة كبرائهم وزعمائهم لامندوحة له من الاعتقاد بأن سبيل النجاح فى هذا العالم ليست المعرفة بل الاخلاق . اذ لسنا نجد عند أية أمة أخرى عدداً كبيراً من رجال الخلق العظيم مثلما نجد بين الانجليز . ففيهم أمثال اسكويث الذى نال رياسة الوزارة عدة مرار وكان ينفق بأمره فى الحرب الكبرى من خزانة الدولة نحو ثلاثة

ملايين جنيه فى اليوم ومع ذلك قالت زوجته وهى تلق خطبا مأجورة فى أميركا انها تفعل ذلك لان زوجها معدم

وكان اللورد كرومر عندنا هو السيد الفعلى للبلاد وبق بيننا نحو عشرين سنة أو اكثر ومع ذلك تبين عند مااستقال انه فقير لايمكنه أن يقوم بحقوق اللوردية لفقره فانعمت عليه الحكومة البريطانية بخمسين ألف جنيه سداً لخلته

ومنذ نحو مائة سنة كان فى مصر سائح انجليزى يدعى لين كتب كتابا عنا يصف فيه أحوالنا وخرافاتنا . ومما ذكره بالاعجاب ببنى وطنه ان المصرى عند مايريد الصدق يقول : « كلام انجليزى » يريد عدم المراوغة وكراهة المماكسة

أليس هذا الخلق المتين هو أصل رفعة الانجليز وتفوقهم على سائر الامم وسبقهم لها فى ميادين التجارة والصناعة والقوة ؟

لقد ذكرنا عمر بن الخطاب فى نهضة العرب ويمكننا أن نذكر أيضاً فى نهضات الامم الاخرى أمثاله أو من يقاربونه فى قوة الخلق مثل كرومويل فى انجلترا أو غاريبا لدى فى ايطاليا أو كوشوث فى المجر لجميع هؤلاء كانوا من متانة الخلق ونزاهة القصد فى خدمة بلادهم بحيث عاشوا وماتوا وهم من قلوب أبنائها فى المكان الاسمى

ولقد تنظر فى القاهرة الى المخازن التجارية الكبرى الناجحة فى أعمالها حيث الاقبال والرواج وإلى تلك الحوانيت الصغرى الاخرى التى تتعثر بين كساد مقيم وفترات زائلة من الرواج المضطرب فتجد فى الاولى خلقا متينا يدعوك إلى أن تؤمن بما فيها من الاثمان الثابتة التى لاينزل عنهاأصحابها وفى الثانية تجد المماكسةوالمساومة التى هى دليل الغش والمكر الذى لايحيق إلا بأهله

الفاظ عتيقة

كان الرومان فى أيام جاهليتهم يسمون جميع الامم التى تقيم فى خارج ايطاليا « برابرة » أى متوحشين . وكان العرب يسمون جميع سكان العالم الذين لاينطقون بالعربية « أعاجم » أى الذين لايفصحون . وكان المسيحى يسمى اليهودى كافراً والكافر يرد التحية بأحسن منها فيسمى المسيحى كافراً ووثنيا أيضا

ولكننا نعيش الآن فى ضوء القرن العشرين ونعرف ان هذه الالفاظ لاتلائم روح العصر . فنى العالم متمدينون وكان فيه متمدينون قبل الرومان . وفى العالم أمم فصيحة اللسان

غير العرب أما الكفر فعند الله سره وهو أعلم بحقيقة الايمان وحقيقة الكفر . وما بينه وبين العبد حساب خصوصي لاشأن لأحد أن يدخل فيه

ليس فى العالم على ماأعتقد رجل أفعم قلبه بالايمان والدين مثل غاندى الهندى . ومع ان هذا الرجل قد حارب الانجليز وخلق من العدم حركة هندية وطنية عنيفة فانه لم يسب دين الانجليز مرة واحدة ولانسب دينهم الى الكفر . وليس سبب لذلك الا أن الرجل مستنير يعرف أن البذاءة بذاءة فى كل مكان وأن قومه لم يحتكروا الايمان الصحيح دون غيرهم من الامم وان الله أكرم من ألا يوسع جنته لجميع أبناء الارض على السواء

وليس من الحجج أن نستند الى الكتب الدينية وننتزع منها عبارة نسب بها من لايؤمن بديننا . فان الكتب السماوية فيها كل شىء ويمكن أن نبرهن بها على كل شىء . فقد كان « ديوان التفتيش » يستند فى قتله مخالفيه الى الكتب الدينية . وبين العلماء الان من يستند اليها أيضاً فى اثبات النظريات العلمية . وقد كانوا فى الحرب الكبرى يباركون البوارج والجيوش باسم المسيح رسول السلام . وفى بعض الكتب الدينية من القصص مالو ذكرته أحدى الصحف لتعرضت للعقاب لمنافاته لروح الاداب الحاضرة

ثم يجب أن نذكر اننا أمة ضعيفة فى حاجة الى عطف أوربا والالتجاء من وقت الى وقت الى محكمة ضميرها . واذا نحن فقدنا هذا العطف فقد فقدنا كل شىء . فماذا يكون مركزنا بازاء أوربا اذا فهم الاوربيون أننا نعتبرهم أحط من الحيوانات نجاسة وانهم منا بمكان الواقف على شفا بركان قد يثور به ويقتله فى أى وقت ؟ وهذا مع العلم باننا ونحن نسميهم كفاراً نلبس مايصنعونه لنا من الملابس ونقرأ مايطبعونه على مطابعهم من الكتب المصنوعة على ورق خارج من مصانعهم . ونعلم أولادنا فى المدارس علومهم ونتعالج من أمراضنا بطرق العلاج التى ابتكروها ونركب قطراتهم وبواخرهم

ألايضحكون منا عند مايرون نا نلقبهم بلقب الكفر وهم مع ذلك يعولوننا ويعرفون أنه لو انقطعت مادة حضارتهم عنا لعدنا الى جاهلية تشبه التوحش ؟ لقد كان غاندى يقول انه يستحي من أن يسب الانجليز مادام الهنود يلبسون الثياب التى يصنعونها لهم ونحن فى حاجة الى أن نشعر بازاء أوربا بهذا الاستحياء

وفضيلة القرن العشرين هى التسامح فى الرأى والدين والعقيدة . فلنترك لكل انسان دينه أو رأيه ولا نشتمه أو نتهمه بالكفر لانه يخالفنا فى صفة الجنة أو فى المعنى الفلسفى للالوهية أو فى حركات الصلاة أو فيما نصوم عنه من الطعام وما نحرم وما نحلل من الحيوان فقد حارب اسلافنا من أجل هذه الاشياء وثبت لهم خطأهم فعادوا الى التسامح بعد التصاعب

وانتبهوا من البذاء الى حسن الادب . وصارت الكنائس تبنى جهراً فى القاهرة كما تبنى المساجد جهرا فى باريس

من هو العظيم

حدث مرة أن جريدة الماتن استفتت قراءها عن أعظم رجل فرنسى خدم فرنسا ؟ فجاءتها الخطابات تترى من جميع الانحاء وجميع كاتبيها غيورون على أن يكون عظيمهم عظيم الامة باجمعها . وكان المنتظر أن نابليون سيفوز باكبر عدد من الأصوات ولكن جاءت النتيجة عكس هذا المنتظر وظهر على قمة العظماء شخص قد لاتكون قد سمعت به وهو باستور

ومن باستور هذا الذى أربت أصواته على الاصوات التى نالها نابليون ؟

باستور رجل وضيع الاصل اشتغل بالعلم فعرف الميكروب وأوجد مصلا لمرض الكلب وعالج كروم فرنسا من وباء كان يفتك بها واهتدى الى طريقة لتطهير اللبن . وهذه الاشياء الوضيعة أدرك الشعب الفرنسى انها أكبر من المعارك العظيمة التى خاضها نابليون ورفع بها شأن فرنسا الحربى . ولذلك حكم لباستور بالتفوق فى العظمة

فالشعب الفرنسى يقول بصريح القول أن العظمة هى الفائدة التى تعود على الامة من العظيم الذى ينشأ بينها . وعظمة نابليون ليست سوى طبل أجوف رنان لافائدة فيه فان فرنسا كانت فى بداية تسلمه مقاليدها أكبر مما كانت عند ماانهزم وأسره الانجليز ونفوه بعد أن كبد الفرنسيين نحو مليون قتيل . وأما باستور فانه أنقذ ثروة الوطن ووقى الاطفال من الموت أو خفض آلام المرضى وفتح للطب فتحاً عظيما . واذا كان الاطفال يستهويهم ذكر نابليون ويتغنون بمدحه ويصلصلون بسيفه فان الرجل الذكى لايرى مندوحة من أن يحكم بالعظمة الحقيقية لباستور دون نابليون

وما أحرانا نحن فى مصر أن نراجع أنفسنا ونعيد النظر فى تقدير عظمائنا ومقدار الفائدة التى عادت من كل منهم على بلادنا . ولكن كيف نقيس هذه الفائدة ؟

أن العظيم يجب أن يكون هو الرجل الذى كسب للامة حقوقا لم تكن لها من قبل . وهو الرجل الذى وجه العقول الى وجهة وطنية مصرية بعد ان كانت قوميتها متلاشية فى فوضى الافكار التى ورثناها عن المماليك . وهو الذى رفع التعليم . وهو الذى نظم للبلاد طرق الرى والصرف ورفع مستوى الصحة

ولسنا نعين شخص هذا العظيم الآن وانما يجب أن نقيسه بمقدار الفائدة التى عادت من وجوده على البلاد . فاذا قيل لك أن هذا الرجل أو ذاك عظيم فاسأل ماذا فعل للبلاد وما هو الربح الحقيق الذى جنته منه ؟ ولو سئلت أنا هذا السؤال لأجبت بأن العظيم فى مصر هو الذى ينجى الفلاحين من البلهارسيا والانكلستوما وهو الذى يعمم التعليم الحقيق لاتعليم القرون الوسطى وهو الذى يخترع لنا طريقة لعمل الاسمدة الكيماوية

وأخيراً هو الذى يوجه الأمة نحو الحضارة الاوربية . وبعبارة أخرى نقول أن العظيم هو من أشبه باستور بتواضعه ومثابرته على خدمة أمته فى الشؤون الصغيرة وليس هو نابليون بجميع مافيه من طبل أجوف رنان . فبلادنا مثلا مفتقرة الى الصناعة يضيع قطننا كل عام بأبخس الاثمان ثم نعود فنشترى بعضه بأرفع الاثمان . فالعظيم حق العظمة هو ذلك الذى يستطيع أن يعلم الفلاح كيفية غزل القطن ونسجه ويوجد فى البلاد حركة صناعية تضمن لنا حياتنا الاقتصادية حين يطغى علينا قطن السودان

رياضة الشيوخ

الرياضة للبدن تعيد اليه الصحة وتكسب العافية وتنشط الدم وتنبه الذهن . وهذا هو السبب فى عناية الامم الراقية بها حتى صار من أعيب العيوب لديهم أن يبدو انسان وهو مستكرش له بطن يتدلى أمامه . وحتى صار الشيوخ قبل الشبان يهرعون الى الملاعب للعب وترويح النفس . ويرى القارىء صورة أغنى أغنياء العالم روكفلر ملك البترول فى أميركا يلعب الجولف وهو منتصب القامة كأنه فتى فى العشرين

وليس ينفرد روكفلر بذلك بين الشيوخ العظام . فان كليمنصو باقعة الحلفاء له ساعة معينه كل يوم يصحب فيها أستاذه فى الرياضة البدنية ويتمرن جملة تمارين تنشط دمه وتملأ عروقه الهرمة بروح الشباب . وهو شيخ فقط بالسن وأما فى الروح والنشاط فهو يعد فى شبابه وأن كان قد جاز السبعين . وقد أصدر منذ أشهر كتاباً عن الخطيب الأغريقى ديموستينس أثبت فيه أنه يستطيع أن يفرغ من همومه السياسية لدرس الادب الأغريقى . وعرض عليه الدكتور فورونوف منذ مدة أن يجرى عليه عملية التجديد فرفض وهو يقول : أنى لم أدخل بعد فى طور الشيخوخة

وهذا لويد جورج قد قارب السبعين وهو لاتفوته لعبة من لعب الخلاء . وكذلك بلفور وكذلك غيرهما من العظماء شيوخ الاجسام شباب العقول

والآن أيها القارئ الشاب كيف أنت وهؤلاء الشيوخ وهل تعرف مقدار مايفوتك من صحة الجسم بالقعود على القهوات والاستسلام للنوم فى قائلة النهار ؟

أن أقل مافى الافراط فى النوم والراحة أن يستكرش البطن ويسمن الجسم . وأكبر دليل بل البرهان المحسوس الذى يمكنك أن تستنتجه عن ضرر السمن والاستكراش فوق مافيهما من سماجة الهيئة وتجلفها أن شركات التأمين تتوقع الخطر على الصحة بنسبة تضخم البطن ، فهى تؤمن ضامر البطن بأجر أقل مما تؤمن المتضخم . وشركات التامين لاترغب فى غير الربح وقد دلتها التجارب على ضرر السمن والاستكراش

والرياضة البدنية هى العلاج للسمن فهى التى تمنع الترهل والاسترخاء وتبنى اللحم بدل الشحم وتؤخر الشيخوخة وتديم للجسم اكسير الشباب . وهى اذا كانت واجبة للرجال فهى أيضاً واجبة للنساء ولذلك تجب العناية بها فى مدارس البنات كما فى مدارس البنين . وكذلك ينبغى للشباب الذين انقضت مدة دراستهم بالمدارس أن يلتحقوا بالأندية الرياضية . وأنه لفرق عظيم بين شاب يخرج فى الساعة الخامسة مساء من منزله فيقعد على أول قهوة تلاقيه ويتجرع شيئاً أسود يسمى قهوة ويقضى الساعتين أو الثلاث وهو يتمطى ويتثاءب ويتحدث وبين آخر يخرج الى الخلاء فيقفز ويعدو وراء الكرة حتى ينشط دمه ويتورد خداه ويستيقظ ذهنه

هل نعاقب المريض

من رأى احدى الصحف الاميركية أنه لن يكون بعيداً ذلك الزمن الذى يشرع فيه الناس يجدون فى معاقبة المريض كما يعاقب المجرم . بل المريض يعاقب الآن نوعا من العقاب قد يعد فى نظر بعض الناس أقسى عقاب فى العالم نعنى بذلك أن المرضى بالتدرن وبعض الامراض التناسلية يحرمون من الزواج فى نروج وتركيا وبعض الولايات المتحدة . وعندنا هنا فى مصر يعاقب المريض بعادة تناول الكوكئين بالحبس . وموظفو الحكومة يرفتون أحياناً كثيرة لمرضهم

ومن منا قعد فى دار للتمثيل مثلا وسمع هذا يعطس وذاك يسعل وذلك يبصق بلغماً ملعوناً ولم يتمن العقاب لهؤلاء المجرمين الذين يفسدون على الانسان ليلة قد خصها لسروره ؟

اننا الآن نأخذ السكران الذى يعربد على الناس فى الشوارع ونبقيه فى غرفة القسم الى الصباح حتى يقدم للمحاكمة و يدفع الغرامة . ولكن العربدة أمرها يسير هين فى جنب متدرن يقعد قريباً منك فى قهوة ويسعل السعلات المتوالية على وجهك فتقوم وقد زرع فى رئتيك نحو ألف مكروبة نشيطة تغذوها من دمك فتلد لك الملايين من بنى جنسها

اننا نجهل شيئاً كثيراً عن طبيعة الامراض ولكن الاطباء واثقون أن الاسراف فى الخمول والاسراف فى الجهد يؤديان الى المرض . فلو أننا عاقبنا المرضى بهذين الداءين لاستقامت أحوالنا الاجتماعية بعض الاستقامة . فكلنا يعرف أن المجد الذى يعمل باعتدال لايندلق بطنه كالقربة بدليل أنك لست ترى فلاحا يحمل الفأس قد استكرش له بطن . وكذلك لن تجد غنياً قد حصل على ماله بانهاك صحته حتى لايستطيع أن يأكل حمامة

ومن حسنات « المودة » أنها تحتم على السيدات هذه الأيام أن يكن ضامرات البطن . وضمور البطن يتسق مع الصحة بخلاف الاستكراش الذى هو أصل عدد كبير من الأمراض

وقد يظن القارىء أن المريض لايجوز عقابه لانه لايؤذى سوى نفسه . ولكننا أشرنا الى أنه أحيانا ينشر العدوى بعطاسه وسعاله وبصاقه وهو أيضاً يعيش فى وسط أسرة يعودها عاداته فى الطعام والشراب وسائر أحوال معيشته التى هيأته هو نفسه لقبول المرض فتقتدى به وتنتشر بذلك عاداته السيئة بين الناس . فان أولاد السمان تجدهم على الدوام سماناً لا لانهم ورثوا السمن بل لانهم نشأوا على عادات آبائهم فى الطعام والاسراف فيه

فالمريض لاتقع عليه تبعة مرضه وحده بل أمراض الآخرين . والمرض أكثر مايكون دليل نقص فى الاخلاق مما هو دليل نقص فى بنية الجسم . ولذلك يجب ألا نستغرب وجوب معاقبة الناس لارتكابهم الأمراض

وعند الصينيين عادة جميلة واحدة بين مئات من العادات الشرقية السيئة وهى أنهم يدفعون أجراً للطبيب ماداموا فى عافية فاذا أصيبوا بمرض انقطعوا عن دفع الأجر حتى تعود اليهم عافيتهم . فالطبيب يربح هناك بمقدار ما حوله من الصحة والعافية لا بمقدار ماحوله من الأمراض كما هو الحال عندنا . وقد اصطنع بعض الاميركيين هذه الطريقة وزادوا عليها تغريم الطبيب بغرامة اذا مرضوا

حقوق الطفل

الطفل أعجز مخلوق عن المطالبة بحقوقه ولكن له مع ذلك حقوقا يجب على الهيئة الاجتماعية أن تحافظ له عليها . فهو الآن طفل وهو غداً رجل

وليس من الحق أن نقول انه يحصل الآن على حقوقه لأنه لو كان هذا حقا لما مات من الاطفال عندنا ٤ فى الالف ولما شب منهم عدد كبير وهم عميان أو ناقصون من بعض الكفايات

فللطفل حقوق أهمها أن يعيش فى صحة وفى رفاهية حتى يقضى أيام طفولته . وليست صحة الطفل بالامر الهين فانها يجب العناية بها قبل أن يولد بسنوات اذ ليس كل انسان جديراً بأن يكون أبا للاطفال فالابله والمريض كلاهما يجب أن يمنع من ولادة الاطفال . لان للطفل الحق فى أن يولد صحيح الجسم وما دام أبواه أو جداه مريضاً فهو لن يحصل على الصحة . ثم من حقه بعد أن يولد من أبوين سليمين أن يعنى به فى لباسه وغذائه وراحته . فلكل طفل أن يطالب المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه بأن تكون أمه قد تعلمت وقد أحسنت تربيتها حتى لاتثقل عليه باللباس فترهقه ولا تهمل نظافته فتؤذيه ولا تفسد غذاءه بالكثرة أو بالقلة فينشأ ضعيف الامعاء عرضة لعدة أمراض . فللطفل أن يطالبنا قبل أن يولد بأن تكون أمه متعلمة لاتؤمن بالتمائم والرقى وتهمل الطب . وله أن يطالبنا بألا نسمح لامرأة بأن تلد ولداً الى هذا العالم اذا كانت لاتزال تعتقد أن غسل العين الرمداء يؤذيها وان وفرة الملابس على الطفل تمنع عنه البرد وأن الرأس يجب أن يترك بلا غسل حتى يعمه القرع

هذه هى حقوق الطفل لكى ينشأ صحيحاً . وله حق آخر فى أن يعيش فى رفاهية وفى راحة . فليس من حق الوالدين أن ينيماه على سرير قذر أو يفسدا عليه مزاجه بالضوضاء أو بحرج المكان أو بالافراط فى التقبيل أو التجميش . لان الطفل ليس لعبة للابوين يتسليان بها بل هو انسان قبل كل شىء من حقه أن يعامل أحياناً بالجد وعلى الدوام بالعدل

ومن حق الطفل الذى لاتستطيع أمه ارضاعه أن تعنى الحكومة باللبن الذى يباع له فى السوق . وليس معنى عناية الحكومة أن تجعل بائع اللبن المغشوش يدفع غرامة بسيطة يخرج بعد الحساب منها رابحاً . ولو كنا نحن البالغين نشترى الخبز مخلوطاً بنشارة الخشب

ولم نجد من الحكومة عقابا للخباز سوى الغرامة لقمنا بالثورة الجامحة عليها . وليس الخبز المغشوش بأفسد لاجسامنا من اللبن المغشوش لاجسام الاطفال

لقد سمعنا كثيرا عن واجبات الابناء للاباء أفما آن الزمان لان نسمع شيئا عن واجبات الآباء للابناء ؟ ان بين الاباء من يمارس قتل الابناء على غير وعى منه ويظن مع ذلك أنه لن تتعلق به تبعة لأنه لم يقصد الى موت ابنائه . ولكن التبعة كلها فوق رأسه . فهو اذا كان مريضاً يجب أن يكف عن التناسل ويترك هذه المهمة للاصحاء ، واذا كان جاهلا بتربية الطفل يجب أن يتعلم

ان فى البلاد جمعية للرفق بالحيوان . وكثيرا ما نجد ونحن بازاء أولئك الاطفال الذين يغطى عيونهم الذباب وتسيل خدودهم شحوبا وصفرة اننا فى حاجة الى جمعية رفق بالاطفال تنزع هؤلاء الاطفال من آبائهم لانهم غير جديرين بالابوة غير قادرين واجباتها حق قدرها ولا شيئا منه

روح التسامح

ربما كان القارىء يجهل ان النظام البرلمانى انما يقوم على أساس التسامح وينجح بمقدار ما فى الامة من روح التساهل فى الاراء والمذاهب . لان هذا النظام يقضى بحكم الكثرة وخضوع القلة لها ريثما يدور الزمن وتعود القلة الى كثرة . فلو تشددت القلة فى التمسك برأيها وأبت الخضوع لرأى الكثرة لانهدم النظام البرلمانى من أساسه وسادت الفوضى مكانه . ومن هنا تجد ان الامم العريقة فى هذا النظام مثل انجلترا يختلف اعضاء برلمانها جد الاختلاف فى الرأى فلا تسمع من احدهم كلمة بذيئة فى حق الاخر . وهذا على خلاف ما يحدث فى الامم التى جد فيها هذا النظام على أساس استبداد قديم سابق حيث تبلغ الخصومة السياسية حد الضرب والقتل كما كان يحدث الى عهد قريب بين بعض الامم التى تعيش فى البلقان

ولكن اذا كان التسامح ضروريا لنجاح النظام البرلمانى فهو أكثر ضرورة لنجاح سائر مرافق الامة . اذلا أدب ولا تجارة ولا تعليم الا بالتسامح . فالادب لا يرقى بل لا يعيش الا اذا أشرب القراء والكتاب روح التسامح . فاذا كان كل قارىء يقف مستعدا لكى يضرب كل مؤلف لا يكتب وفق ما هو يهوى ويجب ان يؤلب عليه الناس لكى يقطعوا رزقه ويحرموه من العيش ، لكسر كل كاتب قلمه واقفرت الامة من مصابيح الهدى التى تهديها ولو كان كل كاتب يقف من نفسه « شاهد ملك » ليدل الحكومة على ما تأخذ كل كاتب آخر ويطلب اليها معاقبته

لما بقى فى الأمة رجل واحد يكتب. وكذلك لو أننا تشددنا فى التجارة وسألنا كل من يعاملنا عن دينه ورأيه لما تبادلنا التجارة مع احد . و لقد أصيبت أو ربا عند ختام الحرب بمثل هذه النزعة فرفضت الاتجار مع روسيا لانها شيوعية ثم تغلب عقلها على عواطفها وعادت فتسامحت وتبادلت واياها المتاجر . واعتبر ذلك ايضا فى التعليم . فهذه نظرية التطور مثلا تدرس فى مدارسنا الان فلو ان روح التعصب كانت تشمل برامجنا التعليمية لحرم ابناؤنا من درس هذه النظرية العظيمة التى اصبحت مفتاحا لجميع العلوم والآداب والأديان

فتقدم العالم يقتضى التسامح وأساس التسامح هو معرفة المتسامح بجهله كما ان أساس التعصب هو غرور المتعصب بمعرفته . وليس فى العالم حقيقة لا يمكن الشك فيها أولا يمكن النظر اليها من وجهتين مختلفتين حتى ان اينشتين يشك الآن فى البديهيات ويكاد يقول ان مجموع اثنين واثنين ليس على الدوام اربعة

فاذا كان الشك يبلغ هذا الحد فى البديهيات فكيف بالبحث فى التاريخ أو الاجتماع أو السياسة حين يكون الرأى الجديد مخالفا للمصلحة الشخصية لبعض الطوائف أو مناقضا للعادة المألوفة المحبوبة أو مصادما لملاذ الكسل التى يأبى المتنعم بها أن ينشط لدرس الجديد ؟

فهل لنا ان نطلب الى الشيخوخة المسنة ان تتمهل و تتسامح مع نشاط الشباب وأن تعرف ان الأمة تحتاج على الدوام الى النظر الى الامام والى المستقبل كما تحتاج أحيانا الى النظر الى الخلف والى الماضى ؟

لن يضير الأمة أن يؤلف احد شبابها كتابا يخالف رأى شيوخها لان هذا الكتاب ستتناوله العقول بالنقد و التمحيص فيزول غثه و يبقى ثمينه على مدى الزمن . فلنقتل الكتاب بحثا وفحصا ولكن يجب ان نترك المؤلف فلا نطلب ان نقطع رزقه لأن هذا الطلب الأخير هو من الخطط التى اندثرت بزوال القرون الوسطى حين كانت « محكمة التفتيش » تصادر من تتهمه بالزندقة فى املاكه وتستصفيها

اننا لانزال جهلة بحقائق هذا العالم وجهلنا هذا يمنعنا من البت والجزم ولهذا يجب ان نتسامح فيما يقوله غيرنا لاننا لسنا من الثقة بآرائنا بحيث نستطيع أن نقطع بسخافة آراء الغير او ضررها . و يجب أن نتذكر ان لكل جديد صدمة تشبه ما تلاقيه النفس لأول ما تسمع لحنا جديداً . فقلما نستطيب اللحن الجديد لاول سماعنا اياه ولكن الاستطابة تعقب المعاودة . وكذلك الآراء الجديدة تصد عنها النفس كما تصد عن الزى الجديد ثم تستحسنه بالمعاودة والالفة . والتقدم والرقى كلاهما مستحيل مالم نقبل الجديد ونتسامح فيه

برنامج للاصلاح

لقد صارت تركيا جمهورية منذ سنوات وأخذت حكومتها تنفذ برنامجاً غريباً فيه شيء كثير من الغلو لانهاض الأمة . بل مصطفى كمال لا يرضى بالتطور لانه يرى فيه من البطء مالا تطيقه نفسه الوثابة فهو لذلك يعمد الى الطفرة فينفذ برنامجه بالسوط وأحياناً كثيرة بالسيف

ولسنا فى مجال تقدير اصلاحات مصطفى كمال فان فيها كما قلنا شيئاً كثيراً من الغلو الذى لا يوافقه عليه شرقى وانما العبرة التى نستفيدها منه انه يمكن اصلاح الأمة وتغيير أخلاقها بواسطة القوانين والحكومة . وان الطفرة قد لا تقل أحياناً فى الفائدة عن التطور على مافيها من صدمة للرأى العام

ونحن هنا فى مصر نشترك مع سائر أقطار الشرق فى ان دهماءنا وعامتنا مثل عامة هذه الأقطار ودهمائها من حيث تراكب الجهل وتراكم الخرافات التى خلفتها لنا القرون الماضية . ولكننا نختلف عن هذه الأقطار فى شيء آخر وهو ان خاصتنا لا تقل ثقافة وحضارة عن الخاصة فى أوربا وأزمة الحكومة الآن فى أيدى الخاصة كما ان أزمة الرأى العام أيضا فى أيديها . فاذا أرادت الخاصة اصلاحا للامة فى أى فرع من فروع مرافقها استطاعت أن تنفذه بقوة الحكومة وان تعبىء الرأى العام لنصرته وتأييده

لقد كنا فى الأربعين السنة الماضية مشغولى الذهن باستقلالنا وبمكافحة خصومنا المحتلين ولذلك لم نفرغ لاصلاح الأهالى اصلاحا عمرانياً اجتماعياً . ولسنا ندعى اننا قد فرغنا من كفاحنا مع خصومنا ولكننا نظن اننا يمكننا الآن أن نخص الأمة بشيء من الاصلاح الاجتماعى الى جانب كفاحنا السياسى

ففى أوربا برامج عديدة للاصلاح الاجتماعى جدير برجال السياسة والحكم عندنا أن يدرسوها وينقلوا الينا منها ماهو موافق لبيئتنا الاجتماعية . ففى بريطانيا العظمى مثلا نظام تدريجى للمعاشات بحيث ان كل من بلغ السبعين سواء أكان رجلا أم امرأة بصرف النظر عن صناعته السابقة يتناول معاشاً يجعل دخله السنوى نحو ٢٧ جنيهاً . والحكومة تنفق نحو ٣٠ مليون جنيه فى العام على هذا المعاش وهى بذلك قد ألغت من البلاد ضروب الشقاء التى كانت تنتشر بين الفقراء وتضطرهم الى هوان النفس بالاستكداء

وفى معظم الاقطار الاوربية ضريبة متدرجة تقع على الدخل وهى الآن من اكبر موارد ايرادات الحكومات ، وهى تصيب الغنى بنسبة أكبر مما تصيب الفقير وتقع على التاجر والمحامى والمعلم والزارع على السواء

وكذلك فى معظم الاقطار الاوربية ضريبة على الميراث وهى أيضا تتدرج بنسبة قرابة الوارث ومقدار مايرثه بحيث تقع على الغنى أكثر مما تقع على الفقير وعلى الوارث البعيد أكثر مما تقع على القريب

فكل هذه اصلاحات يمكن اصطناعها فى مصر لزيادة ايرادات الحكومة حتى تقوم بنفقات التعليم مثلا . فان الامة فى حاجة الى نحو عشرة آلاف مدرسة جديدة حديثة ولا يمكن تأسيس هذه المدارس والانفاق عليها إلا بمبالغ طائلة . وفلاحنا لايتحمل أكثر مما يحمل من الضرائب

كيف وماذا نقرأ

الناس رجلان احدهما يحتال للانتفاع من وقته كأنه يجعل من الساعة ساعتين والآخر يحتال لاضاعة وقته بحيث يحيل الساعة الى نصفها أو الى العدم . وهناك وسائل عديدة عند هذا الفريق الاخير لقتل الوقت وتضييع الفرص وتقصير العمر القصير حتى لتشعر من اتقانهم معرفة هذه الطرق أنهم يندمون على أنهم قد ولدوا الى هذا العالم . ويمكنك أن تجيل النظر فى القهوات وتدرس بعض الالعاب حتى تتأكد انها كلها انما تمارس هرباً من الحياة وسامة من الدنيا وندماً على الوجود

لسنا بسبيل الكلام مع هؤلاء. وانما نريد أن نتحدث الى الفريق الاول الذى يحتال للانتفاع من وقته والذى لايندم على وجوده فى هذا العالم . فمن ضروب الانتفاع بالوقت واكتساب القوة باثارة الذهن نجد القراءة فى المكان الاول . وقد كانت القراءة من وسائل الرقى فى الازمنة الماضية ولكنها كانت من الوسائل الثمينة التي لاينالها الا المبالغون فى الجد وأبناء الاثرياء . اما الآن فهى ميسرة للجميع لايتكلف طالبها سوى أقل المال أو لايتكلف شيئا مطلقاً

وسيأتى زمن ما يعيش فيه الانسان ليقرأ ولا يكاد يجد عملا فى العالم يكده ويملأ فراغه . بل كل وقته تقريبا مثل القراءة والدرس

ولكن كيف يجب أن تكون القراءة ؟ هل يجب أن نسير فيها ونسلك سبيلها على النحو الذى يسلكه لاعب النرد أو الشطرنج تزجية للوقت وفراراً من الحياة فنقرأ القصص تلو القصص وعشرات المقالات السياسية، يرادف معناها فى الواحدة معانى الأخرى ؟

كلا . انما يجب أن نقرأ لننتفع . فالمعرفة قوة والجهل عجز . فلنقرأ اذن لكى نعرف ونزداد علما بالاشياء ، لكى نزداد بذلك ادراكا للحياة واحساساً بها . وليس فى مقدور كل منا أن

يختبر جميع شئون هذه الدنيا اختباراً مباشراً انما فى مقدورنا جميعاً أن نكتسب علما بها عن سبيل الآخرين الذين اختبروها وأثبتوا اختبارهم بأقلامهم منفعتنا

ومعنى هذا أنه يجب أن يكون لكل منا مكتبة فى منزله وأن يعد الكتب من ضروب الاثاث الضرورى للمنزل بل هى أكثر ضرورة من بعض الاثاث الذى ترتكم به بعض المنازل فى غير منفعة سوى الفخر الكاذب والأبهة السخيفة . فالكتب هى أثاث الذهن يتقلب فيها ويرتاح اليها ويستفيد منها ويستنير بمعارفها

فيجب اذن أن تعمل عقولنا فى انتقاء الكتب والمجلات والصحف فلا نقتنى الا ما ينفعنا ولا نقرأ الا ما هو ضرورى لنا مما يرفعنا فوق مستوانا وينير أذهاننا ويزيدنا قوة وخير أنواع التربية حين يربى الانسان نفسه فيقيس كفاياته ويقدر ما يحتاج اليه من التثقيف لانه عندئذ يحسن التقدير ويسير مع هواه فى انتقاء المواد . والهوى من أعظم الوسائل فى تسهيل الصعب وتمهيد الوعر ومن الناس من لا يسعده الحظ بتربية مدرسية وافية ولكنه يجد من وقته الوسيله لتربية نفسه بالكتب والمجلات اذا هو ثابر على القراءة وأحسن الاختيار فى اقتناء الكتب . وليست المدرسة الا البداية للتربية الحقيقية فهى تغرس فى النفس (أو يجب أن تفعل ذلك) تلك النزعة التى تجعل كلا منا طول حياته طالبا للعلم ساعياً وراء الثقافة

ولن يكون ذلك الا بالكتب وتقليبها والنظر فيها واعتياد التنقيب والبحث . هذا الى نزعة موفقة تحملنا على الجد والمنفعة لا التسلية واضاعة الوقت . ولسنا نقول أن قراءة الصحف السياسية تخلو من الفائدة وانما نقول ان الادمان عليها مع تكرار معانيها تضييع للوقت والمال معاً . فلنقرأ من التاريخ والشعر وسائر فروع الادب والعلم ما ننتفع به وتزكو به عقولنا ويعظم به احساسنا للحياة ، فقارىء التاريخ يضيف الى عمره أعمار الاجيال الماضية وقارىء كتب السياحات يضيف الى وطنه أوطانا أخرى والتعمق فى العلوم يزداد بصيرة

الفتاة الحديثة

عندنا فى مصر طبقة من الكتاب اذا اعوزتهم مادة الكتابة عمدوا الى موضوع المرأة فنعوا عليها تبرجها وفسادها وانحطاطها . وقد ألف القراء منهم هذه النغمة فلم يعد يبالى بها واحد منهم وقلما يقرأ أحد هذه المقالات الكثيرة التى تملأ الصحف بها أعمدتها عن المرأة لأن موضوعها ومضمونها قد عرفا وسئما معا

ومضمون هذه المقالات أن المرأة الحديثة أكثر تبرجاً وأحط أخلاقاً من والدتها أوجدتها .

وليس ينكر أحد ان فى مصر وخاصة فى القاهرة نساء متبرجات يسرن فى ضوء النهار قبل الظهر و بعده بلباس السهرات مكشوفات أعلى الصدر وأعلى الظهر . ومنهن أيضا من يضعن المساحيق على وجوههن ويصنعن الوشى المختلف والمضحك معاً للابسهن . وكثيراً ما يكون الجهل داعية ظهورهن بهذه المظاهر فهن لا يتعمدن هذا المظهر وانما يجهلن المظهر اللائق ومقابلة المرأة القديمة بالمرأة الحديثة موضوع دائم الطلاوة يغرى الكتاب بالكتابة حتى فى اوربا فهناك ينعون على الفتاة الحديثة ترخصها فى عادات كانت جدتها لا تجرؤ على اعتيادها مثل التدخين والمجاهرة بالرأى وتقصير الثياب وتضييقها وقص الشعر ونحو ذلك

ولكن للفتاة الحديثة من يدافع عنها ويقطع ألسنة السوء التى تعبث بشهرتها . فقد رد أحدهم على ما تتهم به وقابلها بالجدات القديمات فوجد أن الفتاة الحديثة على الرغم من انطلاقها فى الحرية أكثر شعوراً بالمسئولية من جدتها وأكثر استعدادا لمواجهة الشدائد وأكثر اعتماداً على نفسها وأعرف بوسائل العيش الشريف منها . فقد كانت آداب الجدات محصورة فى الصمت وتكلف الادب أمام الرجال والاقتصار على أعمال البيت وكانت تلبس من الثياب الضافية ما يكفى الواحد منها لان يفصل منه ثلاثة أو أربعة مما تلبسه الفتاة الحديثة . ومن يقف فى لندن عند فوهات أو محطات الانبوبة (أى القطار الذى يجرى تحت الارض) ويرى آلاف الفتيات اللواتى يتدحن للمعاش وهن مقصوصات الشعر متقلصات الملابس لا يسعه الا احترامهن واكبار نفوسهن . ولو كانت جداتهن فى مكانهن لقنعن بالقعود فى البيت والرضا بالدون من العيش ولكن هؤلاء الفتيات أطمع فى مسرات الحياة وأشجع على مشقاتها وأنزع الى الرجوله منهن وأذكى عقلا وأخف يداً وقدما من أن يرضين بلزوم البيت مع الفقر والمسكنة فى حين يمكنهن الاكتساب بالعمل والجد

هذا فى لندن . والحال ليست كذلك فى القاهرة . ولكنها ليست من الخطر بالمقدار الذى يوهمنا به زعماء القديم من كل شىء . فقد سلمنا بان فى القاهرة طبقة من الفتيات تتبرج عن جهل لا عن قصد . والذى يدعونا الى هذا الظن أن تبرجهن خلو من الذوق . ولو كان عندنا رأى عام مهذب يدرى بالاذواق والازياء لكانت لفتة واحدة من الرجال يزدرون بها هذه الازياء تكفى لان تمنع الفتيات من التبرج منعاً باتاً ولكننا نقول ان الفتاة الحديثة فى مصر لا تزال مع ذلك أصح نظراً للحياة من والدتها أو جدتها . فهى تمشى الآن وحدها فى الاسواق معتدلة القوام مرتفعة الرأس فى حين كانت جدتها تمشى متعثرة مع الخدم . وهى تقرأ بينما كانت أمها جاهلة . وهي لا تبالى بالسمن فى حين امها كانت ترهق أمعاءها بأكل المسمنات . وهى ترى العالم بعينيها ولا تضع على وجهها سوى نقاب خفيف بينما كانت أمها تخفى عينيها عن العالم . فاذا قيل بعد ذلك أنها تداعب الفتيان فى الطريق فانه يجب على القارىء أن يذكر ان المداعبة تحتاج الى اثنين فاذا لمنا الفتاة وجب أن نلوم الفتى . وهو باللوم أحق لانه هو البادىء

والناس يحبون مقابلة الحاضر بالماضى فيصغرون الاول ويكبرون الثانى . فتراهم يصفون القدماء بانهم كانوا أحفظ للذمم منا وكانوا أعف فى الحرمات منا وكانوا . و. هذا كذب لا أصل له . فان جدودنا مثلا رضوا بحكم المماليك فكانوا أجبن منا ورضوا بمظالم كثير من حكامهم حتى أشرفت البلاد على الخراب . وقد زار ندلسى قبل نحو ٧٠٠ سنة بلادنا فذكر ان الفحش والزنا فى القاهرة لا حد لها وان قذارة مدننا لا تطاق . فالقول بان المرأة القديمة تفضل المرأة الحديثة لغو لا يقول به الا الجاهل

عصر السياحات

فى الصحف الانجليزية اعلان غريب وضعته شركة كوك المعروفة فى مصر . وخلاصة هذا هذا الاعلان أن هذه الشركة ستهيء المهمات اللازمة لرحلة كبيرة بين القاهرة والكاب . وستشرع الشركة فى القيام بهذه الرحلة ومعها الحرس اللازم والمؤن يوم ١٠ من ديسمبر القادم

لقد قرأت هذا الاعلان وأنا أتعجب لشيئين : همة هذه الشركة التى سترتاد قارة وكأنها تقوم الى الهرم أو الى أسوان . وأيضاً اتسام عصرنا هذا بسهولة التنقل ووفرة مافيه من سياحات

افريقا بلاد الاسود والفيلة وأكلة البشر من الناس . بلاد التماسيح والقردة والزنوج الذين لم يهتدوا بعد الى فن الزراعة . بلاد الحر والبعوض ومرض النوم سيذهب الى قلبها لابل سيخترقها من الشمال الى الجنوب جوقة من الناس من أهل باريس ولندن وغيرهما من بلاد النور فيرون بعيونهم الوحوش والتوحش ويرون كيف كان الانسان قبل أن يتحضر . يرون الاصنام تعبد فى سنة ١٩٢٦ . ويرون الزعيم زعيما لان عنده نحو مائة امرأة . ويرون جبال افريقيا ومنابع النيل والشلالات العظمى فى افريقيا الجنوبية . يخرجون فى الشتاء من القاهرة ويبلغون الكاب فى الشتاء أيضاً فيخدعون شمس افريقيا ويقعون تحت لهبها فى الصيف

حقاً أنها لرحلة عظيمة تقوم بها شركة عظيمة . فلنعجب الاعجاب كله بهذا الخلق الانجليزى العظيم الذى يستسهل الصعب وتلذ له المجاهدة والمكافحة . ولكن لنترك هذا الان ونلتفت الى مغزى آخر لهذه الرحلة

وهذا المغزى الاخر هو أننا نعيش فى عصر السياحة وأن العالم كله قد آل الينا ميراثاً أورثنا إياه العلم والحضارة . فاذا نحن عقلنا انتفعنا بهذا الميراث واذا لم نعقل بددناه كما يبدد الوارث السفيه تركة أبيه . وسبيل انتفاعنا به هو أن نعرفه ونجربه ندرس مافيه من ناس وحيوان ونبات وجماد

لقد كان كاتب هذه السطور يتخيل « طوبى » أومثلا أعلى للهيئة الاجتماعية فجعل السياحة

للقطب الشمالى أو غيره من الاصقاع النائية شرطاً أساسياً للتربية فى تلك الطوبى . وانما الطوبى يتصورها الانسان خيالا يرجو أن يتحقق بعد شوائب عام على الاقل . أما وهذه الشركة الانجليزية تقدم على القيام برحلة من القاهرة الى الكاب فى سنة ١٩٢٤ فاننا عند تأليف طوبيات أخرى يجب أن نرخى للخيال بل نطلقه حتى يتخيل ماشاء بلاقيد ولاشرط دون أن نخشى المبالغة

لقد بدأنا نشعر أن التربية الحقيقية يجب أن تعدو حدود الكتب فصارت المدارس تقوم برحلات متفاوتة طولا وقصراً . ولكن يجب أيضاً أن نعرف أن التربية لاتقتصر على طلبة المدارس بل كل منا طالب يطلب العلم ويزداد معرفة الى يوم وفاته . والسياحة وسيلة من وسائل المعرفة فيجب أن نستغل وسائل النقل الحديثة من بواخر وقطرات وطيارات لرؤية العالم . ولسنا نعنى بالسياحة تلك الرحلة السنوية الى باريس حيث يعود الانسان أسوأ صحة وأضعف أخلاقا مما كان كما اعتاد بعض الاثرياء الذين يحجون كل عام الى باريس

كالكم راع

لقد كنت أقرأ هذا الاسبوع قصة من تلك القصص السرية للكاتب الانجليزى ولز . وكل قصة من قصص ولز تبحث فى موضوع قائم برأسه أكثر ما يكون اجتماعياً أونفسياً . وأقل الاشياء حظاً فى قصصه على خلاف مانرى فى القصص الاخرى هو العشق

وموضوع هذه القصة رجل يحترف حرفة وضيعة تصد عنها نفسه وطبيعته ولكن عيشه يربطه بها ويقهره على لزومها فيلزمها صاغراً . وأخيرا تطمو به نفسه الى الخلاص منها بطريقة مختصرة غايه فى الاختصار وهو انه يحسب نفسه ملكا ويجن ويرسل للمارستان

ومثل هذا الجنون يعرفه المشتغلون بعلم النفس . وقد أخذ المؤلف يحلل نفس هذا المسكين ويعلل جنونه علة بعد علة مما لانرى المجال يتسع لايراده . وانما نختصر القول بأن نقول أن فى نفس كل انسان نزعة الى العلا والخير وأنه مهما كانت حرفته وضيعة ففى قرارة نفسه بذرة الملوكية التى تأبى الضعة والهوان

وبعضنا تنزع به ملوكيته الى الجرى وراء المناصب العليا من نيابة أو وزارة أو غيرهما . وبعض آخر تسمو به نفسه الى البر فيؤلف الجمعيات الخيرية أو ماشا كلها . وثم بعض آخر أيضاً يعمد الى هذا العالم فيبسط عليه سلطان عقله ويدرسه ويتعمق فى معرفة أسراره . والمعرفة ضرب من التسلط وبعض آخر يعمد الى التجارة فيستولى بها على مملكة صغيرة من محتويات هذا العالم يطمح بذلك الى نوع من الملوكية وقد يكون مخدوعاً

فكل هذه حالات تدل على نزوع كل انسان الى السمو وحب التسلط والحصول على ضرب من الحكم والرغبة في أن تطيع العالم جانبنا . وهذا ماقصد اليه المؤلف الانجليزي وقد بالغ في قوة هذا النزوع حتى نسب الجنون الى رجل قهرت فيه هذه العاطفة بلزومه حرفة وضيعة لايرى فيها مجالا للظهور فى العالم والعمل لرقيه وطبعه بطابعه حتى ثارت عليه نفسه واقتضته دينها كله بأن أوهمته أنه ملك

وفى العربيه قول مأثور وهو . « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » وهو معنى ماقاله هذا المؤلف، حين قال : « كلكم ملك وكلكم مسئول عن مملكته »

ولكن كيف نمارس هذه الملوكية ونأخذ على عاتقنا قسما من مسئولية الحكم ؟

نمارسها برقابة الحكام ومعونتهم على العدل والبر وكفهم عن الظلم والعسف . ونمارسها أيضاً بأن نتولى نحن شيئاً من الحكم بمعونة الناس على الصلاح والمعيشة الحسنة وامتلاك ناصية الطبيعة بالاكتشافات العلمية لان الاكتشاف نوع من التسلط واذاعة المعارف بين الناس نوع من الحكم

أجل يجب أن يراقب كل مناحكومة البلاد التى يعيش فيها ويجب أن نستعد لان نسأل نواب البلاد كما يسأل الملك وزراءه فى نهاية العام : ماهو الاصلاح الذى تم على يدكم للبلاد ؟ فاذا لم يكن ثم اصلاح قد تم فان العام قد ذهب سدى وضاعت فرصة ثمينة لتقدم الأمة ونجاحها

وكذلك يجب أن نغضب عند مانرى موظفاً يهين أحد الناس أو يؤدى عمله بالارتشاء أو يستعمل سلطته فى الأذى والضرر . ويجب ألا يقف غضبنا عند حد السخط السلبي بل ينبغى أن نعبر عن سخطنا تعبيراً إيجابياً ونعمل عملا يقتضى تأديب هذا الموظف حتى يعتبر به غيره

وثم مملكة أخرى بل ملكوت آخر يجب أن نمارس فيه سلطاننا . وهذه المملكة أو هذا الملكوت هو هذا العالم من حيث حدوده الجغرافية والتاريخية أو من حيث حدود الزمان والمكان فيجب أن ندرسه ونعرفه لانه لايليق بملك أن يعيش جاهلا ولا براع أن يحكم بين الناس وهو يجهلهم ويجهل تاريخهم

« كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » . أجل . ولكن كيف ترعى رعيتك اذا لم تنصب نفسك لدرس شؤون هذه الرعية وتفهم موارد كسبها وأبواب نفقاتها وظلم الظالمين فيها وعدل العادلين بها ؟ فشرط هذه الرعاية بل الشرط اللازم لأن تكون ملكا هو أن تدرس ثم تراقب حكومتك وأمتك وأن تعمل للخير فى وطنك وأن تبذل مالك ونفسك بهمة ملوكية عند ماتقتضى الظروف ذلك منك كما يبذل الملك الشجاع نفسه فى الدفاع عن أمته

الاعتدال

كان أحد المتهكمين يقول ان الاعتدال دليل الضعف . وقد يكون كذلك فى بعض الحالات .
من الناس من يتورع عن الخمر أو يعتدل فى تناولها لما يرى من أثرها السيء فى صحته . ومنهم من يعتدل فى الطعام لأن معدته ضعيفة وان كانت نفسه نهمة

ولكن هناك اعتدالا يجب أن نصطنعه للقوة لا للضعف . فيجب مثلا أن نعتدل فى الرياضة البدنية حتى نجد وقتاً للرياضة الذهنية . ويجب أن نعتدل فى درس العلوم حتى نتمكن من درس الآداب ويجب أن نتوسط ولا نغلو فى جمع المال لكى نتمتع بالاصدقاء والكتب وهناء العائلة والنزه

فالحياة الكاملة أو التى تنشد الكمال يحتاج صاحبها إلى الاعتدال والتوسط . لأن هذه الحياة لاتبلغ القوة والسلطان على الوسط الذى تعيش فيه حتى يأخذ صاحبها بطرف من جميع مهام هذا العالم . فحياة الأديب الذى يدمن النظر فى الأدب قد تنتهى به إلى أن يصير دودة من ديدان الكتب يؤثر الجملة المزخرفة والعبارة المبهرجة على متع الحياة الحقيقية . والكتاب مهما قيل فى مدحه هو نسخة مترجمة عن الحياة وليس هو الحياة بالذات . وحياة العالم الذى يكب على العلم ولا ينظر فى الأدب هى أيضاً حياة ناقصة تدعو إلى قصر النظر وضيق الذهن . وانما الحياة المثلى هى حياة الاعتدال بين شهوة العلم وشهوة الأدب . وكذلك يمكن القول عن رجل الأعمال المكب على جمع المال المنغمس فى شهوة الحصول على أعراض العالم يكد طول يومه وبعض ليله فى اقتناء الدور والمصانع والأراضى كأنه أحد الفعلة الذين يعملون عنده بل قد يكون الفاعل أكثر تملياً للحياة وتمتعاً بمسراتها منه

وقل مثل ذلك فى سائر الناس . فالواجب أن نعتدل ونقنع من الحصول على بعض أشياء لكى نجد من الوقت والقدرة ما نتمكن بهما من التمتع بأشياء أخرى لأن الحياة أوسع وأعظم من أن يسعها الاكباب على عمل واحد وادمان النظر والاجتهاد فيه

ولقد كان المسيح يتكلم عن « الحياة الوفيرة » المليئة بالتجارب والمتع وكان يتخيل هذه الحياة كمثل أعلى إزاء ما كان يرى من حياة ضنينة يعيشها الناس . وكم من الناس الآن يعيش حياة ضنينة لايعرف من الدنيا سوى عمله الذى يربح منه قوته يكب عليه بكل قوته ويتعامى عن كل ماحوله كأنه لم يخلق إلا ليأكل

لقد كان جيته الأديب الالمانى ولايزال مضرب المثل فى التمتع بالحياة ، كان أديباً وكان عالما

وكان سائحاً وكان موظفاً كبيراً بلا السياسة وحنكته الدسائس عرف الحب شاباً وكهلا . وكان يعرف للطعام الحسن قيمته ويشرب أجود الخمور فى الليل وأجود أنواع الشاى فى النهار فعاش بذلك حياة وفيرة لم يضن فيها على نفسه بشىء من متعها

ولسنا جميعنا فى كفاية جيته وقد لانستطيع أن نتمتع بما تمتع به . بل قد تكون بعض متعه آلاماً لبعض الناس . وانما قصدنا أن نقول أنه ينبغى لنا الاعتدال فى العمل الذى نزاوله لكى تتاح لنا الفرصة للتمتع بالحياة فان تعدد وجوهها يقتضى أن نلم بها لكى نعرفها دون مبالغة أو ادمان فى أحدها

فالاعتدال فضيلة يدعونا إلى ممارستها الاحساس بالقوة لا الاحساس بالضعف . فيجب على المعتدل ألا يخشى تهكم المتهكمين وكم فى الحياة من متع نجهلها ونحرم أنفسنا منها وهى على مدى الذراع فى متناول كل انسان لو أراد . فنحن نعيش مثلا فى مصر التى هى أصل حضارة العالم أجمع بشهادة العلماء ومع ذلك نجهل آثارها التى تكشف لنا عن تاريخ العقل الانسانى وضلالاته . ونحن نعيش فى عصر حافل بالمخترعات والمكتشفات وأى شىء أمتع للنفس من أن ندرس هذه الاشياء ونجربها . أجل ، ندرس آلة الطيارة ونركبها فنغذى الذهن والاحساس معاً . اليس من العار أن نموت قبل أن نركب الطيارات ونقضى حياتنا مكبين على عملنا كأننا مسخرون له ؟

فلنكن عظماء

لن تكن عظيما حتى تعد نفسك عظيما وتمارس العظمة . ولن تكون شريفاً حتى تعد نفسك شريفاً وتمارس الشرف . فالعادة والممارسة كلتاهما واجبة لكى نصطنع الشرف أوالعظمة أومايقابل هاتين الصفتين من الدناءة والحطة

وأنت إذا توهمت نفسك عظيما ثم وقفت عند ذلك لما نلت من العظمة إلا الظل . ولكن إذا أنت توهمت العظمة ثم مارست بعض الاعمال العظيمة مهما كان مركزك فانك لابد بالغ نوعاً من العظمة فى مستقبل أيامك

فاذا كنت تتوهم العظمة فى الثروة فلاقيمة لتوهمك ما لم تشرع فى جمع بضعة قروش . وأول المليون واحد . وإذا كنت تتوهمها فى العلم فاشرع فى الحال فى درس ماترغب فيه . واذا توهمتها فى السياسة فلا تقنط من أن تكون وزيراً وأنت ترى زمننا الديموقراطى يرفع العصاميين إلى مراتب الوزارة فيما يشبه الحلم . بل لقد قال أحد وزرائنا أنه حلم بالوزارة قبل أن ينالها . وليس

لحله معنى سوى أنه كان شديد الاشتياق للحصول عليها فزاول بعض صعابها حتي ارتقى اليها . وإذا توهمتها في الصناعة فاشرع في المال في تجاربها الأولى

فالتوهم مفيد لأنه يعد النفس ويوجه قواها إلى الغرض . ولكن لابد من المزاولة حتى يتجسم الوهم وينزل من رتبة الخيال إلى الحقيقة ويجب ألا نخشى نقائصنا أو مانتوهم أنه من نقائصنا . فلا الفقر ولا الجهل ولا المرض ولا الآفة المعجزة نفسها تمنع العظيم من أن يحقق عظمته لأن الطموح يسهل كل عقبة ويفتح كل باب مستغلق وبعد ذلك تأتى المزاولة ومتى زاولنا شيئاً فنحن فى طريق الخوض فيه إلى النهاية

لقد كان هابير رجلا أعمى فاجأه العمى فجزع له لأول صدمة ثم تنبه إلى أنه انسان يجب ألا يرضى بالخضوع والاستسلام فاكب على درس النحل وصار بعد ذلك ممن يوثق بهم فى هذا الموضوع الذى يستعصى على معظم المبصرين . وهذا الدكتور طه حسين أصيب بالعمى وهو فى الثانية من عمره فما عاقه هذا عن أن يكون من أكبر أدباء مصر ومن أجرأ الكتاب فى طلب الاصلاح . وهو لم يبلغ هذا المبلغ لقوة خارقة فى ذكائه بل لانه طامح إلى العلا مكب على الادب يمارسه بذمة وأمانة

فلنكن عظماء . ليكن لنا هدف عال نسدد اليه نشاطنا وقوانا ونوجه اليه طماحنا ولنذكر على الدوام أنه مامن انسان بلغ رتبة كان طماحه دونها فان من يقنع بالقليل يناله ويقف عنده ولكن من يطمح لبلوغ الكثير يضمن القليل على أية حال والارجح أنه ينال الكثير أيضاً ، ولنتوهم العظمة فى نفوسنا ولو دعانا هذا إلى بعض الكبرياء لأن من يمارس الكبرياء لايجد بدأ من النزوع إلى العلا والتباعد عن الدنايا والنبو عن السفاسف . ولا ينقصه عندئذ الا أن يزاول بعض مايطمح اليه ويشرع فى الخطوة الأولى يجد نفسه أنه قد بدأ السير فى الدرب الذى تنتهى اليه غاية طماحه

فانت أيها القارىء كما تتوهم فى نفسك . فاذا توهمت العظمة فأنت عظيم منذ أن تبدأ فى تحقيق توهمك . والعظيم لايجزع وقت الهزيمة لان نفسه طامحة مستبشرة بالنصر القريب فهو يستهين بآلامه ويستأنس بأحلامه حتى إذا سنحت الفرصة انطلقت قواه فحقق مايريد . ولا يهولنك أن يقال لك أنك تمنى نفسك وتستنيم للاحلام لانه مامن انسان بلغ رتبة عظيمة الا وكان يحلم بها السنين الطوال قبل أن يحققها

مصلحتك هي مصلحة الجماعة

انك تعمل ضد نفسك اذا عملت لنفسك فقط . لان مصالحك متعلقة بمصالح الجماعة التى تعيش بينها بل بمصالح العالم كله . وهـذه حقيقة عرفها بعض الدول التى كانت تحارب المانيا فانها ظنت ان بالقضاء عليها تنفرد هى وحدها بسلطتها فى العالم . ولـكن خراب المانيا عاد بالخراب على أعدائها أيضاً لان أمم العالم متضامنة لاتقدر احداها أن تبيع شيئا مالم تقدر الاخرى ان تشتريه فاذا عجزت الاخرى عن البيع . فالنية السيئة التى انطوى عليهابعض الدول لالمانيا عادت عليها هى نفسها بالضرر نفسه الذى عاد على المانيا بل ربما بأكثر منه

وقد بدأ الانجليز يدركون مغزى آخرلهذه النظرية فى أحوالهم الداخلية . فقد رأوا من الرواج فى الولايات المتحدة ماتعجبوا له ولم يفهموا سره ازاء الكساد الذى يرونه فى بلادهم . وأخيراً عرفوا ان زيادة أجور العمال فى أميركا تزيد قدرتهم على الشراء فتروج الاعمال و يعم الرخاء أخذاً وعطاءا أما فى انجلترا فان كل محاولة لانقاص الاجور تنشر الكساد بين الناس لان العمال وهم كثرة الامة لايستطيعون الشراء . فأصحاب المصانع الذين يريدون رواج مصنوعاتهم لايمكنهم أن يحققوا ذلك مادامو يعملون فى الوقت نفسه على انقاص أجور عمالهم . فمصلحة الممول هى نفسها مصلحة الاجير ولا يمكن الممول أن يطلب السعادة لنفسه اذا كان يطلب الشقاء لاجيره لانهما متضامنان

وأنت أيضاً أيها القارىء لايمكنك أن تخدم مصالحك مالم تخدم مصالح الامة التى تعيش فيها ولا يمكنك أن تسعد اذا كانت الجماعة التى تعيش حولك شقية . لان شقاءها يعود عليك بالذات . فأنت لـكى تعيش عيشة صحية ولـكى يسلم أطفالك من الامراض يجب أن تنتشر الصحة والعافية بين الجماعة التى تعيش بينها وتنتفى الامراض من بينها . لانه لن يكون أولادك فى أمن من المرض مادام أولاد جارك مرضى . فعنايتك بأولادك تقتضى العناية بأولاد جارك حتى لاتنتقل عدواهم اليك . ولن تستطيع أن تشرب ماءا نظيفاً خاليا من جراثيم المرض حتى تحتم وجوب نظافته لجميع سكان البلدة التى تعيش فيها ولن يكون ولدك آمناً فى الطريق من لص يسرقه أو ترام يدهمه أو غبار يملأ عينيه أو منظر يفسد أخلاقه مالم تسع لجميع الاولاد لـكى يكون طريقهم آمنا أيضاً

فأنت بوسطك لن ترتفع أكثر مما يرتفع معك ولن ينزل هو حتى يجرك وراءه . فمصالحنا الذاتية تقتضى أن ننظر الى مصالح الآخرين لان خيرهم خيرنا وشرهم شرنا

لقد كنت من مدة أقرأ احد كتب التاريخ لمسكويه . وهو يروى فيه تاريخ بغداد والخلافة وقت التدهور والزوال حين كانت اللصوصية سلم الامارة والحـكم . وقد روى تاريخ أحد الامراء

وكيف أدى سوء سياسته الى خراب بلاده . فقال ان هذا الامير كان اذا جبى الضرائب الفادحة وعجز الاهالى عن الدفع ارتهن أملاكهم بما ينكسر عليهم من الضرائب فاذا غلق الرهن ولم يدفعوا اشترى منهم هذه الاملاك بابخس الاثمان بالرهن أو بقليل زيادة عليه . وانتهت هذه الخطة العجيبة بان أصبحت مملوكات الاهالى كلها ملك هذا الامير السافل . ولكن ماذا حصل لديه بعد ذلك ؟ بعد أن أصبح صاحب البلاد ملكا وملكا قل دخل الحكومة ونقص عما كان وقت ان كانت المملوكات ملكا للاهالى وأخذت العقارات تتدهور نحو الخراب فلا يتحرك الاهالى لترميمها لانهم لايملكونها وفشا الكساد وعم الفقر جميع الناس

الغاية من الحياة

ذكر الاديب المعروف كابيك انه عرف أحد أثرياء أميركا يقضى وقته فى السفر على القطار أو الباخرة وهو يملى على كاتبه خطابات خاصة باعماله . واذا قعد فى الاتومبيل عقد مجلساً للمفاوضة فى شأن خاص بعمله أيضاً . واذا أكل أو تنزه أو تناول الشاى لم ينس الكلام عن أعماله

ويخشى كابيك أن تتأمرك أوربا فتكبر من شأن النجاح المالى وتجعل الغاية من الحياة احراز الثروة فقط

وكلنا يجب أن يخشى ماخشيه كابيك لاننا معرضون على الدوام لفتنة المال تسارقنا شهوته فتعمى أعيننا عن القصد من الحياة وتستغرق جهودنا كلها فترانا وقد بلغنا الشيخوخة ونحن نتساءل : هل عشنا حياتنا وتمتعنا بها على هذه الارض أم قضينا عليها عمرنا فقط وقطعنا السنين الطويلة فى جمع المال ؟

ولسنا بذلك نقلل من شأن المال . فان العالم لم يعرف وقتاً بلغ فيه المال من القوة والقيمة مثلما بلغ فى وقتنا هذا . فليس من الممكن أن نعيش معيشة صحية أو أن نربى أولادنا أو أن نثقف أنفسنا أو أن نضمن الهناء لوقت الشيخوخة مالم نستند فى ذلك كله الى جدار قوى من الذهب . فالمال قوة لايحتقرها إلا رجل ابله

وانما عبرة كلامنا ان المال ليس كل شىء فيجب ألا يستغرق كل نشاطنا . وفى المال خاصة وهى اننا اذا بلغنا حداً معيناً لم نستطع أن نزيد مقدار تمتعنا به . فمن المعقول ان الغنى الذى يبلغ دخله الف جنيه يمكنه ان يتمتع بالحياة اكثر كثيرا من ذلك الذى لايحصل الا على دخل مقداره مائة أو مائتا جنيه . ولكن صاحب الالفين لايتمتع أكثر من صاحب الالف . وذلك لان متع الانسان نفسها محدودة فلسنا نستطيع أن نأكل كثيراً أو نحب كثيراً لان أموالنا كثيرة . وليس يسرنا أن ننام على سرير من الذهب أو أن نرى عشرين خادماً فى البيت

انما نحن زائرون لهذه الدنيا نقضى فى فندقها الكبير نحو سبعين سنة فيجب أن نتمتع بما فيها مدة اقامتنا . ولسنا ننكر ان نظام هذا الفندق يحتم علينا تحصيل المال فيجب لذلك أن نحصله ونقضى به ثمن تمتعنا ولكن يجب ألا نجعله غاية حياتنا

فالمال وسيلة وليس غاية . فيجب ان يكون لكل منا غاية فى حياته غير جمع المال . وأشرف الغايات أن يرقى الانسان نفسه ويعمل لرقى من حوله . وهو إذا جعل هذا العمل غايته من الدنيا وجد حياته حافلة بالمتع العظيمة التى تشغل ذهنه وتملأ وقته وتشيعه الى القبر مسروراً بما أدى فى هذا العالم . وإذا فكر الانسان فى الرقى فانه يفكر بالطبع فى عدة أشياء أخرى : فى التعليم والصحة والدين والادب والحضارة والبر والاكتشاف

والاشتغال بهذه الاشياء أمتع للنفس من الاشتغال بجمع المال . وبرهان ذلك ظاهر وهو اننا نرى أناساً يضحون براحتهم وأنفسهم ويموتون فى سبيل الدين أو الاكتشاف العلمى أو اختراع آلة . يفعلون ذلك كله ويقاسونه . وقد أخذتهم لذة الرقى فلا يبالون بما يقاسون، ولم نسمع قط أن رجلا ضحى بنفسه فى سبيل جمع المال

إنما اللذة العليا والتمتع الحقيقى أن نرى أنفسنا كل يوم نرتقى ونجارى التطور فى غاياته السامية فنتطور نحن أيضا ، ففى نفس كل منا شهوة عنيفة للتطور هى أصل الثورات الاجتماعية والاكتشافات والاختراعات وكل ما يرفع الانسان

ميراث الابناء

منذ مدة نقلنا عن احد أغنياء الانجليز الذى حرم أولاده من الميراث وقال فى وصيته : انه ليس من تقاليد عائلته أن يثرى واحد فيها من غير جده وسعيه . وهو قد أدى واجبه وربّاهم وعليهم بعد ذلك ان يسعوا

وهذا شذوذ وغلو فى تعليم الابناء الاعتماد على النفس . ولكن التربية المتقنة والعوائد الحسنة التى يكسبها الابناء من الآباء ميراث كبير قد يفوق احيانا جميع المزايا التى يمتاز بها من يكون ميراثهم الاموال الجزيلة . وهل يمكن انسانا ان ينكر قيمة التربية المدرسية مثلا وما تستتبعه من مزايا لا يحصل عليها المحرومون منها ؟ أو هل ينكر احد قيمة العوائد الحسنة التى يكتسبها الشاب من من والديه كالمواظبة والنظافة والقناعة فى الطعام والشراب وكراهة المسكرات او التدخين او بذاءة اللسان؟

ان القدوة هى اكبر عامل فى التربية وليس احسن من ان يرى الابن القدوة الحسنة فى ابويه فان سن الطفولة والصبا والشباب هو سن الانطباع والتكييف والتخلق فاذا وجد الابن فى ابويه مثلا صالحا نشأ هو ايضا صالحا يكره بطبعه المفاسد ويصد عن المغاوى

ولكن هناك ماهو اهم من التربية وهو الاستعداد للتربية . لان الابناء لا يستوون فى الكفايات الطبيعية وان استووا فى جميع ظروف التربية

فاكبر ميراث يرثه الابن من الابوين هو هذه الكفاية الطبيعية التى يولد بها والتى يستعد بها لقبول التربية واكتساب التجارب . وبعبارة اخرى نقول ان أكبرميراث يرثه الابن هو صحة الجسم وسلامة العقل

وأنت أيها القارىء لا بد انك عرفت فى حياتك كثيرين من الوارثين ورثوا المال عن أبويهم ثم أضاعوه فى سنوات قليلة . ولا بد أنك تساءلت عن العلة فى هذا السفه فى الابناء مع الحرص الشديد فى الآباء . وقد يكون هناك أكثر من علة واحدة ولكن العلة الكبرى هى ان الابن لم يرث من ابويه كفاية طبيعية تضمن له سلامة المال الذى ورثه او استثماره والزيادة عليه

ويرجع ذلك كله الى عدم العناية بانتقاء الزوجة فان كثيرين فى بلادنا الشرقية لا يعرفون من الفتيات قبل الخطبة الا القليل وذلك لقلة الاختلاط والمعاشرة فاذا تم الزواج وجدالزوج ان شريكته فى الحياة ناقصة العلم بطيئة الادراك على حدود الغفلة او قد تعدء الغفلة احيانا الى البله . وقد يكون الزوج فى غاية الذكاء والحصافة ولكن الابناء ليسوا ابناء آبائهم فقط فان نصف ذكائهم يرجع الى امهاتهم فاذا كانت الام مغفلة او بلهاء فاولادها يمتون بعرق اليها ولا تنفعهم مزايا الاب امام نقائص الام

وهذا علة ما نراه من خيبة بعض الوارثين فى الحياة واضاعتهم اموال آبائهم . فانهم ورثوا المال والعقار ولكنهم فقدوا اهم ما كان يجب ان يرثوه من كفاية طبيعية وحصافة اصلية فى النفس

والآن نقول انه اذا كانت اهم غاية اجتماعية للزواج هى النسل وجب ان يعنى كل من الزوجين بانتقاء الآخر من حيث سلامة الجسم والعقل اكثر من العناية بالمال او الجمال او غير ذلك من الاعتبارات . ولا يكون ذلك الا اذا عاشر الخطيب خطيبته عدة اشهر قبل الزواج وعرف مقدار ذكائها واتجاه حديثها ونزعاتها التى تنطق بها حتى فلتات لسانها

لقد قيل ان تربية الاولاد تبتدىء قبل ولادتهم وذلك بالعناية بالام حتى يولد الولد صحيحا مستكملا مدة حمله . ولكننا يجب ان نزيد على ذلك ونقول انه يجب العناية بانتقاء الزوجة أيضا حتى تكون سليمة الجسم ذكية العقل لكى يرث عنها ابنها هاتين الصفتين الثمينتين

وإنى لا أرى شاباً صغير الرأس دميم الخلقة طائش الحركة مخبول المشيئة إلا وأتعجب من ذينك الابوين الخاطئين اللذين جلباه إلى عالم مزحوم بالناس. ثم أتعجب من حكومة أذنت لهما بالزواج

الصغائر العظيمة

قلما تتأمل فى أخلاق بعض الناجحين فى الحياة الفائزين بغنائم الدنيا إلا وتجد أنهم يعنون بأشياء تعد صغيرة تافهة ولكنها بتراكمها وتجمعها تعد كبيرة عظيمة

فقد ننظر مثلا إلى رجل غنى قد جمع ثروة طائلة يحسده عليها زملاؤه ومنافسوه فنتساءل عن علة غناه ، فيقال لنا : انه الحرص والبخل . وتبحث أنت فيما هو هذا الحرص وهذا البخل فلا تجدهما سوى العناية المفرطة بالصغائر أى بالمليم والقرش . ونحن نحسد البخلاء الحريصين لسبب واضح وهو أننا نعجز عن العناية بالصغائر مثلهم ولا نطيق هذا المثل الانجليزى اللعين الذى يقول : ابحث عن القرش تأتك الجنيهات

وقد ننظر مثلا إلى رجل سياسى قد نجح وصارت له كلمة الزعامة فنتبين أسرار هذا النجاح فى أخلاقه فلا نجدها الا فى العناية بصغائر الامور التى لا يأبه لها معظم الناس . فتراه يعنى بلفظة جميلة يختزنها لخطبة شائقة يهيئها لاقتناص خصم . أو تراه يتعرف وجوه الناس وأخلاقهم وسيرهم بما لا تبالى به أنت . أو تراه يدخل فى تفاصيل نظن أنها لا تهم أحداً سوى صغار الكتاب

ومما اشتهر به أكثر العظماء ميلهم لبحث التفاصيل الصغيرة ودخولهم فى أشياء يسهل على الكاتب الصغير القيام بها . فقد كان نابليون مثلا لا يغادر صغيرة فى الجيش إلا ويعرفها ، فبينما كان مثلا يعد الجيش للغارة بعد ساعة أو ساعتين كان يكتب الخطابات بشأن الجوارب للجنود. وكذلك كان حال محمد على وولنجتون وسائر عظماء الرجال

وهناك من الصغائر ماتكون له أكبر النتائج . فقد يقتل الجراح مريضه اذا لم يعن بصغائر العملية . وقد يشيد أحد المهندسين جسراً عظيما سرعان ما ينهدم لانه أهمل النظر فى شىء كان يبدو فى غاية التفاهة . ولا بد أنك سمعت عن النار تشب من مستصغر الشرر ولكنك لو أردت لسمعت عن ناس مرضوا أو ماتوا لانهم دعوا الى وليمة وكان الطباخ قد أهمل الآنية وطبخ بها مقدار صغير من زنجارة النحاس . ولو أردت أيضاً لسمعت عن خراب عائلات يرجع إلى عوائد صغيرة اعتادها رب البيت أو ربة البيت ما كان يظن أحدهما أنها كبيرة الأثر إلى هذا الحد

وقيمة الصغائر العظيمة تبدو فى الأعمال الفنية اكثر مما تبدو فى غيرها فالنجار الدقى انما يتفوق ويمتاز بمقدار مافيه من العناية بالدقائق التى اذا تجمعت صارت جلائل. والمصور الذى يتقن عمله يمتاز من غيره احيانا كثيرة بعنايته بالصغائر التى لايعنى بها غيره

وقل مثل ذلك فى سائر الاشياء والأعمال التى يقرن النجاح فيها الى العناية بالصغائر فالأجانب مثلا يحتكرون إدارة الفنادق والقهوات فى مصر ويربحون منها أرباحا جزيلة ما كان احرانا نحن بان نربحها لولا اننا لا نعنى بالصغائر مثلهم . فان النظافة التى يتسمون بها ليست فى الواقع سوى عناية زائدة بصغائر لو نظرنا إلى كل واحدة منها على حدة لما وجدنا فيها كبير طائل ولكنها إذا تجمعت وتراكمت صار لها قوة تجذبنا وتحببنا في الفندق أو القهوة أو المطعم

والسجارة الأولى التى يدخنها الشاب ليؤكد بها بلوغه طور الرجولة تبدو صغيرة غاية فى التفاهة ولكنها إذا صارت عادة تملكت صاحبها فى سن الشيخوخة حتى لو حسب بعد ذلك ما أنفقه فى التدخين لبلغ آلاف الجنيهات . والكاس الأولى التى يشربها الشاب مجاراة لاخوانه واثباتا لرجولته وتمدينه قد تكون سببا بعد ذلك لخراب عائلته اذا تملكته عادة الادمان . وكلتا العادتين تبدو صغيرة فى اول نشوئها ولكنها عظيمة الاثر فى النهاية . والانسان حزمة عادات والعادة عمل نتهاون فيه فنكرره فيتملكنا

فاحرص إذن أيها القارىء على أن تكون عاداتك حسنة واعلم أن مامن شيء تعمله وتظنه صغيراً إلا وله أثر فى نفسك وفى مقدار نجاحك فى العالم . فعود نفسك إذن العناية بالصغائر سواء فى الوقت أو المال أو العمل

سوء التصرف

ان الذى يبدو من سوء التصرف اقل جدا مما يخفى . فنحن نعرف مثلا ان طائفة كبيرة من الوارثين الاغنياء قد حجر عليهم فمنعوا من التصرف لانهم بعثروا مقدارا كبيرا من ثروتهم فى الملاذ الحيوانية

ولكن سفه الوارث الغنى كثيرا ما يكون اقل ضررا على الهيئة الاجتماعية من سائر اصناف السفه التى ينبغى ان يحجر فيها على صاحبها لأن ضررها لايقتصر عليه وحده بل يتعداه الى الاخرين وأيضا لأن سفه الوارث واضح يشمئز من مسلكه العاقل . أما سفه هؤلاء الذين نقصدهم فخفى قد تبدو احيانا محاسنه ولا تتضح عيوبه

فمن ضروب السفه التي كثيراً ما كانت علة خراب البيوت الكبيرة فى بلادنا أن أصحاب الارض لايقنعون بأرضهم خالصة تعود عليهم بالربح اليسير بل يعمدون الى التوسع فيشترون

الأرض بالدين ويرهقون انفسهم فى استصلاحها . ولـكن استصلاحها يعدو قدرتهم فتـكون النتيجة افلاسهم وخرابهم . ومثل هذا السفه يخفى على الناس بمثابة المغوى يغويهم الى الاستـكثار من الارض لأنهم يرون السعة الظاهرة ولا يعرفون الهموم التى تأكل القلوب من الدين المتراكب والافلاس الموشك ان يذهب بالملك القديم والجديد . ومثل هذا السفه يبعث عليه الغرور والدعوى بين الناس بالغنى

وهناك ضرب آخر من السفه هو الاستـكثار من الزوجات وهو الآن مقصور على الطبقات الدنيا تقريباً . وهذا لايمكن اصلاحه إلا بالتشريع ويشبه أيضاً ذلك السفه الآخر فى الاستـكثار من الأولاد . فان تربية الاولاد الحقة تعد الآن من المشاق وتتطلب من التكاليف مالايطيقها إلا القادر وقدتهون عدة جنايات فى جانب جنايةذلك الأب الذى لايضبط تناسله وهو عارف بعجزه عن تربية ابنه المنتظر .فنحن الآن فى زمن لاتحدث فيه المعجزات والرزق لايقع على الناس كالمن والسلوى فمن أكبر السفه ألا يحسب الانسان حساب اولاده ويهيء لهم مايعتدون به فى الحياة من مال أو تربية

ومثل هذين الضربين من السفه لايمكن أحداً أن ينصح بالحجر على المصابين به لان الجناية غير واضحة وهى لسوء الحظ لاتتضح إلا بعد أن تبلغ غايتها فى الخراب . ولـكن الوارث السفيه أقل ضرراً على الناس من هؤلاء السفهاء الذين يظهرون أمامنا بمظهر العقلاء النشيطين أو الاتقياء الورعين

وهناك صنف ثالث من السفهاء هو المرأة التى تقتل أولادها بالغذاء الـكثير والوسخ الـكثير والملابس الـكثيرة والخوف الـكثير من العين . ففى بلادنا عدد كثير من النساء قد قتلت كل واحدة منهن لا أقل من عشرة من أولادها . وأنت تعرف أن بعض مدارسنا تطرد التلاميذ إذا فشلوا مرتين متواليتين فى امتحاناتها أفلا يجوز أن تمنع المرأة من التناسـل إذا فشلت خمس مرات متوالية فى تربية الطفل ؟ أو لايجوز أن يحال بينها وبين ابنها السادس حتى تربيه امرأة أخرى لايخشى منها أن تقتله كما يخشى عليه من والدته ؟

وهناك ضروب أخرى من السفه وسوء التصرف يبدو عليها مسحة من العقل ولـكنها فى الواقع عين الجنون كهذه العادة الفاشية فى وقف الاملاك على الافراد . وهي عادة الغاها الاتراك والسوريون . فان هذه العادة علة خراب آلاف من البيوت فى بلادنا وحسبك أن نحو تسعة أعشار الدور الخربة فى القاهرة هى وقف كثر المستحقون فيه وتفرقوا فلم يعد أحد يبالى باصلاحه لقلة مايغله له فاخذ يتدهور فى الخراب

فـكل هذه ضروب من التصرف السيء الذى كثيراً ما يخفى على الناس ويبدو لهم بهيئة العقل والحـكمة وهو فى الحقيقة عين الغفلة والبله

المرأة أساس الحضارة

روت الصحف الانجليزية هذا الشهر حادثين غريبين لكل منهما مغزى يجب أن يفقهه القارىء المصرى ويطبعه فى ذهنه طبعاً لاينمحى . فالحادث الأول أن فتاة أميركية عبرت بحر المانش سباحة وهذا البحر أو المضيق يبلغ عرضه ٣٦ كيلو متراً وكان أبو الفتاة فى زورق يشجع الفتاة على العبور ونجحت الفتاة وانتصرت على الأمواج وأخـــذت الصحف تنشر صورها معجبة بقوتها وجرأتها وثباتها

هذا حادث . وذكرت أيضاً حادثاً آخر خلاصته أنه يموت فى كلكتا المدينة الشهيرة بالهنـد نحو ١٠٠٠٠ شخص بالتدرن كل عام وأن نسبة الوفيات بين الجنسين هى ست من النساء الى واحد من الرجال . وبعبارة أخرى تقول هذه الصحف أنه يموت بالتدرن فى تلك المدينة العظيمة فى كل عام نحو ٨٥٠٠ امرأة و ١٥٠٠ رجل . وعزت الصحف هـذه الزيادة العظيمة فى وفيات النساء الى العادة المتبعة فى الهند من حجاب المرأة ومنعها من الحركة والسعى واضطرارها الى الانزواء فى عقر دارها بعيدة عن ضوء الشمس حيث تعيش فى خمول ودعة لاتتحرك عضلاتها ولاينشط دمها . ومثل هذه الحال داعية الى تفشى مكروب التدرن فى جسمها

ومغزى هذين الحادثين هو مما يحزن له كل من يرغب فى خير الشرقيين لان معناه أن الغرب يقول برياضة المرأة وأن الشرق يقول بخمولها . وأن نظرية الغرب هى نظرية الحياة والصحة والعافية والقوة وأن نظرية الشرق هى نظرية الموت بالتدرن والضعف والمرض

وعبرة ذلك كله لى ولك أيها القارىء أن نعرف أن المرأة هى أساس الحضارة الآن وأن الفرق بين انجلترا السائدة والهند المسودة هو فرق بين المرأة الانجليزية التى تمارس الرياضة وتقوى بين المرأة الهندية التى تنزوى وتتحجب وتضعف . ولهذا الفرق صدى فى جميع أحوال الامة فى خلق الرجال وتعليم الأطفال وفى نظام البيت ودستور الأمة وفى شىء آخر حتى فى الآداب والفنون

ولم لا يكون كذلك ؟ أليست المرأة هى الأم وهى التى تربى أطفالها فاذا كانت تكبر من شأن الصحة والقوة جعلتهم يكبرون من شأنهما أيضاً ؟ أوليست هى ربة البيت بها ينتظم وبها تنضبط أحواله من مال واقتصاد ؟ فاذا كان البيت مهد الحضارة لأنه المدرسة الاولى التى يتربى فيها المرء وهو أيضاً المملكة الصغيرة التى يتعلم فيها الصبى ضبط النفس وأدب المعاشرة وعادات النظافة والمواظبة والمثابرة فان المرأة التى هى محور هذا البيت هى أساس هذه الحضارة . واذا اختل الاساس كما هو

فى ذلك المثال الذى ذكرناه عن الهند اختل البناء. واذا صح شادت الامة بناءها شامخاً مشمخراً كما هو فى بريطانيا أو أميركا

ويؤيد رأينا الابحاث الحديثة فى النفسلوجية التى تثبت أن أعمق الآثار فى نفوسنا هى تلك التى نتلقاها فى طفولتنا وصبانا بالمنزل. وبمعنى آخر هى تلك الآثار التى تنطبع فى أذهاننا بالقدوة والحديث من أمهاتنا. وليس شىء نتعلمه فى المدارس أو نتلقاه من العالم بعد خروجنا من المدارس له من الاثر ما للأم فى النفس. وليس وسط يؤثر فينا أن شراً وأن خيراً مايؤثره المنزل فى طباعنا وعاداتنا. وما المنزل سوى المرأة

فالامم النشيطة الجريئة العاملة الدائبة فى العمل ترجع صفاتها الحسنة هذه الى ماعندها من أمهات لهن هذه الصفات. والامم الخاملة الناكصة المريضة ترجع صفاتها السيئة هذه الى أمهاتها أيضاً

وبعد فايتهما أفضل وأحق بالحياة؟ أتلك الفتاة التى تسبح ٣٦ كيلو متراً بين الامواج المتلاطمة أم تلك التى تنزوى وتتحجب وتخمل حتى تمرض بالسل؟

عاصمة افريقيا

يحكى عن اللورد نورثكليف الصحافى الانجليزى المشهور انه كان ينوى أن يؤسس فى القاهرة جريدة يومية تطبع بثلاث لغات أو بلغتين العربية والانجليزية وكان فى عزمه أن يجعلها جريدة العالم الكبرى تحمل الطيارات الى آسيا وافريقيا وأوربا وتجلب اليها الاخبار بالتلغرافات والطيارات أيضاً. ومن حظنا السيء انه لم يعش لتحقيق هذه الفكرة

والحق ان القاهرة فى مركز متوسط من العالم القديم يشبه مركز قناة السويس وانه كما أصبحت هذه القناة ذات أهمية كبرى بين الامم فكذلك القاهرة يمكن مع التدبير أن تصير أكبر مدينة فى آسيا وافريقيا بل أوربا أيضاً. إذ هى تمتاز بأنها باب افريقيا وعاصمة أقدم حضارة فى العالم وهى أيضاً مجاز آسيا وملتقاها مع أوربا. فعما قريب ستتم السكة الحديدية بين الكاب والقاهرة فتكون القاهرة المحطة الكبرى بين آسيا وأوربا من جهة وبين جنوب أفريقيا من جهة أخرى. كما انها ستكون أيضاً محطة الطيارات بين هذه القارات الثلاث. وتقتصر عندئذ مهمة قناة السويس على نقل البضائع أما القاهرة فتكون المركز الاكبر لنقل الناس على الطيارات والسكك الحديدية. ولن تقف أهمية القاهرة عند ذلك. فقد ثبت الآن ان مصر هى أصل حضارة العالم كله بما فى ذلك أميركا. وسيتوافد الينا العلماء والسائحون من جميع الانحاء لكى يقفوا من آثارنا على المحاولات الاولى للانسان فى ايجاد حضارة مبتكرة وعلى مجد الفراعنة الماثل فى آثارهم وعلى العلل التى انتابتهم من غارات الهمج أو من أمراض الترف حتى تدهورت هذه الحضارة وحتى ذهب أهلها

فهذه القاهرة هى عاصمتنا التى يجب أن نعنى بها وأن نجعلها جديرة باستقبال أبناء العالم من القارات الثلاث . واذا لم نكن نحلم بهذا الحلم الذى حلمه اللورد نورثكليف فلا أقل من أن نجعلها تبدو للزائر فى هيئة لا تزرى بنا . وأن نجعلها مدينة صحية يعيش فيها أهلها عيشة الصحة والعافية ويزورها الزائر فلا يتأذى من غبارها أو قذرها

لقد ذكرت الصحف من زمن قريب ان اللورد لويد يشكو ألماً فى عينيه أصابه من غبار القاهرة وقد جعلت بعض الصحف هذا الخبر مجالا للتهكم والفكاهة . ولكننا نجده مدعاة للألم الشديد لانه لا يمكن أحداً زار العواصم الاوربية أن يقول ان القاهرة مدينة نظيفة أو ان هذا الغبار الذى ينعقد سحاباً فى بعض شوارعها يرى مثله أو نصفه فى احدى مدن أوربا . فكرامتنا الشخصية أمام الاجانب تدعونا الى العناية بعاصمتنا التى هى عنوان بيتنا وحضارتنا

ولن تكون هذه العناية تامة حتى يعطى للمدينة استقلالها المدنى بأن يؤسس لها مجلس بلدى. فالقاهرة هى الآن المدينة الوحيدة على الكرة الارضية التى يقرب سكانها من المليون ومع ذلك ليس لها بلدية وانما يقوم مقام البلدية نظام ديوانى يقال له « التنظيم » حسبك من شذوذه أنه لا تمكن ترجمته الى أية لغة أجنبية

ان كل أمة نشيطة تستغل مركزها الى أقصى ما فى مستطاعها . ونحن هنا فى مركز يتوسط القارات الثلاث بموقعه الجغرافى فعلينا أن نستغله بأن نجعل عاصمتنا تضارع أكبر وأجمل مدينة فى العالم وأن نجعلها مركزاً للثقافة والحضارة فى الشرق،منها ينبعث نور التجديد الى آسيا وافريقيا واليها يقصد كل راغب فى الرقى من هاتين القارتين . ولعله فى يوم ما ينبغ بيننا صحافى مصرى يحقق فكرة نورثكليف بانشاء جريدة للقارات الثلاث تحيا بها اللغة العربية الى جنب اللغة الانجليزية وتصبح بها القاهرة عاصمة افريقيا بل عاصمة العالم القديم

الارستقراطية الجديدة

كنت فى هذا الاسبوع أتسلى وأنتفع معاً بقراءة قصة للكاتب الانجليزى الشهير ولز عنوانها « البحث العظيم » وموضوعها انشاء طائفة من النبلاء لحكم الناس . وولز كاتب اشتراكى ولكنه فى الوقت نفسه لا يأتمن العامة أو بالحرى الكافة على حكم أنفسهم . لان العوام لا يفهمون من الحكم سوى الفوضى . ومسلكهم فى الحكومة إذا تقلدوا مفاتيحها لن يختلف عن مسلكهم فى الشوارع أو الاندية عند تجمهرهم وهتافهم وصياحهم . فالامم الديموقراطية فى حاجة الى طائفة ارستقراطية تتولى حكمها وتسير بها نحو الرقى

ولكن ولز لايقول بايجاد طبقة وراثية من النبلاء كما كان الحال فى القرون الوسطى أو كما هو الحال الآن فى انجلترا . وانما يقول بوجود أفراد يشـذون عن المجموع فى ذكائهم ويربون تربية خاصة حتى إذا بلغوا سن الرجولة حملوا أمانة الحـكم عن الامة . وبطل القصة شاب يفكر فى هذه الطائفة ويرى أنه أهل لان يكون أحد أفرادها . فهو يكب على درس العالم ويخرج للسياحة فيه ويزور مقدونيا حيث أدبرت الحضارة الرومانية أمام غارات الهمج . ثم هو يصلى نار الحب ويتجرع كؤوس الغيرة وينعم بالصداقة والثروة حتى اذا رويت نفسـه بالدرس والتجارب أخذ يفكر فى هذا العالم وحكوماته

وهو يرى أنه يجب أن تتوافر فى كل فرد من هذه الارستقراطية الجديدة أربع صفات أو أربعة انكارات : انكار الخوف وانكار الغيرة وانكار التعصب وأخيراً انكار الانغماس

ومعنى ذلك أن كل واحد من هذه الطبقة يجب أن يربى نفسه على أنه يقهر فى نفسه عاطفة الخوف فان الخوف أثر قديم من آثار الغابة حين كان فى الظلام عفاريت هى سباع الليل وهوامه السامة . فكان الخوف مفيداً أما الآن فلا فائدة فيه . فهو تراث وحشى قديم يؤذى الناس ويوعز الى الحكام الاستبداد اعتماداً منهم على ماعندهم من قوة للتخويف . وليس شيء فى العالم معدوم الفائدة مؤكد الضرر مثل الخوف . وجميع مانخافه من الآلام تقريباً أوهام لاحقيقة لها حتى الموت نفسه ليس فيه مايخيف بدليل اننا نجد أن المنتحرين الذين أخفقوا لاول مرة فى القضاء على حياتهم يعودون فى التجربة الثانية الى محاولتهم الاولى لانهم لم يجدوا فيها ماتوهموه من الالم . ونحن نعيش أبداً فى كرب وشقاء لاننا نخاف أشياء عديدة تمنعنا من المضى فى طريقنا . فنحن نخاف الفقر والاخفاق وغير ذلك من الاشياء التى نرى عند وقوعها بنا اننا كنا نبالغ فى تقدير مافيها من الآلام

ثم يجب أيضاً انكار الغيرة بمعنى انكار التحاسد والتنافس والاعتياض منهما تعاوناً يضم الناس فى الخير العام وهذه هى الفكرة الاشتراكية ولسنا الآن بسبيل شرحها

ثم أيضا يجب انكار التعصب بكل أنواعه . وقد احسن هنا ولز بتعريف التعصب أو الأغراض بأنه الكراهية التى نشعر بها لمن يخالفنا فى أحد الاشياء حتى نظن أنه يخالفنا فى جميع الاشياء . فنحن نكره من يخالفنا فى الدين أو اللغة أو اللباس أو لون البشرة أو الوطن . وولز يقول بان العالم أمة واحدة يجب أن تحكمه حكومة واحدة

وأخيراً يجب انكار الانغماس فى التهالك على الشراب أو الطعام أو الاستنامة للكسل والرفاهية وهذه أشياء صغيرة فى ذاتها لأنها مؤلفة من عادات يظن الانسان أن الاقلاع عنها هين مع أن كلا منها هو الطبيعة الثانية التى تتأصل بالجسد حتى لاترتاح الاعصاب الا بتأديتها واشباعها

فهذه الصفات الاربع يجب فى رأى ولز أن يتصف بها أفراد الارستقراطية الجديدة حتى تضمحل

فى نفوسهم الأثرة السافلة ويقوم مقامها الايثار الشريف الذى يجب أن يتصف به من يريد حكم الناس

فهل تستطيع أيها القارىء أن ترشح نفسك لهذه الطبقة

ليس شك كما يقول لورفى ان العامة لا يفلحون بتاتاً فى حكم أنفسهم . ومهمة الحكم تزداد مشقة وصعوبة بمرور الايام لان كل شىء تقريباً قد أصبح يحتاج الى اخصائيين مثقفين ومدربين أيضاً . فأحوال الامم الاقتصادية مثلا قد خرجت من طور الزراعة البسيطة الى طور صناعى يحتاج الى تنظيم كبير . وقل مثل ذلك فى غير هذا من الشؤون كالصحة والتعليم وغيرهما

قيمة الاكتشاف والاختراع

فى القطر المصرى اكثر من عشرة ملايين نفس يشتغلون بالزراعة ويعملون فى الحقول . ولكن جميع هؤلاء يعملون لتحصيل القوت أو ما أقل فائدة من القوت كالرفاهية و الترف . يأخذون ريع الأرض فينفقونه كل عام لا يختزنون منه شيئاً للمستقبل لأنفسهم أو لمصر

ولكن كان بين هؤلاء الملايين رجل واحد لم يقتصر نظره على حاجات الساعة بل تعداه الى المستقبل . وهذا الرجل هو المسيو سكلاريدس رأى ثلاث لوزات من القطن طويلة النسيج ناصعة البياض فاحتفظ ببذورها واستنبتها حتى تكاثرت وأصبحت مصدر خير عميم للبلاد يزيد ثروة القطر المصرى بالملايين من الجنيهات كل عام

وهذا المسيو سكلاريدس الذى يقر بفضله كل مصرى ليس أكبر عقلا ولا أحد ذهناً من سائر الفلاحين الذين يشتغلون بالحقول ولكنه اعتاد الملاحظة ودقة النظر والاهتمام بالمستقبل وهذه كلها صفات يحتاج اليها المكتشف أو المخترع . ومهما بدا الشىء صغيراً تافه القيمة فى أوله فان قيمته تزداد وتربو بالعناية والفكر

يحكى أن ريومور أحد علماء فرنسا فى القرن الثامن عشر كان يدرس الحشرات . وكان قد أولع بدرس أوكار الزنابير فما كان يلاقى من احد فى عمله هذا سوى الهزء والسخرية اذ ليس فى العالم شىء اتفه من وكر زنبور ولا أقل عائدة على الناس منه . ولكن ريومور وجد أن نسيج هذه الاوكار يشبه الورق فصار يقبض على الزنابير ويفحص المادة التى تصنع منها هذه الاوكار فوجد أنها تلتقط قش التبن والخشب ثم تمضغه حتي تحيله عجينة تبنى بها هذه الاوكار . فتساءل ريومور : اذا كان يمكن الزنابير ان تصنع الورق من الخشب فلم لا نصنعه نحن كذلك

وكان الورق إلى ذلك الوقت يصنع من الخرق البالية كما لايزال تصنع الأنواع الفاخرة منه

للان . ولكن الخرق البالية لاتكفي صناعة الورق الحديثة فان مقدارها في العالم كله محدود والورق في الصحف والكتب وغيرهما يستنفد الان بملايين الاطنان . وصنع ريومور الورق من زب الخشب ونجح وانتشرت صناعته من ذلك الوقت حتى صارت تزرع الغابات خاصة لها

فاعتبر الآن أيها القارىء بثلاث لوزات من القطن تكون السبب الاكبر لثروتنا وبأوكار الزنابير تكون السبب الاكبر لانتشار الكتب والصحف حتى تباع بأرخص الأثمان وتدخل في أفقر البيوت

بمثل هذين الرجلين — سكلاريدس وريومور — تقدمت العلوم وكثرت المكتشفات والمخترعات وكبرت ثقة الناس بالبحث العلمي وأسست الجامعات لهذا الغرض . فليست الجامعة مكاناً للتعليم فقط بل هي أيضاً معهد للتقدم العلمي أي للاكتشاف والاختراع . وقد يرى الزارع أو التاجر ان الآلاف التي تنفق على تعليم الجامعة لا تعود بفائدة محسوسة ولكن اكتشافا واحداً في الكيمياء أو في الفلك أو في الطب قد يعود على الناس بفوائد لا تحصى وان كان مثل هذا الاكتشاف لا يحدث مرة في كل عشرين سنة

ولست أبالغ في قولي ان الاكتشاف في الفلك يعود على الناس بفائدة محسوسة على بعد الاجرام السماوية منا وعدم تأثرنا بحركاتها . فان عنصر الهليوم الذي تملأ به أكياس البلونات الآن بدلا من عنصر الهيدروجين عرف في قرص الشمس قبل أن يعرف في أرضنا . ولهذا سمي باسم الهليوم أي الشمسي كما سميت « هليوبوليس » أي مدينة الشمس . فقد كان السير رمزي يحلل الطيف الشمسي فوجد فيه عنصراً لا يعرف على الارض فأطلق عليه اسم الهليوم ثم اكتشف حديثاً في كندا وصار يستخرج الآن بمقادير كبيرة جعلت الولايات المتحدة تعتمد عليه في ملء أكياس البلونات لانه لايلتهب مثل الهيدروجين . ولولا أنه عرف أولا في الشمس لما تنبه العلماء إلى البحث عنه في الأرض فان وجوده في الشمس أقام عقدة أمامهم تتطلب الحل السريع وهي : هل الشمس مركبة من عناصر الارض ؟ وتبين لهم بوجود الهليوم في أرضنا أن كلا الجسمين الشمس والارض مؤلف من عناصر واحدة

فالبحث العلمي الذي يراد به اثبات نظرية ليس لها غاية عملية كما تبدو لاول وهلة قد يعود في النهاية بأنفع الاعمال على الناس ومن هنا فائدة الجامعات التي تختص بالابحاث وواجب كل مصري في الدفاع عن الجامعة المصرية

فى التربية الحديثة

فى الاسبوع الماضى القى الاستاذ كلباترك وهو من أساتذة جامعة كولمبيا الاميركية بضع كلمات صائبة عن التربية فى نادى الشبان المسيحيين بالقاهرة

وقد أتاح لنا الحظ الحسن أن نسمع هذه الكلمات ورأينا فيها من الجديد الطريف ماينبغى أن يقف عليه قراؤنا . فالعالم كله يوشك أن ينتقل الآن من حضارته الراهنة حضارة الحرب والمنافسة والربح إلى حضارة السلام والمعاونة بحيث تهيء شباب العالم للحضارة والخدمة . وعلى ذلك ينبغى أن تكون التربية الجديدة

فمن رأى الاستاذ كلباترك أن مدارس المستقبل التى ستهيء الناس لهذه الحضارة ستجعل عماد التربية الاختبار بدلا من الكتاب وذلك لكى يشعر الصبى أو الشاب أنه عضو فى الامة له أثره فى خيرها وشرها

وليس يشك أحد فى أن الكتاب هو عمدة التربية الحالية وان التلميذ يجعله مصدر معارفه فيخرج إلى العالم من المدرسة وكأنه يحسب أن لاعلاقة له بالعالم من حيث اكتساب المعارف فلا يختبره اختباراً مباشراً بل يقنع بالاختبار المكتسب من الكتاب

ذكر الاستاذ مثالا من مدارس الاختبار هذه فى اميركا فقال أن هناك مدرسة نائية عن المدن جرت على هذه الخطة الجديدة فى تعليم الصبيان . ففى أحد الايام لاحظ أحد الصبيان أن أحدهم مريض بحمى التيفوئيد . ولاحظ آخر أن أباه واخوته قد مرضوا بهذا المرض فى العام المنصرم . فتعجب الصبيان من كثرة حدوث التيفوئيد فى منزل هذا الصبى وعقدوا النية على درس الموضوع بأنفسهم . فهذا يستشير كتاباً أو مجلة وذاك يسأل وآخر يستذكر الحوادث التى مرت فى عليه فى حياته ، وأخيراً ألفت لجنة وذهبت الى منزل هذا الصبى المريض يستأذنون والده فى درس الحالة فى المكان . فلما أذن لهم ذهبوا ، أول ما ذهبوا ، الى البئر التى يستقى منها أهل الدار فالفوها على ربوة لا تتسرب أقذار البيت اليها . فتركوها وذهبوا الى المطبخ فلم يجدوا به ما يدعو الى الشبهة فطفقوا يدورون حول البيت فوجدوا حظيرة خنازير بها روث وذباب . ووجدوا ان هذا الذباب يدخل الى البيت فقر رأيهم بعد استشارة أستاذهم على أن هذه الحظيرة هى علة كثرة حوادث التيفوئيد . ووافقهم الاستاذ على ذلك فأخبروا رب الدار ونقلت الحظيرة الى مكان بعيد ووقى البيت من الذباب فانقطعت هذه الحمى ولم يعد أحد من سكان هذا البيت يمرض بها

هذه واحدة من مدارس الاختبار التى ينتظر أن تعم فى المستقبل وان تهىء الناس للحضارة الجديدة حين يشعر كل انسان انه « طالب علم » مدى حياته وانه عضو فى الهيئة الاجتماعية يعمل لها ويبحث عللها ويهتم لمصالحها ويعرف كيف يفتح بصيرته اذا فتح عينيه كما يعرف أن موضوع درسه هو ذلك العالم الذى هو الكتاب الاكبر والذى يجب أن يكون موضوع درس كل انسان ومثل هـــذه المدارس تحتاج بالطبع الى نفقات كبيرة أكبر مما تحتاج اليه المدارس العادية ولكن يخرج منها أيضا ناس أرقى وأبصر ممن يخرجون من المدارس العادية

وقد كنت أفكر وأنا أسمع هذه الكلمات الثمينة فى المدارس الاولية عندنا فأتذكر تلك الطرق التى تتبع فى تعليم صبياننا . فانهم لا يزالون يحفظون عن ظهر قلوبهم أشياء كانت تحفظ عن ظهر قلب فى القرون الوسطى وينشأون على ان العلم ليس تفكيراً بل هو حفظ

انهم فى أميركا يعدون الصبيان لحضارة قادمة ونحن نهيئهم لحضارة بائدة

وانت ايضا رجل عظيم !

كثيراً ما نقرأ عن جريمة فظيعة يرتكبها شاب فى والده وهو فى سورة غضب فنشمئز ونتأفف من هذه الطبيعة البشرية التى تتسرع الى الشر . وكثيراً ما نسمع عن جناية فظيعة تقع بأحد الناس من مجرم باغ يرمى الى غاية سافلة فنعجب من هذه الطبيعة التى تنزل بالانسان الى أحط دركاته . وقد نشعر بعواطفنا تتفزز للشر أو للشهوة الاثيمه أو تنزع بنا نحو الشراهة للطعام الكثير أو الشراب الكثير أو تميل بنا الى ايثار الخمول على العمل أو نحو ذلك فنعود الى هذه الطبيعة البشرية ونقول أنها تحتاج الى التأديب وان الانسان مفطور على الشر وان سوء الظن من حسن الفطن

ولكن يجب أن نذكر جميعاً أن هذا التأديب الذى نطلبه لقمع الشر وكبح الغضب انما نطلبه لما فى هذه الطبيعة البشرية المنغرسة فى نفوسنا من الخير . فكما أن نفوسنا قد طبعت على شىء من الشر والغضب والدناءة فهى قد طبعت أيضاً على شىء كبير من الانفة والبر والخير . فالى جانب المشنقة والسجن وما فيهما من روح الانتقام والغيظ والحقد على المجرم قد اخترع الانسان أيضاً المدرسة والمستشفى لما فى نفسه من روح البر والخير

وهنا أذكر قصة قرأتها فى سيرة الامير كروبتكين الفوضوى الروسى الشهير ولا اذكرها الا ويرتفع الانسان فى نظرى فاكبر له وارفع من مقام هذه الطبيعة البشرية المجرمة البارة . فقد حكى أن أحد الفوضويين القى قنبلة أمام المركبة الملوكية فى بطرسبرج فانفجرت واجفلت الخيل وجمحت . وبينما هو يريد الفرار اذا به يرى طفلا صغيرا قد تركته أمه فى زاوية من الشارع فنسى الفوضوى

جريمته ونسى المشنقة التى تنتظره وثابت اليه نفسه البارة فنظر إلى الطفل وتذكر خيل المركبة وهى جامحة شاردة تخشى على الطفل منها وانحنى عليه فى تؤدة ورفق وحمله وعدا به

فالخير والشر متلازمان فى الطبيعة البشرية ولكن الخير أغلب . وليس الرياء أو النفاق إلا اقراراً بذلك لان المنافق يمارس الرذيلة ويتمتع بالفضيلة إذ هو يعرف أن العالم يرغب فى الفضيلة وليس من الحق أن نسلب الطبيعة البشرية فضائلها ولا نذكر سوى رذائلها . فانك تجد بالوردة أشواكا فقط بل تشم منها عطراً ذكياً أيضاً . والفراشة الزاهية التى تملو العين بحسنها كانت يوماً ما دودة قذرة

والانسان مجموعة من الصفات الحسنة والسيئة ولكن الحسن يغلب فيه السيء . وانما تحتاج الصفات إلى تنشئة وتربية وكما ان كل انسان تقريباً قد فكر فى جريمة ما ان لم يكن قد ارتكبها فكل انسان أيضاً قد فكر فى البر والخير ومارسهما . وفى نفس كل منا جذوة من ذلك الوحى السامى التى ينبت فى صدور الانبياء والعلماء والمصلحين والابرار والخيرين فى كل أمة . ولكن هذه الجذوة تحتاج الى الترويح والا بقيت هامدة

فأنت أيها القارىء رجل بار أيضاً لانك تنتمى الى تلك الانسانية التى نبت منها العظماء فى الدين والعلم والأدب والسياسة بل أنت تمت إلى هؤلاء الرجال بعرق ولو عدت الى عشرين أو ثلاثين جيلا لوجدت أنك أنت وزغلول تنتميان الى جد واحد . وانما يجب عليك أن تربى هذه الكفايات الحسنة فى نفسك حتى تلتهب تلك الجذوة المقدسة فى قلبك . فأنت عظيم ولا تدرى انك عظيم وانت رجل بار ولا تدرى انك بار . وانت تحب الخير للعالم ولكنك تجهل ذلك

سوط الاحتقار

يعمل الاحتقار فى الناس أكثر مما يعمله الخوف . ومعنى هذا بكلام آخر ان الناس يحسبون للرأى العام ويستحيون من الناس أكثر مما يخافون من القوانين . بل نحن نخاف القوانين لا لاننا نتألم من السجن بل لاننا نخشى احتقار الناس لنا اذا عرفوا اننا قد سجنا

فاصلاح الأمة يرجع فى الاكثر الى قوة الرأى العام أكثر مما يرجع الى القوانين . لان الرأى العام سوطا شديد الوقع غائر الأثر هو سوط الاحتقار به نستطيع أن نؤدب الناس ونعلمهم ونوجه نشاطهم الى وجهات نافعة

ولكن اذا اختل الرأى العام وساءت أحكامه صارت القوانين كلها فى حكم العدم أو ما يقارب ذلك . فشرائع بلادنا مثلا تعاقب المتجرين بالحشيش ولكن الحشيش سيبقى والحشاشون سينعمون

بهذا السم ما شاؤوا لأن الرأى العام لا يحتقرهم . فلو ان حشاشاً وجد رجلا يبصق فى وجهه مرة أو يطلب اليه ألا يعرفه أو منعه من دخول منزله لما تجاسر فى القطر المصرى كله حشاش واحد على اقتناء هذا السم الذى يزود مارستاناتنا بنصف مرضاها

ولو أن ضابط الشرطة الذى يعتدى على الناخبين يرى من الناس عين الاحتقار والاشمئزاز من هذه السفالة لما استطاع مهما كانت المكافأة المالية التى ينتظرها أن يرتكب هذا الجرم . لانه انما يقصد من الترقى فى المناصب ومن الحصول على المال تلك الوجاهة التى يتوخاها بين أهل بلاده فاذا وجد منهم مقاطعة واشمئزازاً واحتقاراً لما تجرأ على ضرب ناخب

وقل مثل ذلك فى الجرائم التى ترتكب فى الريف وتنفى الأمن منه فان المرتكبين الحقيقيين هم سكان الريف أنفسهم لانهم لا يحتقرون هؤلاء المجرمين بل يروون حكايات سطوهم وانتهابهم بالاعجاب كأنهم أبطال حتى ان المجرم ليسجن وهو مرفوع الرأس كأنه بطل

وقد كانت الرشوة الى عهد قريب يتسامح فيها الجمهور ولا يعدها جريمة فكانت لذلك كثيرة الشيوع لان مرتكبها كان يعتقد انه لن يفقد كرامته أمام بنى وطنه اذا تلبس وثبتت عليه . وهو الى حد ما لا يزال كذلك وفى هذا فساد كبير للادارة . ولن تصلح هذه الادارة حتى يسلط الجمهور سوط احتقاره على جميع من ينهبون الحكومة بأية صورة

ولقد كتبت الصحف كثيراً عن ضرورة اقبال الشباب على الأعمال الحرة . ولكننا نعتقد أن أكبر ما يمنع اقبال الشباب عليها هو احتقار الجمهور لها . فلو أن الشاب وجد أن كرامته اذا كان صاحب قهوة أو حانة أو مطعم محفوظة مصونة فى عين الجمهور كما تصان اذا توظف فى الحكومة لما أحجم عن مثل هذه الأعمال الحرة ولكن أكبر ما يجعله يحجم عنها هو احتقار الرأى العام لها فاننا ما زلنا نجرى على طبائع الاستبداد القديمة فى اكبار كل ما يتصل بالحكومة واحتقار ماعداها وقد نزل الينا هذا الاعتقاد من السلف الذى كان يرى فى الحكومة سلطاناً أى سلطان للاستبداد بالأفراد والنهب والتسخير . وسنعيش مدة طويلة وشبابنا عالة على الحكومة حتى يتربى الجمهور ويعرف للعمل الحر قيمته ويحترم القهوجى الشريف كما يحترم المأمور السافل الذى يضرب الناخبين لكى يترقى ويكرم صانع الأحذية كما يكرم المحامى الذى يشكو الآن من قلة الأعمال ويطلب منع دخول محامين جدد فى مهنته

ان للجمهور سوطاً قوياً هو سوط الاحتقار الذى يستطيع أن يسلطه على الخامل والسكير والمجرم والزانى والمرتشى والمتزلف فيصلح بذلك أخلاق الأمة بما لا تستطيع الشرائع المكتوبة أن تصلحها لأن حياء الناس أكبر من خوفهم فهم اذا رأوا عين الاحتقار ازووا أو تصاغروا وساروا على النهج القويم

سلطانك على نفسك

من الاقوال التى تستوقف العقل وتلزمه التفكير قول الدكتور كارنو : « ان جروح الجنود الظافرة تبرأ بأسرع مما تبرأ جروح الجنود المهزومة »

ولم يقل الدكتور كارنو هذه العبارة اثباتاً لنظرية بل تحقيقاً لاختبار اختبره بنفسه . وجدير بنا أن نقف نحن تتأمل مغزى قوله فى ضوء الابحاث النفسية الحديثة

فان الجندى الظافر يجد فى قلبه من البهجة والسرور وفى نفسه وجسمه من النشاط ما يجعل جروحه سريعة البرء بينما الجندى المهزوم يجد فى الخيبة والفشل ما يكسر نفسه ويملأها غماً ونكداً فتنحط بذلك قواه المعنوية وتؤثر فى أعصابه ثم تعود أعصابه فتؤثر فى جسمه فيتأخر لذلك شفاؤه

وكلنا فى ميدان الحياة جنود . فمنا من ينظر الى الدنيا متفائلا من خلال زجاج وردى فتبدو له فى زهوة وبهجة يبتسم لها فتبسم له ، يعمل أعماله وهو واثق بالظفر يتوهمه خيالا فى نفسه فيتحقق فى الواقع . ومنا من يتشاءم ينظر الى الدنيا من خلال زجاجة سوداء يتوقع الهزيمة فى كل مكان ويخشى الفشل فى كل وقت وما أسرع ما يفشل فى الواقع

فنجاحنا فى هذا العالم يتوقف على خيالنا فاذا تخيلنا أنفسنا ظافرين فنحن لا شك ناجحون فى كل ما نتناوله من عمل لأن عقلنا يتسلط على جسمنا وأعصابنا ويوجه جهودنا فى سبل النجاح . واذا تخيلنا الفشل وتوقعناه فهو لا بد واقع

ولعل مما يوضح قولنا أن نفرض فرضاً بسيطاً . فلو ان أحداً طلب منا أن نمشى على لوح مستطيل من الخشب قد بسط على الارض لمشينا مشياً سهلا سريعاً لا نتعثر ولا نتردد . ولكنه لو بسط لنا هذا اللوح نفسه فوق فراغ بين بنائين شامخين لما استطاع أحد منا أن يخطو فوقه خطوة

وعلة ذلك ظاهرة فان اللوح لم يتغير ولكن نفوسنا هي التى تغيرت وبدلت من الطمأنينة والثقة جبناً ورعباً بما تسلط عليها من خيال السقوط والتردى . ونحن كذلك فى جميع أعمالنا اذا تسلطت علينا خواطر الفشل ارتبكت أعصابنا واختل عقلنا فنسير فى العالم ونتوقع السقوط فى كل وقت والارجح فى هذه الحالة ان ما نتوقعه يقع

وعبرة ذلك كله أن نسلط على عقولنا خيالا حسناً فنتفاءل فى أوقات الشدة والمحنة ونرجو فى مكان اليأس والخيبة ونقابل العالم بالبشر والثقة فعندئذ لا نجد منه سوى النجاح يتلو النجاح

ولما قال نابليون انه يجب أن تمحى لفظة « مستحيل » من المعاجم كان فى الواقع يعبر عما فى نفسه من تلك الثقة العظيمة التى كانت تحمله فوق جبال الالب هو وجيشه وكانت تخيل له ان فتح الهند ليس أشق عليه مما كان على الاسكندر . ولو ان مخترعى الطيارات تذكروا المصاعب التى ستلاقيهم ولم يخيلوا لأنفسهم النجاح على الرغم من آلاف العراقيل التي كانت تستقبلهم لما تم لأحد منهم اختراع ولما كان الهواء يطن الآن بأزيز الطيارات التى كادت تجعل الانسان صنفاً من الملائكة يصعد الى السماء ويركب السحاب

وأنت أيها القارىء لست دون أحد من هؤلاء الناجحين ولكنك لن تعدو ما تطمع اليه من أنواع الرفعة التى تتخيلها لنفسك . وهذه الرفعة هى طوع خيالك

تخيل فى نفسك الصحة والعافية تنلهما ثم تعود أصح الناس

تخيل فى نفسك الثروة والجاه واعمل لها تنلهما وتبلغ منهما ما أردت

تخيل فى نفسك النجاح فيما تمارسه من عمل تجد نفسك يقودها خيالك نحو النجاح من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى

العالم والوطن

فى هذا الشهر مقال فى « الهلال » لأحد رجال السياسة العليا هو المسيو كايو يدعو فيه الى اتحاد أوربا بما يكاد يشبه أن تكون دولة واحدة تنظر فى مصالحها المشتركة بعين واحدة

وليست الدعوة الى اتحاد أوربا حديثة فقد تكلم فيها عدد غير قليل من رجال الذهن . ولكن خروجها من رجل الذهن صاحب النظريات الى رجل السياسة صاحب العمليات يعد رقياً فى الافكار واتجاهاً حسنا نحو الخير والاصلاح

واتحاد أوربا هو فى الواقع اتحاد العالم والقائلون به انما يذكرون أوربا ويقتصرون على اتحاد دولها لما يرون فيها من السيطرة على العالم وأن العالم مسير برأيها بل مسخر لمصالحها

والقول باتحاد العالم فى أمة واحدة قد قالت به المسيحية وقال به الاسلام أيضاً . فهذان الدينان فقط من بين أديان العالم القديم قد دعوا الناس الى تناسى فروق اللغة والوطن والسلالة والاندماج فى وطنية عالمية كبرى هى وطنية الدين . ولسنا نستطيع أن نقول أن هذين الدينين العظيمين قد فشلا فى تحقيق هذه الغاية الشريفة كل الفشل . فقد عاش كل منهما مثلا أعلى يخفف من ويلات الحروب ويدعو الناس الى أن يكونوا فى سبيل الله أخواناً وأن يرتفعوا فوق وطنياتهم الصغيرة وتسمو نفوسهم الى وطنية كبرى عالمية

ويبدو من قرائن الاحوال أن القرن العشرين سيحقق شيئاً كثيراً مما رجت الاديان تحقيقه ففى الهواء الآن كما يقول الانجليز أفكار متوافقة ومتضاربة ولكنها ترمى كلها الى إيجاد حكومة للعالم والى النظر الى الامم كأنها أمة واحدة . بل قل أن فى العالم الآن مؤسسات تصح أن تكون بذوراً لهذه الحكومة فى المستقبل

ففى أوربا الآن نزعة شريفة تقصد الى تعليم التلاميذ فى المدارس تاريخ العالم لاتاريخ الامة التى ينتسبون اليها . وتطبع فى عالم المطبوعات كتب تاريخية ترمى الى هذه الغاية لكى تصبغ العقول بهذه الصبغة . وبين الساسة حتى من الفرنسويين من يطعن فى الوطنيات الصغيرة ويدعو الى الاتحاد العالمى مثل هذا السياسى العظيم الذى ذكرناه فى أول هذا المقال

ثم فى العالم أيضاً حكومة عالمية هى عصبة الامم وهى وان كانت مقيدة ومقودة معاً بدول الاستعمار الآن فان روح الانسان العالية وشهوة التطور التى لاتموت فيه ستكتبان لها السيادة القريبة ثم هذا الاستعمار قد أوشك أن يتزعزع كما رأى القراء فى المؤتمر الامبراطورى البريطانى حيث أقرت الدولة البريطانية أنها تنزل على قدم المساواة مع مستعمراتها المستقلة وأنها ليست لها عليهم أية سيادة

ولايظنن القارىء أن الامم تتجه نحو هذه الوطنية العالمية جرياً وراء خيال كاذب أو تنطعاً فى فلسفة خيالية . كلا . انما هى ظروف القرن العشرين الصناعية والتجارية التى تضطر العالم الآن الى الاتحاد . فمواد العالم الخام التى تغتذى بها الصناعة محدودة فهى الى الفناء القريب اذا لم تتفق الامم على صيانتها من عبث أرباب المصانع وتزاحمهم على احتيازها . وصحة العالم مهددة فى وقت بطاعون جائح يهلك الملايين من الناس اذا لم يكن للعالم كله مصلحة عامة تشرف على صحته وتراقب أمراضه وهذه المصلحة أو بالاحرى بذرتها موجودة الآن وهى أحد أقسام عصبة الامم ولها فروع فى عواصم أوربا والشرق . ومنذ عدة سنوات احتاجت أوربا وأميركا الى ايجاد مصلحة خاصة تراقب الطوافى الثلجية فى شمال المحيط الاطلسى . وعما قريب سيضطر الرقى المطرد فى الملاحة الجوية جميع الامم الى أن تتحد وتلغى حدودها

فنحن كلنا صائرون الى تلك الاخوة البشرية التى رسمتها المسيحية ثم الاسلام ولن ينقضى هذا القرن الذى نعيش فيه حتى تزول من أفواه الناس ثم من قلوبهم الفاظ العصبية الوطنية الحادة . فلا نسمع عن حضارة شرقية وحضارة غربية تتزاحمان وتتناحران للسيادة بل نسمع عن حضارة عالميه واحدة هي حضارة النور والعلم والصدق فى خدمة هذا العالم . وكما كانت تفرض الاخلاق العليا على الفرد أن يضحى بنفسه لأجل وطنه فكذلك ستفرض أخلاق المستقبل القريب على الناس التضحية بوطنهم لأجل العالم

الشيخ الشاب

يعيش فى أيامنا هذه شيخ يبلغ الثمانين فى عدد السنين ولكنه فى الجراءة والنشاط وفى حرارة القلب وهمة النفس شاب جدير بأن يكون طرازاً للشباب

هذا الشيخ الشاب هو كليمنصو وزير فرنسا ومن رجالات الدول العظام فانه بعد أن عقد اكليل الغار على رأس وطنه وأتم الصلح مع ألمانيا ونال من الشرف والمجد أكبر مايطمح اليه فرنسى قصد الى بيته فى الريف لا ليقضى فيه أيامه الأخيرة أيام الشيخوخة الورعة الى جانب المدفأة والمسبحة بل ليجدد فيه حياة جديدة هى حياة الجهد والتفكير والتأمل بعد حياة الجهد بالعمل السياسى

فكليمنصو لا يشيخ بل يتطور فى خدمة بلاده . فقد ناداه صوت الوطن مدة الحرب فلبى نداءه وصرف مجهوده الى خدمة الحرب وها هوذا يناديه الوطن أيضا بل يناديه العالم الى الخدمة المفروضة على كل حى فهو الآن يخدمه بذكائه . أما الشيخوخة فلا يذكرها ولا يتعلل بها للراحة بل هو لا يؤمن بأنه شيخ فان ثقته بنفسه وقوة رجولته تلهمانه نشاط الشباب. ونذكر عنه حكاية بهذا الصدد مؤداها أن الدكتور فورنوف عرض عليه أن يجرى له عملية استرداد الشباب التى تعمل للشيوخ فأجاب على الفور : لست شيخاً

ثم هو وهو فى هذه السن يعمد الى كتب الأغريق وينفض عنها غبار ألفى سنة لكى يدرس حياة الخطيب ديموستينيس يستخرج منها موعظة نافعة لبلاده وللعالم

وهو الآن يكتب مقالات متتابعة فى إحدى الصحف الفرنسية يضمنها آراءه التى اختمرت بالتجارب العديدة التى مرت به فى حياته . وماذا يقول فيها ؟

يقول هذا الشيخ الذى بلغ الثمانين ما يجب أن يفقهه كل شاب من الثقة بالنفس والكبرياء والرغبة فى الارتفاع والتجدد . يقول مثلا : « يجب أن نلقى مرساتنا ونستقر على صخرة المعرفة »

وأيضاً « كل يوم يمر بى هو برهان لى على انى أجدد نفسى بنشاط عقل ... ولست أعرف شيئا كثيراً ولكنى أتقبل ما أعرفه بكبرياء كما أتقبل نتيجة معرفتى . . . »

فهاك إذاً رجلا لا يحمل المسبحة خائفاً مذعوراً وهو فى سن الثمانين بل يعتمد على نفسه ويدرس العالم ويرضى بنتائج درسه ويسكن اليها

ثم هو ينصح للشباب . لك أيها القارئ بقوله : « لكى لا تحصل على دون ما ترمى اليه يجب أن تسمو الى أكثر مما تستطيع »

وليست حياة كليمنصو خلواً من النقائص وقد تكون وطنيته الحادة أكبر نقائصه . ولكن فى ما

نقلناه من أقواله مايصور للقارىء تلك الشخصية القوية التى تبدو من حياته وأعماله وتثبت اخلاصه لنفسه ولوطنه ومحاولته فى أن يعيش انساناً مستقلا ينفع العالم وينتفع به . وحسبه شرفا قضية دريفوس التى واجه فيها الرأى العام وناضل فيها العصبة الفرنسية لمصلحة الحق. فقد كان دريفوس ضابطا يهودياً بالجيش اتهم بالجاسوسية وسجن من أجلها وكان كليمنصو يجارى الرأى العام فى بداية التحقيق ثم تبين له أن الرجل مظلوم وان التهم مزورة عليه . وكان فى ذلك الوقت يحرر صحيفة الاورور فانقلب يدافع عنه بكل قواه وينشر فى صحيفته خطاب زولا المشهور بعنوانه « اتهم » وكان كليمنصو هو صاحب هذا العنوان المثير

فما أمجد هذه الحياة التى يعيشها الانسان فى الدفاع عن الحق ومكافحة التعصب ثم الدفاع عن الوطن. وخلال هذه الاعمال لا يكف عن اكتساب المعارف التى يسكن اليها راضياً بنتائجها ، له من كبريائه الانشائى ما يجعله يستقر الى ما يدبه اليه عقله دون ما يسأم من الاساطير القديمة و يعيش طول حياته نشيطا مجاهداً يلعب الألعاب الرياضية فى شيخوخته كانه شاب و يقاطع الخمر والتبغ لأنه يراهما دون رجولته وسيطرته على نفسه

ان مثل هذا الشيخ يجب أن يكون قدوة للشباب والشيوخ . يجب أن نعيش طول حياتنا فى جهاد ضد الرذائل وفى اكتساب للمعارف والعادات الحسنة وفى خدمة لا تنقطع للوطن والعالم وكل ذلك فى كبرياء يجعلنا نعرف كرامتنا ونؤثر الموت الشريف على الحياة الدنيئة والايمان الذى يمليه علينا ذهننا وقلبنا على التالد الموروث من العقائد تهتك أعراض الضمائر

الاستقلال الروحى

يروى التاريخ عن أحد أئمة الدين انه عاش طول عمره مؤمناً تقياً يخلص فى عبادة ربه . ثم دب فى قلبه الشك فلم تطق نفسه وقفـــة المتردد المرتاب فكان يدعو الله قائلا : اللهم الهمنى ايمان العجائز

وايمان العجائز هو كما يعرف القارىء ايمان التسليم و التصديق بل قل هو ايمان الخوف والضعف لانه اذا لم تكن العجوز خرفة تصدق كل ما يقال لها فلا أقل من أن تكون وجلة تقترب من ساعة الموت وفى قلبها وجيب الخوف فهى لا تجادل ولا تعاض

ومما يدعو الى الاغتباط اننا قد عدونا هـذا الطور . فليس منا من يحب أن يلهمه الله ايمان العجائز لانه يرى هذا دون كرامته الانسانية وهو يجد فى مواجهة الحقائق مع ما فيها من ألم الشك سروراً لا يجده ولا يحب أن يجده فى التسليم بايمان العجائز

وليس معنى هذا اننا أقل ايماناً من السلف الصالح وان كنا أكثر شكا منهم فيما اعتقدوه صوابا . وانما نحن نختلف عنهم من حيث اننا أكثر رجولة منهم فى مواجهة الدنيا كما هى والسكون الى حقائقها والاعتماد فى كل ذلك على عقولنا لا على ما تؤمر به ويشار به علينا

كان أسلافنا يؤمرون بالايمان بأحد الاديان أو العقائد فيطيعون . فكانوا يسأمون العقيدة سلطة خارجية ولكننا نحن نحاول أن تؤمن بسلطة داخلية بما توحيه الينا ضمائرنا . نؤمن عفو القلب والعقل ونحن أحرار لا نخشى عقابا ولا نبالى بحساب سوى حساب الضمير

ونحن فيما نتعناه ونكابده من هذا الايمان الداخلى وآلام التردد والحيرة أشرف وأشجع من سلفنا الصالح الذى كان ينشد « ايمان العجائز »

ففى العالم الآن طائفة من الناس قد أخلصت النية لهذا العالم الذى هو وطننا الأكبر وعرفت موقفها فيه وما عليها من تبعات نحوه . ولكنها مع اخلاصها للعالم تخلص أيضا لنفسها وهي ترى من الاخلاص لنفسها أن تنشد الله بما فيها من قلب وعقل وتتحسس وجوده فى هذا الكون بما تهديها اليه بصائر نفوسها

ولعل أظهر واحد من هذه الطائفة وأكثرهم جهاداً هو المستر ولز الانجليزى فلست أعرف رجلا آخر قد تلظى بنار الحيرة ثم اهتدى الى ربه وسكن اليه . مضى عليه أكثر من عشرين سنة وهو يحاول أن يستخلص من لباب نفسه ايمانا يقفه من الكون على علاقة ترضى ضميره وعقله ولست أظن ان كثيرين من الذين يقرأون المجلدات الأربعة التى وضعها فى هذا الموضوع يهتدون بهديه أو يقنعون بدينه ولكنى أعتقد ان هذا الرجل يبدى من الشرف والشجاعة والاخلاص ما هو جدير بكل انسان يحترم نفسه ويحب أن يرى الاديان تنبع من القلوب خالصه نقية ولا نصب فيها مشوبة بما أوقرها التاريخ القديم من العقائد المختلفة

ولسنا نقول ان ولز ينفرد بهذه النزعة فان هناك كما قلنا طائفة كبيرة وهى وان كان أفرادها دونه ظهوراً الا انهم ليسوا دونه فى الاخلاص والذكاء . وهم جميعهم يكرهون أن يؤمنو ايمان العجائز بل يحاولون أن يحققوا للانسان استقلاله الروحى . ولكن كما ان حديث العهد بالاستقلال فى السياسة يتخبط فى مبدأ استقلاله فكذلك حديث العهد باستقلال الروح لابد له من فترة تقضى فى التردد والتخبط والظلام ثم ينجلى كل هذا عن نظام ونور ويقين

وهذه الطائفة تحاول أن تؤمن وكثيراً ما تؤمن وان كانت فى نظر أكثر الناس معدودة من « الكفار » وهى كافرة بالفعل بتلك العقائد التي ورثها العالم عن قدماء المصريين والاشوريين والفرس ولكن اخلاصها لنفسها وللعالم يدعوها الى النظر فى الكون نظراً صريحاً والى محاولة حل هذا اللغز حلا تسكن اليه

فنحن اذا نشدنا الاستقلال الروحى فانما ننشده للغريزة الدينية التى فى نفوسنا . وليس فى ذلك تنطع أو استهزاء بالآراء . وانما هى الانسانية قد بلغت سن الرشد وتأبى أن يقام عليها وصى من الخارج لأنها تحس أن هذا الوصى قائم فى داخل نفوسنا وهى ترى من الرجولة أن تتحسس وجوده وتحاول الاهتداء اليه .

لا جديد تحت الشمس

نكتب هذا العنوان لكى ننفيه ونقول أن كل شىء جديد تحت الشمس . وأولئك الذين يدعون دعوى الدوام وأن الجديد كالقديم انما يقولون ذلك ونفوسهم تردد صدى القول القائل بأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان وان العالم لايتطور . ولكن الواقع أن العالم يتطور ويتجدد . وهو اليوم غير ما كان فى الامس وسيكون فى الغد غير ماهو اليوم . وهذا التغير لايلحق النبات والحيوان وحدهما بل يلحق الجماد نفسه . فان تاريخ الارض يثبت تحولها . فقد مضى زمن كانت فيه أميركا جزءاً لاحقاً متصلا بافريقيا وأوربا . ومضى زمن كانت فيه أوربا مغمورة معظم أقطارها بالثلج وكانت مصر فى وقت ما لا ينقطع عنها المطر صيفاً وشتاء . ومضى زمن كان فيه جبل المقطم قعراً للبحر تسبح فوقه الاسماك وينساب عليه المحار . ويقول العلماء الآن أن المادة دائمة التحول لاتهدأ ذراتها عن الحركة . فالجماد نفسه يتجدد تحت الشمس تنطق بذلك طبقات الارض الجيولوجية كما ينطق أيضاً فحص المادة فى المختبرات العلمية

والنبات أيضاً يتحول ويتجدد . فمعظم النبات الذى وقعت عليه عين الشمس قبل عشرة ملايين سنة ليس له وجود على أرضنا الان لان نباتاتنا جديدة . وبرهان ذلك أنه عند ماوجد الفيل المنقرض الذى يسمى الماموث فى سيبيريا واستخرج من تحت الثلج فحصت الاعشاب التى فى معدته فلم يعرف منها واحد يعيش الان . ثم هذا الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم كان قبلا نباتاً لاوجود له الان . ونحن هنا لنا فى مصر وزارة زراعة من مهماتها أن « تجدد » سلالات القطن أى توجد أصنافا لم تكن موجودة قبلا تحت الشمس

أما تجدد الحيوان فمختصر مايقال فيه أن نظرية التطور قائمة عليه وهى تستمد شواهدها من الحيوانات التى انقرضت والحيوانات التى جدت . وليس فى العالم متحف للتاريخ الطبيعى إلا وفيه عشرات من الحيوان المنقرض

فالتحول هو الناموس الاصلى للكون كله فليس فيه شىء باق أودائم وانما كل شىء يتحول تحت الشمس ويتجدد من لحظة لأخرى . حتى أنت أيها القارىء منذ ابتدائك لقراءة هذا المقال الى أن

تنتهى منه ستتحول وتتطور لانك على الأقل ستكون أكبر سنا بجملة دقائق . واذا اختلف اثنان فى السن اختلفت آراؤهما وقوتهما ومزاجهما وإن يكن ذلك بقدر يسير لا يلحظ بالحواس ولكنه يستنتج بالعقل . فكل شيء اذن جديد تحت الشمس وكل شيء يتطور حتى الجماد . أجل حتى جبل المقطم والصحراء والنيل . ولكن هذه الاشياء تختلف فى سرعة تطورها . فالحيوان يسبق النبات والنبات يسبق الجماد والانسان يسبقها كلها ، ثم بعد ذلك نقول أن الامم الغربية تسبق الامم الشرقية فى التطور . فانت تسمع مثلا عن تعدد الازياء وتجددها كل يوم فى باريس ولندن وغيرهما وتقرأ ما يقال من الفكاهات عن ذلك وتحسب هذا التقلب السريع فى الازياء ضرباً من نزق النساء . وقد يكون كذلك ولكنه أيضاً دليل على أن شهوة التطور أشد هناك مما عند الشرقيين . وهذه الشهوة نفسها هى التى تثمر المخترعات والمكتشفات كل يوم . والشرق بجموده لا يخترع ولا يكتشف والغرب بتطوره يسير قدما نحو الأمام ويجر الشرق الجامد وراءه بعد أن يمتهنه ويستخدمه . فالواجب الذى يحتمه علينا ناموس الطبيعة الاكبر هو أن نتجدد ونتطور ولا نجمد . يجب أن نجدد أذهاننا بالعلوم والنظريات الجديدة كما يجب أن نجدد نفوسنا بما نطبعه عليها من أذواق جديدة نكتسبها بدرس الفنون الجديدة . ويجب أن ننظر الى المستقبل ونفكر فى الرقى المطرد والتطور المستمر ولا نقنع بالنظر الى السلف والجدود فان النمط الذى ساروا عليه فى حياتهم قد بلى وانقرض ونحن فى حاجة الى انماط جديدة تلائم وجهة النظر الحديث . فهلم أيها القارىء نتجدد فى الثقافة والحضارة جميعا وننصت الى صوت ضميرنا الذى يدفعنا الى الامام ويحثنا على الاستقلال وننفض عن أنفسنا غبار التقاليد التى تقيدنا وتؤذينا وتسد علينا منافس الحياة وتقتلنا

طريق السعادة

يقترح « الهلال » الذى سيصدر فى أول الشهر القادم على قرائه أن يوافوه باختباراتهم الشخصية عن طريق السعادة . وذلك لأن رجلا باراً عرض على القراء مكافأة قدرها عشرون جنيهاً لمن يمكنه أن يكتب أحسن مقال فى هذا الموضوع

والموضوع جليل المنفعة دائم الجدة . ولما كان كاتب هذه السطور خارجا عن المباراة فلا بأس من أن يدلى برأيه هنا فى هذا الموضوع الذى يلمس قلب كل انسان وأن ينظر اليه بمنظاره الخاص

ولكن قبل أن نفكر فيه يجب أن ننفى عن ذهننا ذلك المنطق الآلى الذى لا ينطبق البتة على الحياة . فانى أعرف مثلا أن بسكال يقول أنه « لو كان الانسان سعيداً لزادت سعادته كلما قلت تسليته » وان شوبنهور يقول برهاناً على الشقاء الاصيل فى هذا العالم : ان المرض يعدى وان الصحة

لا تعدى ، وان كل دقيقة تمر من حياتنا تجعلنا نقترب من القبر ، وانا ندخل الدنيا باكين ونخرج منها متألمين .

ولكن كل هذا الكلام هراء. فان منطق الحياة أسمى من ذلك وأدق وأعرف بغاية الكون من هذا المنطق الرياضى . فقد وجد كثيرون من الناس سعادتهم فى آلامهم وهذه سير الشهداء تنطق بذلك . و« فقراء » الهند يمرضون أنفسهم عمداً ويجدون فى قروحهم وآلامهم سعادة لا يجدها غيرهم فى الصحة . وقد يعانى المخترع آلام الفقر والاحتقار وهو يتقدم نحو تحقيق غرضه

ومن هذا المثل الاخير يمكننا أن نستبصر بماهية السعادة فانما السعادة هى الجرى على نواميس الحياة . فللحياة أغراض فى هذه الدنيا ونحن أدواتها التى تسوقها نحو هذه الاغراض . فاذا خالفنا هذه النواميس شعرنا بالشقاء ، واذا نحن انسقنا فى تيارها نحو أغراضها شعرنا بالسعادة

فلكى نفهم السعادة ونمارس وسائلها حتى نسعد يجب أن نفهم عرض الحياة . لانه كما ان الجسم يجد راحته فى اتباع الشروط الصحية كذلك نفس كل انسان تجد راحتها فى اتباع شروط الحياة وأغراضها .

ولكنك تسألنى الآن : ماهو غرض الحياة وكيف نعرفه ؟ فالجواب على ذلك اننا نعرفه من تاريخ الحياة على الارض . فان الحياة فى كل تاريخها الماضى ترمى إلى التوسع والاستعمار بامتلاك المادة واستغلالها . فقد نشأت ضئيلة فى الضحاضح ثم انتشرت فى البحر ثم وثبت إلى اليابسة ثم طارت فى الهواء . وكانت فى كل ذلك تجازف وتستعمر وتمتلك وتخترع وتجاهد وهى فى كل ذلك أيضاً لا تبالى بمن يموت فى تحقيق أغراضها

ونحن كذلك اذا أردنا أن نحقق سعادتنا على هذه الارض يجب أن نتوسع ونمد سلطاننا على هذا العالم . والواقع أن غريزة الحياة تدفعنا كلنا نحو هذه الغاية ولكننا نتخبط فيها بعض التخبط لان عاملا جديداً ظهر فى الانسان يعاكس الغريزة هو الذهن . فالحيوان لاعتماده كثيراً على غريزته سعيد لا يشعر بشقاوة يرى غرضه ، وهو غرض الحياة ، ويعمد اليه بلا تردد ، ولكننا نحن لان لنا ذهناً حديثاً نتردد ونرتاب ونبالغ أحياناً ونقصر أحياناً أخرى . فكلنامثلا يحب التوسع ولكننا نسىء الفهم بأن نحسب التوسع مقصوراً على جمع الثروة . وكلنا مثلا يحب المجازفة ولكننا نسىء فهمها فنجردها من غرضها وهو الرقى والاختراع فنجازف بغية المجازفة فقط ونقامر ونخاطر . وكلنا يحب المجاهدة ولكننا نجاهد أحياناً فى خصام سخيف . ولكننا الحياة تجازف وتتوسع وتخترع لاجل الرقى . فاذا نحن جعلنا الرقى نصب أعيننا ووجهنا جهودنا ومجازفاتنا واختراعاتنا اليه شعرنا بالسعادة لان غايتنا تنطبق حينئذ وغاية الحياة

وهذا هو علة السعادة التى يجدها الشهيد فى قتله أو المخترع فى فاقته أو المجازف فى اكتشافه المجاهل أو المفكر فى مجاهدته المتعصبين

فمختصر القول ان السعادة فى التطور والرقى أو بعبارة أخرى هى فى أن تكون أغراضنا وفق أغراض الحياة . ولا يسع المرء وهو يرجع الى اختباراته الشخصية الماضية إلا أن يجد مصداق هذا القول

فى مبادىء الثورة

الثورة ضرورة من ضرورات الرقى اذا لم يلجأ اليها الناس من وقت لآخر جمدت بهم الحياة وربما هلكوا بجمودها . والسرطان وهو يخلع عنه صدفته والثعبان وهو يتجرد من جلده كلاهما ينزع الى الثورة حين يجد ان الوسط المحيط به جامد لا ينمو مع نموه . وكذلك الشرائع والمؤسسات التى يبنيها الانسان حوله جامدة لا تنمو بنمو الحياة فالناس لذلك يحتاجون من وقت لآخر الى هدمها ومحوها والاستبدال بها . وقد يكون هذا الاستبدال بطيئاً مؤلفاً من ثورات صغيرة فنسميه عندئذ تطوراً . ولكن يجب أن نذكر ان التطور والثورة واحد فى النوع وان اختلفا فى الدرجة

ولكن للثورات أصولا ومبادىء يجب الجرى عليها والا انحرفت غايتها أو انعكست . وأول أصولها أن يكون القائمون بها من الكفاة الذين يعرفون قصدهم فيقصدون اليه . وقد دل التاريخ على ان الثورات الناجحة لا يقوم بها عوام الامة وهوامها المصفقون انما يقوم بها السادة المتعلمون المثقفون

ولسنا نكتب الآن بصدد الثورات الاجنبية فنذكر أمثلة منها فحسبنا ثوراتنا وان كان رينان يعيرنا بأنه ليس فينا ثائر واحد . اذا صدق رينان فهذا أكبر عار تتلطخ به أمة . ولكن الواقع ان لناثوراتنا وان كنا نحمل من أعباء الشرق شيئاً عظيما تنوء به الجبال فتبدو ثوراتنا لذلك صغيرة لا يعتد بها رجل مثل رينان ينظر نظراً تلسكوبياً للمستقبل البعيد

وأكبر ثائر قام فى مصر فى العصور الحديثة هو فى اعتقادى اسماعيل باشا . فقد حاول أن يجعل مصر الشرقية الأسيوية المستكينة النائمة أمة غربية حديثة يلبس أهلها لباس الغربيين لهم حكومة برلمانية مثل الحكومات الاوربية يأكلون ويشربون ويسلكون فى سائر شئونهم مثل الأوربيين بل لقد بلغت غيرته فى ذلك أن حض المصريين على التزوج من الغربيات وذلك لكى يجعل بيوتنا وعاداتنا المنزلية غربية . وقد وفق اسماعيل باشا الى شىء كثير مما أراد . ويجب ألا

ننسى ان أول يد حركت الثورة العرابية كانت يده ولكن عرابى كان من العامة فلم يفلح فى ثورته وانعكست على يده الغاية منها . وهذا هو ما نريد اثباته وهو ان أكبر أصل من أصول الثورة أن يكون القائمون بها من الخاصة سادة الامة لا من العوام الصاخبين

ثم كان لنا جملة أمثلة أخرى من رجال الخاصة الذين بذروا بذور الثورة الاجتماعية فى مصر وهى بذور تنمو وتذكو الآن . فمن هؤلاء قاسم أمين الذى وضع بذرة الحرية النسائية . ومنهم محمد عبده الذى وضع بذرة الاصلاح الدينى . ومنهم لطفى السيد الذى وضع بذرة الدستور . فان هؤلاء جميعهم ثائرون وثوراتهم شبيهة بالتطور لانها خالية من الهتاف والتصفيق والدماء ولكنها ثورات حقيقية تسير غير متوقفة أو وانية لأن القائمين بها من الخاصة وقد خاطبوا الخاصة وملكوا قلوبهم فوجدوا منها تربة خصبة لبذورهم

وخلاصة القول ان الثورات انما تنجح اذا كان القائم بها من الخاصة . ولست أعنى خاصة المال وحدهم بل أعنى أيضاً خاصة الذهن والادارة والنفوذ . وعرق الثورة عرق شريف اذا همد نبضه أو بطؤ فانه عندئذ يؤذن بموت الأمة . وخلق الثورة خلق شريف اذا اتسم به رجل الذهن صار مكتشفاً أو مخترعاً واذا تخلق به رجل الادارة صار مجدداً يعمل للنهضة والرقى . وليس لأديب الحق فى أن يمارس الأدب ما لم يكن ثائراً ولا لحاكم الحق فى الحكم ما لم يكن مجدداً

وهنا أناشد السادة الذين يحكموننا بالتطور والتجدد وأقول لهم ان الميدان خلو من مثل محمد عبده وقاسم أمين وان الامة فى حاجة الى أن تنسلخ كما ينسلخ السرطان من أصداف التقاليد التى تعوق نموه . ولست أعتقد ان زغلول أو ثروت أو اسماعيل صدقى دون من ذكرناهم من الثائرين المصلحين فى الذكاء والنية الحسنة ولكنهم يحسبون أكثر مما يجب لحساب العامة ويخشون أشياء يدلنا تاريخنا على أنه يجب ألا نخشاها . وتجارب الامم كلها تدلنا على ان العامة يجب أن تصلح بالقوة بل بالعنف أحياناً وقد أدرك ذلك رجال الاتراك وعملوا به فنجحوا

هذه الدنيا

منذ سنوات مات شاب انجليزى وهو دون الخامسة والثلاثين وكان قبل موته بنحو خمس سنوات يعرف انه قد حكم عليه أن يشرب كأس الموت المرة حوالى هذه السن . فقد كان مريضاً مقضياً عليه بالموت فكان يروح ويغدو وهو عارف بان الساعة الرهيبة تقترب . وقد خلف هذا الشاب كتابين أو ثلاثة ضمنها احساسه بالوجود ورأيه فيه وتنكر أمام قرائه باسم باربيون

والقارىء لهذه الكتب يشعر لأول صدمة أن الرجل شقى بل فى غاية الشقاء. فان عقله كان

أحياناً يهذى بالموت فكان يخرج الى الحقول يتنزه فيخطر برأسه خاطر الموت كالسكين القاطعة يلتوى تحته فيكاد يصرخ ويكاد يعدو ناجياً بنفسه ولكن لا نجاة من عدو غير منظور . ثم كان يكشف عن جسمه فيرى بشرته الحمراء والدم يجرى دافئاً فى العروق فتسود الدنيا فى وجهه عندما يذكر أن هذا الدم القانى سيستحيل قريباً سائلا أصفر منتناً يختلط بتراب القبر وتسبح فيه ديدانه

أقول انه يخيل للقارىء أن هذا الشاب كان شقياً لهذه الخواطر ولكنى بعد التأمل أقول أن هذا الخبيث كان فى غاية السعادة . فانه عند ما عرف آخرته وتعين له على وجه التقريب زمنها طفق ينظر الى العالم كأنه مكان غريب يوشك أن يخرج منه فيجب عليه لذلك أن يرى كل ما يمكن أن يراه فيه ويتمتع بجميع ما فيه من متع ومسرات . فعاش ملء حياته فى تجارب وملذات وخرج من الدنيا وقد شبع منها بأكثر مما يشبع منها ابن الثمانين أو التسعين . أو قل انه عاش بسرعة عيشة الغزال بينما غيره يعيش ببطء عيش السلحفاة ويوم واحد من حياة الغزال خير من ألف عام من حياة السلحفاة

ويخطر ببالى اننا نكون أسعد حالا لو اننا عرفنا يوم انقضاء أجلنا كما عرفه بارسيون لاننا عندئذ نفعل فعله فنكف عن كل ما لا فائدة فيه ونعمد الى رؤية هذا العالم والتمتع بمشاهده وتجاربه . ولا يحسبن القارىء اننا نغمس عندئذ فى الملذات البهيمية لان الانسان بهيم بطبيعته واذا كان البهيم من الاشخاص المضمرة فى نفسه فان الفيلسوف شخص آخر مضمر فى نفسه

ودليلنا على ذلك أن بارسيون لم ينقلب بهيما يشره الى الطعام أو النساء او الخمر بل انقلب فيلسوفاً يخرج فى الفجر لكى ينظر الى بزوغ الشمس وتوهج الشرق بأضوائها الملتهبة . وأخذ يعد الايام بينه و بين الموت فصار يدرس كل شىء تقع عليه عينه فى هذه الدنيا فكان يقرأ القصص الروسية ويشرح البراغيث . وكان يقرأ نيتشه حتى يشعر انه كلب عضوض ثم يعرج بعد ذلك على الموسيقى الالمانية فيستكنه سحر الانغام وطرب الايقاع . وكان يصعد مع ما هو فيه من أمراض عاتية مضنية الى قمم الجبال وكأنه يريد أن يواجه الكون وجها لوجه ثم كان يعود فيكتب مقالا عن « الرغبة فى الخلود » تتوهج ألفاظه بالتفاؤل والمجازفة والرغبة العنيفة للتجارب والتمتع بالدنيا

إقرأ مثلا هذه القطعة منه « يقول تين اننا فى الاداب يجب أن نحب كل شىء . وأنا أقول : أجل . وفى الحياة أيضاً يجب أن نحب كل شىء . ان جميع الاشياء فى هذه الدنيا تجذبنى فلا استطيع ان أحصر قواى بل أرانى مستعداً لان اعمل كل شىء واذهب الى كل مكان وأفكر فى كل شىء واقرأ أى شىء ... وإنما يقطع الانسان نفسه من بعض الوجود إذا هو اقتصر على صناعة بعينها أو طريقة للحياة أو مذهب أو فلسفة أو رأى أو تعلق فانى أنا أكتب للجميع ... »

ولكن يجب أن أقطع نفسى هنا عن فتنة النقل المغرية واقنع بالعظة والعبرة . فان حياة باربيون على قصرها املاء بالتجارب والمتع من حياة أى واحد منا . فاننا نعيش أكثر أيامنا عيشة نباتية كأننا أشجار مزروعة لا ننتقل إلا فيما بين بيتنا ومحل عملنا ولا ندرس إلا ما نحصل به عيشنا فنموت ونحن نجهل عجائب هذا العالم . وليس فى هذا العالم شىء تافه إذا سلط عليه الذهن بالدرس وليس فيه حجر أو حيوان أو نبات الا وهو صندوق عجائب لاينتهى الانسان من لذة المعرفة له . ثم هذه الدنيا بمتحفاتها الطبيعية بجبالها وأنهارها وحقولها وبما فيها من تحف وطرائف صنعها الانسان كلهاجديرة بالدرس الذى هو أرقى أنواع التمتع

الحياة الحلمية

منذ أيام كنت أقرأ كتابا عن الاغريق القدماء وأثرهم فى ثقافة العالم . والاغريق هم كمايعرف القارىء أصل الادب الحديث وواضعه من مبادئه ولكنهم مع تقدمهم فى الادب ليس لهم أى فضل فى العلوم .وخاصة تلك العلوم العمليه التجريبية التى تعزى اليها حضارتنا الحديثة . وليس ينكر انه قد نبغ فيهم اقليدس ولكنه كان صاحب نظريات . وكذلك ليس ينكر أن ارسطوطاليس شرع طريقاً عملية للعلوم وان ارخميدس اخترع الطنبور الذى يستعمل الآن للرى فى حقولنا . ولكن المهم الذى يلفت النظر ان الاغريق لم يستأنفوا السير على الطريق الذى اختطه لهم اسطوطاليس وان ارخميدس كان يخجل من تدوين مخترعاته لانه كان يعتدها من التفاهة والهوان بحيث لا تستحق العناية بتدوينها . فماتت تلك الحركة العلمية الصغيرة بل وئدت فى مهدها . ونام العالم فى الظلام نحو ١٥٠٠ سنة الى أن نهض نهضة علمية جديده ثابتة الاساس مطردة التقدم. فماذا كانت علة ذلك ؟

كانت علة ذلك أن الاغريق كانوا يعيشون عيشة حلمية أى كالحلم الذى يمتص دم الحيوان الذى يعلق بجلده . فكانوا يستخدمون العبيد ويمتهنونهم فى أعمالهم المنزلية والزراعية والصناعية وكانوا لذلك يحتقرون جميع الاعمال التى يعملها العبيد ولا يرضون البتة بان يدرسوا الصناعة أو أعمال البيت أو شئون الفلاحة . وبديهى أن العلوم لا تنشأ الا اذا كانت تتناول هذه الاشياء بالاختراع وهذا يتضح اذا القينا نظرة واحدة على المخترعات التى تخترع فى زماننا فانها كلها تتناول الزراعة أو الصناعة

فالاغريق حرموا انفسهم من العلم لانهم كانوا يعيشون فى دعة عيالا على عبيدهم يجنون ثمرات جهدهم ويحتقرون مع ذلك أعمالهم ويتعيرون من التلبس بها أو الاهتمام لشئونها. وقوام العلم الاختراع

وما دام الانسان لا يحترم عملا ما فهو لا يفكر فيه ولا يتهمم لتخفيف مشاقة باختراع آلة أو اكتشاف طريقة بها تقل ساعات العمل أو تزيد مكافآته

وعلى ذلك يمكنك أن تقول أن الرقى لم يكن مؤذيا للعبيد وحدهم بل كان أيضاً أذى عظيما وبلاء كبيرا للاغريق انفسهم لانه حرمهم من تسليط عقولهم على حضارتهم والعمل لتقدمها بالاختراع والاكتشاف العلميين

وما أحرانا نحن أن نتعير بهذه العبرة البالغة . فالوارث الذى يتمتع بأموال أبويه وهو وادع هانىء لا يعمل ولا يكد انما يعطل قواه ويعوق كفاياته عن النمو فيركد ذهنه ويعيش فى العالم عيشة حلمية وهو قانع بما يقنع به الحلم من طعام وشراب لان العقل لا ينمو ولا يزكو الا اذا اعتملته التجارب ونقحته الاختبارات وهذا لا يكون بالركود والدعة وانما يكون بالجهد والعمل والتفكير والتهمم للرقى والنجاح

ويخطر ببالى وأنا أسطر هذه الكلمات ذلك الخبر الذى ذكرته الصحف من أن جامعة ريدنج فى انجلترا قد انشأت شهادة عليا للبانة أى صناعة الجبن وما اليه من مستخرجات اللبن . فان الانجليز لا يحتقرون الصناعات ولذلك يسلطون عليها عقولهم بالدرس والاختراع فترقى الصناعة بهم ويرقون هم بها . ولو أن أفندياً من شباننا اقترح عليه أن يصنع الجبن لأنف واستكبر . وهو انما يفعل ذلك لمثل السبب الذى كان يحدو الاغريق الى احتقار الصناعة . فقد احتقرنا نحن الفلاح واضطررناه الى عيشة زرية فى اكواخ بالية وأضعنا كرامته من أعيننا فصار فى مركز العبد وصرنا لذلك نحتقر أعماله وكل ما يلابسه فعاد الينا احتقارنا كالسهم الاسترالى يطلقه صاحبه فيرتد اليه وبتنا واذا بشباننا يترامى على وظائف الحكومة ولا يستطيع أن يقف على قدميه مستقلا ويواجه عالم التجارة والصناعة والزراعة بكفايته ومهارته

أجل اننا نعيش الآن فالحلم على الفلاح . وجميع أنواع الحلم سواء فى انها تفقد جزءاً كبيراً من كفاياتها . فالديدان التى تعيش فى بطوننا تفقد احيانا قناتها الهضمية لوفرة الغذاء حول جلدها وبين النمل أفراد تعيش بخدمة غيرها لها فتعجز عن الحركة وتبقى مدى حياتها فى مكانها لا تريم لانها تجد من النمل ما يعنى بها ويغذوها ويمسحها

اننا لا نخترع ولا نكتشف لاننا لا نتلبس بالحياة العملية حياة الصناعة . والعلم لا يتقدم الا إذا كانت غايته عملية . وقد بدأ بيكون النهضة العلمية الحديثة بحض الناس على درس « الاشياء العادية » ولكن هذه الاشياء العادية البسيطة أصبحت فى يد عمال لا نحترمهم وان كنا نعيش بعرق جبينهم فنحن لذلك نتعير من أن نكون دباغين أو حدادين أو خبازين مع انه لا مجال للاختراع والاكتشاف الا فى مثل هذه الصناعات . وأيضاً لا مجال للعمل الاستقلالى الا فى ميدانها

العلم والادب

ليس شك فى أن عصرنا الحاضر هو عصر العلوم وأن العصور القديمة هى عصور الآداب . وليس ذلك إلا اطراداً مع رقى الذهن البشرى لان العقل العلمى أرقى من العقل الادبى

وذلك لان عقل الآداب هو عقل الخواطر السائبة الطارئة ، ان كان قد صبغ فى عصرنا بقليل من الصبغة العلمية . بينما نجد ان العقل العلمى يتقيد ولا ينساب و يجيل الفكرة عن عمد لا تطرأ عليه طروء الخواطر الهاملة

ولكن هناك سببا آخر (غير الرقى الذهنى) لاتسام العصور القديمة بسمة العلوم . وهذا السبب ينحصر فى أن الامم القديمة كانت عظامية ينتظم فيها نظام الارقاء والموالى يسودهم ويستغلهم الاسياد والاشراف بينما زماننا الحاضر زمن عصامى خلو من الرق والولاية فكان العبيد والموالى يقومون بالأعمال اليدوية بالزراعة والصناعة بل حتى بالتجارة لمصالح أسيادهم . وكانت هذه الصناعات كلها محتقرة لانها قد اختص بها العبيد دون الاسياد . والعلوم انما تنمو وتزكو بين الصناعة ولكن لما كانت العقول المسلطة عليها قديما هى عقول العبيد فقط . ولما كان هؤلاء العبيد أيضا خلوا من التربية والمال فانهم لذلك لم يخترعوا ولم يكتشفوا ولم ترتق بهم الصناعة أو العلم . وكذلك رأى الاسياد والاشراف انه لا يليق بهم أن يتلبسوا بالصناعة للعار الذى يلحق بها اذ قد اختص بها عبيدهم ومواليهم . ومن هنا نفهم نهى الغزالى للناس عن أن يكونوا حلاقين أو دباغين

فالعصور القديمة كانت عصور الآداب لان الخاصة المتعلمة كانت تأنف من ملابسة العبيد فى صناعاتهم وتقتصر على درس الآداب . ولكن لما قطعت الخاصة الصناعات قاطعت العلم أيضا اذ أن ميدانه هو ميدان الصناعة لان رقى العلوم لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى رقى الصناعة . الا اذا استثنينا الفلك .

وقد سارت نهضة العلوم الحديثة سيرا مرافقا لالغاء الرق وتحرير الصناعة بل تطهيرها مما علق بها من عار الرق السابق . وشرع بيكون عندئذ يناشد الكتاب والمؤلفين أن يدرسوا « الاشياء العادية » ويتركوا المسائل الضخمة من البحث فى ماهية الخالق وما وراء الكون ونحو ذلك وهذه الاشياء التى درسها بيكون هى أساس الرقى الصناعى أى الرقى العلمى الحاضر

والعبرة لنا مما قدمناه شيئا :

١ — أن نهضتنا فى مصر أدبيه وليست علمية . وهى تخالف فى ذلك أوربا

٢ — ان علة ذلك أن الفلاح والعامل عندنا محتقران

فاننا قد وضعنا العامل الصناعى والعامل الزراعى فى مركز العبد من حيث قلة الأجر وهوان العيش بحيث صرنا نتعير من أن نعمل عملهما . والعلوم لاتتقدم الابدرس الاشياء العادية أى بدرس خمائر الجبن أو الخبز أو الكؤول أو بدرس أرواث البهائم أو زيوت الوقود أو الاصباغ أو نحو ذلك . وهذه أشياء يتلبس بها العامل الذى نحتقره فلذلك نحن نحتقرها ولانحب أن نمسها وعاد علينا هذا الاحتقار كالسيف القاطع حتى قطعنا من البحث العلمى وانصرف شبابنا الى الادب وصاروا الآن يعنون بقراءة قصيدة أكثر من عنايتهم بوصف طيارة مع أن صناعة الطيارات أشرف من قرض الشعر وهى برهان على رقى الذهن العلمى وتفوقه على الذهن الأدبى . فان الهمج يقرضون الشعر ولجميع الأمم فى جاهلياتها القديمة أشعار وقصائد بارعة ولكن العلم هو ثمرة الذهن الحديث الذى غذى بأوفر مادة من الثقافة والحضارة

ثم إن احتقارنا للصناعات قد سد علينا طريق الأعمال الحرة التى هى أساس القوة والثروة عند الامم الراقية . فيجب علينا إذن أن نعمد إلى نهضتنا الحاضرة فنصبغها صبغة علمية و إلى عمالنا فنرفعهم إلى مستوى يحفظ كرامتهم الانسانية وكرامه الصناعات التى يزاولونها ثم بعد ذلك لانحتاج أن نحث الشبان على طرق أبواب الأعمال الحرة

ويجب أن نغرس فى أذهاننا أن وطن العلوم هو المصانع وأن الأمة المصرية تنتفع وترتفع إلى أعلى درجات المجد إذا أقبل شبابها على الصناعة . وأن العلوم ترتقى لأنها تجد البيئة الموافقة لها فى الصناعة التى تغرى العالم بالعلم للمكافآت العظيمة التى تقدمها له . ونحن مازلنا فى طور الزراعة من حيث العمل وطور الأدب من حيث التفكير وكلا الطورين لايتفقان والعصر الحاضر . فالزراعة التى نمارسها قد باتت من احتكار الهمج فى افريقيا وآسيا وأمريكا . والهمج لقلة أجورهم سيطردوننا من أسواق العالم كما رأينا من مزاحمة قطن السودان لقطننا . وقد عرف القارىء مما ذكرناه آنفاً أن الأمم جميعها كانت فى جاهليتها أى فى همجيتها تعرف الأدب . ولكنها لم تعرف العلم أو الصناعة اللذين هما التوأمان لرقى العصر الحاضر

الحياة الميكانيكية

أحياناً وأنا على الترام آخذ فى التأمل والتفكير فى هذا المفتش الذى يتناول منى التذكرة فيمزقها ثم يعيدها إلى . فأتخيله عندئذ كأنه عروس خشبية كبيرة لاتصفق بيديها كما هو دأب العرائس التى نشتريها لاطفالنا بل تقطع الورق بأصابعها

ولكن فى حياة المفتش من التنقل من ترام إلى آخر مايجعل حركته أشبه بالحياة من حركات

بعض الناس . فهناك مثلا البواب الذى لايحتل من هذه الكرة الارضية سوى ماتقل مساحته عن متر أو مترين يقضى حياته فى فتح الباب وإقفاله واجابة السائلين عن أسماء السكان . وهناك أيضاً ذلك التذكرى فى المحطات يقضى حياته و ينفق عمره فى النظر فى قطع صغيرة من الورق الغليظ ثم يضرب الورقة فى حديد بارد أمامه و يناولك اياها ويعود فيكرر هذا العمل لمئات مئات الأيام بل مئات الاشهر

وأحياناً أتساءل : لو أن هذا التذكرى عرف حياته هذه قبل أن يولد هل كان يرضى بالدخول فى مسرح هذه الدنيا ؟

ولكنى أرانى هنا اتنطع . فاننا كلنا نعيش هذه الحياة الميكانيكية . وقد يختلف أحدنا عن الآخر انما الاختلاف فى الدرجة فقط وليس فى النوع . فهذا الموظف يقضى نحو ٤٠ سنة من عمره وهو يطبع الخطابات . وهذا الآخر يتناول كل يوم دفترا أسود كبيراً يكتب فيه شيئاً شبيهاً بما كتبه فى الامس و بما سيكتبه فى الغد . وهذا التاجر يقعد إلى مكتبه ويبيع أشياء مضى عليه أكثر من خمسين سنة وهو يبيعها

وكلنا هذا الرجل نسير فى هذه الدنيا سير الآلات الصماء وتؤدى أعمالنا اداء ميكانيكياً . وكلما زادت مزاولتنا لاعمالنا زادت الصبغة الميكانيكية لهذه الاعمال و باتت حركتنا آلية . فترانا نذهب فى الصباح إلى أعمالنا ونحن غائبو الذهن تمشى أقدامنا وكأنها تتحرك بغير ارادتنا حتى أننا أحياناً لنجفل إذا فاجأنا أحد ونحن فى سيرنا بسؤال عن الوقت ونشعر كأنه قد قطع علينا الطريق وأفسد الآلة

وهذه مأساة يكابدها كل منا وهى من الشرور اللازمة التى يستدعيها العيش.ولكن يجب ألا ننسى أننا عند مانعيش فى هذه الحياة الميكانيكية ونقصر جهدنا اليومى على مزاولة أعمالنا نتمتع بهذه الدنيا بأقل مما يتمتع به وحش الغابة أو طائر الهواء . فاننا لم نخلق لكى يسترقنا عيشنا استرقاق العبيد يحبسنا فى مكاتبنا ويربطنا الى مناضدنا و يحرمنا من رؤية هذا الكون وتملى عجائبه ودرس هذا العالم بما فيه من ناس وحيوان ونبات وعمران

فالكد والكدح للعيش شر واجب لامندوحة عنه و لكننا نحن أبناء هذه الدنيا يجب ألا نخرج منها وندرج فى أكفاننا قبل أن نفهمها و ندرسها . و لا يكون ذلك إلا باغتنام الفرص من وقت لآخر لدرسها إما عن سبيل الكتاب وإما عن سبيلها هى مباشرة . فيجب أن يكون كل منا هاوياً من الهواة له شىء فى هذا العالم يدرسه درس الهاوى المغرم بموضوع حبه وتعلقه . فمن الناس من هوى السياحة فتمتع برؤية هذا العالم ولكن السياحة بلا درس لاتختلف كثيراً عن المناظر السينماتوغرافية . وإنما الفائدة و اللذة تعودان على المرء اذا نظر ودقق نظرة الناقد الفاحص

لذلك فلا غنى لاحد عن الدرس . وما دامت لنا الرغبة فى الدرس فان الطبيعة والحضارة والثقافة لاتبخل احداها علينا بما ترغب فى درسه

ففى قطعة الحجر الذى تبنى منه المنازل فى القاهرة ما يدلك على تاريخ مصر منذ ملايين السنين وفى تشريح الارنب آلاف من العجائب التى تفتح بصيرتك فى استكناه الحياة . وفى زهرة القطن أو نورة التفاح وقائع من الغرام والعشق تعجب لها عندما تعرف احتيال الذكر لبلوغ الانثى . أجل ؛ وفى درس تاريخ الجبرتى مايقدح ذكاءك ويجعلك تلتفت الى الوراء فى تاريخ مصر وتنظر الى الامام فى مستقبلها وأنت بين الشجن والأمل ، ثم فى درس آلات الاتومبيل أو أدوات الطيارة ما يقوى خلقك ويحرثك على استعمال ذكائك فى أشرف ما يستعمل فيه ذكاء وهو الاكتشاف والاختراع

بمثل هذا تتطعم الحياة ويلذ لنا العيش ونخفف عناسام المزاولة اليومية لاعمال قد تكررت علينا حتى صرنا نؤديها وكأننا آلات صماء أو كأننا عرائس خشبية لها اجرام ضخمة وألوان مختلفة

أفخر الاثاث

منذ مدة نشر أستاذ انجليزى كتابا عن مقياس الكفاية فى العائلات . فقال ان أفضل ما تقاس به العائلة هو مقدار الاثاث فى منزلها ونوعه . فان الانسان اذا وقف أمام صورة معلقة على الحائط استطاع أن يحكم على صاحبها ويعرف منها درجة ذوقه وثقافته . فهناك من يعلقون صورة بطلة من بطلات السينماتوغراف وهناك أيضا من يعلقون صورة لفينوس ربة الجمال عند الاغريق وفرق عظيم بين هاتين العائلتين . ثم هناك أيضا عائلات لا تعلق على جدران منازلها أية صورة كأن الفنون التى مضى على الانسان نحو عشرة آلاف وهو يحاول أن ينقل اليها هواجس نفسه وعواطفه وعقله لم تخلق لها أو كأن هــــذه العائلات تعيش فى بداوة خاصة بها مقصورة عليها فى وسط الحضارة العظيمة التى نعيش الآن بين ظهرانيها ونتقلب فى نعمتها . وقد يكون هذا الاستاذ مصيباً أو مخطئاً ولكن الواقع أننا نحكم على درجة الناس ومركزهم الاجتماعى بأثاث بيوتهم فلا نبالى بالرجل كم يملك من الارض أو العقارات اذا لم نجد بيته مؤثثاً منجداً على الطراز الذى ندرك منه حضارة أهل البيت وثقافتهم . ولكن أثاث المنزل يتفاوت وأفخره وأدعاه الى تقدير أصحابه هو المكتبة

فالمكتبة هى أفخر ما فى البيت من أثاث . فان المقعد الجميل والمنضدة الملبسة بالصدف والصورة الفخمة والسجاد الفاخر الذى حاكته الأيدى الفارسية والستائر السرية والثريات المتلألئة كلها تدل على الذوق العالى والتبصر الحكيم لاصحاب المنزل ولكن أفخرها كلها وآنسها للضيف

أو لرب البيت هو المكتبة فان المكتبة أثاث حي يؤنسك ويستجيب لك ويلبي شهواتك العليا فأنت تنظر الى قطعة الأثاث الجميلة فتغذو عينك بجمالها ويلذ لك رؤيتها ولكن الكتاب ليس جميلا فقط بل هو يتسرب الى ذهنك فيجعل ما تملكه من هذا الكون ملكوتا عظيما ويبسط نفوذك إلى أوسع مدى يستطيعه هذا الذهن ويكبر شخصيتك حتى تملأ هذا الفضاء كله وحتى ليس به مكان يخرج عن استعمارك واحتلالك . فأنت بكتب التاريخ مثلا لا تقصر عمرك على سبعين أو ثمانين عاما تعيشها على هذه الارض بل تذهب بخيالك الى ملايين السنين الماضية وآلاف السنين القادمة فتشعر عندئذ بكبرياء وعظمة أنت جدير بهما لانك تاج التطور ولان جميع الاحياء على هذه الارض دونك فى هذه الذاكرة التى جعلها الكتاب تمتد بنا الى ملايين السنين الماضية . ثم انظر فى كتب السياحة أو العلوم أو الآداب أو الأديان تجد نفسك تشرئب وتتطلع الى حقائق هذا الكون وذهنك يلتمع بالخواطر والافكار التى تهبط على هذه الحقائق وتمسها أو تكاد فترى عندئذ انك تستعمل ذهنك فى أشرف ما يمكن انساناً أن يستعمل فيه ذهنه وهو التسلط على هذا العالم بكشف حقائقه

والمكاتب والكتب انما هى محاريب الثقافة الانسانية . وليس شك الآن فى أيامنا هذه وخاصة عند الامم الاوربية من أن الجامعة الحقيقية التى يمكن جميع الناس أن يتخرجوا منها علماء راسخين انما هى الكتب كما قال كارليل

وقد أصبح لهذا السبب من أكبر ضروب البر والعناية بالخدمة العامة أن يتصدق الاغنياء بالكتب والمكاتب المجانية

ولكن هذه المكاتب العامة لا تغنى عن المكاتب الخاصة . ففى كل بيت يجب أن تخصص أجمل غرفة لكى تكون محرابا للسكان يغشونها فى أوقات فتورهم ونشاطهم ويجدون فيها من الكتب الفاخرة لهوا وفائدة وأغراء يحول دون غوايات هذا العصر . فان المغرم بالكتب يراها مهواته يقتنيها للقراءة أو للاستشارة وينفق على تجليدها وتزيينها ما ينفقه غيره فى البطالة المفسدة على القهوات أو فى الاكباب على الشراب أو نحو ذلك من المغاوى الكبرى

ومما يذكر عن المستر رمزى مكدونالد رئيس الوزارة الانجليزية السابقة أنه وهو ينتقل من منزله الى منزل آخر وضع الحمالون أكداس الكتب التى يتألف منها جزء من مكتبته فى وسط احدى الغرف فتحطم السقف تحتها لوفرتها وثقلها وهذا خبر يروى عنه كانه احدى مفاخره

وحبذا المفخرة يفخر بها الشاب أمام اخوانه اذا دعوه الى القهوة فاعتذر بلزومه منزله لأن مكتبته أفخر أثاثاً من القهوة وآنس منها للنفس وأوفر لهواً وفائدة . وحبذا المفخرة أيضاً لربة البيت تفخر بها أمام ضيوفها وتبرهن لهم على ثقافة السكان وعلو منزلتهم . ونحن أبناء القرن العشرين قد تحضرنا وتثقفنا وارتقينا على آبائنا وجدودنا فلم نعد نقنع من المنزل بسجاده وكراسيه وموائده فان لنا كبرياء يدفعنا الى أن نحترم أكرم ما فى أجسامنا وهو الذهن بأن نغذوه بأجمل الكتب فى أفخر المكاتب

الروح الانجليزية تتطور

اجتمع منذ أسبوعين مؤتمر مؤلف من كهنة الكنيسة الانجليزية وقرر فيما قرر تنقيح كتاب الصلاة الانجليزى . فانقص منه وزاد ونقح فيه بالتبديل والتعديل . فمن ذلك مثلا انه استبدل الحب بالطاعة التى كان يفرضها الكتاب السابق على الزوجة لزوجها . ومنذ اكثر من ١٥ سنة التأم مؤتمر آخر مؤلف من كهنة الكنيسة الانجليزية أيضاً وقرر قبول نظرية داروين

ولسنا بسبيل الفحص لهذه النتيجات فاننا لسنا أهلا لها . وانما لنا العبرة لاننا نعيش فى هذا الشرق الذى يكره التبديل والتنقيح ويطلب منا أن نعيش كما كان يعيش آباؤنا منذ الف عام وان نتكلم لغتهم بلا تبديل أو تعديل وأن نعتقد عقائدهم

فهؤلاء الانجليز الذين يملكون نحو ربع الدنيا والذين هم بلا نزاع من أرقى الدول يكرهون الجمود حتى فى دينهم . فالصلاة تتطور معهم لأن روحهم تأبى الجمود كما يأباها ذهنهم.فاللغة الانجليزية التى يكتبها المؤلفون الانجليز الآن تختلف اختلافاً عظيما عن اللغة التى كان يكتبها شكسبير قبل ٣٠٠ سنة . ونزعة الآداب الانجليزية الآن تختلف عما كانت فى أيام ولتر سكوت قبل مائة سنة . والانجليزى فى معيشته الان يختلف عما كان قبل مائة سنة وأقل ما فى هذا الاختلاف انه يعيش الان بالصناعة وكان قبلا يعيش بالزراعة

فالانجليزى قد تطور فى لغته وآدابه ومعيشته وهاهوذا يريد الآن أن يتطور فى صلاته وفى علاقته بربه .وهذا يدل على انه يفهم الحياة أكثر منا وانه يفطن لأهم نواميس الحياة وهو التحول والتطور

وما احرانا نحن بان نفقه هذه العبرة . فهؤلاء الانجليز متقدمون راقون يسودون العالم ويغلبون كل من يعارضهم فى تنازع البقاء لانهم لا يجمدون ولا يلزمون حالة واحدة

ولسنا نظن انه يمكن أحد الشرقيين ان يقترح تنقيح صلاته كما يفعل الآن الانجليز وهو لو فعل لعد كافرا وبات بذلك طريد اهله وملته . ولكن هذا لا يمنعنا من أن ننشد التطور فى النواحى الاخرى لحياتنا الاجتماعية والاقتصادية . فنحن الآن مثلا على أبواب نهضة كبيرة تنقلب فيها معايش الناس من الزراعة الى الصناعة ومن الادب الى العلم كما انقلبت فى تاريخ الانسان الماضى قبل سبعة آلاف سنة من البداوة الى الحضارة . فاذا لم تتمش مع هذه النهضة واذا لم يقبل شبابنا على الصناعة ويضع من الان أسسها الوضيعة سبقنا العالم فلا نستطيع عندئذ اللحاق به . ثم هذه الزراعة التى نمارسها الان فى حقولنا قد عرفها الهمج فى العالم وصار الغربيون يمارسونها فى الأراضى البكر على مساحات واسعة يزرع الواحد منهم نحو خمسين أو ستين فدانا ولا قبل لنا نحن أن نزاحم هؤلاء بزراعتنا . وعلى ذلك يجب أن نعرف ان زراعتنا مقضى عليها اذا لم نجعلها فنية قائمة على الفواكه والخضروات وصناعية قائمة على الغزل والنسيج والتجبين

فزراعتنا يجب أن تتطور حتى تكون صناعية . ثم هذا الأدب الذى يمارسه شبابنا هو أدب بال قائم على الألفاظ والزخارف فيجب أن يتطور حتى يصير أدباً علمياً غايته البحث عن معايير جديدة للحياة والسعادة

ثم معيشتنا يجب أن نتناولها بالتنقيح والتبديل حتى توافق بيوتنا شروط الصحة والجمال ، وحتى لا نحتاج إلى أن نهجرها إلى القهوات والحانات ، لكى ننسى حياتنا فيها بعض النسيان . وأيضاً يجب أن تتذكر المرأة التى هى الأم والمربية والعشيرة فنرفعها إلى مستوى المرأة الأوربية حتى تكون بذلك انساناً نأنس به فى بيوتنا ، وحتى تكون حكيمة مدبرة يمكنها تربية أولادها والاشراف على مصالحهم إذا مات زوجها

وإذا كان الانجليز لا يهيبون من التنقيح فى الصلاة التى يتقدم بها الانسان لربه فاننا يجب ألا نتهيب من التنقيح والتبديل فى معايشنا فنعمل لتحرير المرأة وتعليمها الحرف التى يمكنها أن تعيش منها ، ونعمل لحث الشباب على درس العلوم وممارسة الصناعات ، ونعمل أيضاً لحث جميع الناس على اصطناع المخترعات الجديدة فنركب الطيارات بدل الحمير ، التى كان يركبها أسلافنا ، قبل عشرة آلاف سنة ، ونخترع ونكتشف ونتقدم للعالم بحصتنا من المجهود فى ترقيته ، لأننا نعيش الآن ونحن عالة عليه ، فى الاختراع والاكتشاف . وليس ذلك إلا لأننا نلزم السنين القديمة والطرق العتيقة .

تنقيح الصلاة الانجليزية

ليس شيء أكرم عند المؤمن من صلاته ، ولا شيء يدعوه إلى الوقار أكثر من وقفة المتعبد الخاشع أمام ربه ، فاذا كان فى العالم شيء جدير بالمحافظة والجمود فهى ألفاظ الصلاة وعبارات الدين . لأن لهذه الألفاظ والعبارات من الحرمة والقداسة ما يجعل المؤمن يحرص على أن تبقى كما هى محتفظة برسمها العتيق كما تحدر من مئات السنين الماضية

ولذلك نرانا مضطرين إلى أن نعود إلى موضوع الأسبوع الماضى وهو هذه الصلاة الانجليزية التى عمد اليها الأساقفة فنقحوها وغيروا وبدلوا فى ألفاظها وعباراتها حتى تتفق وروح العصر الحاضر . وذلك لأن لهذا التنقيح مغزى جديراً بالتفهم والدرس وخاصة منا نحن المصريين .

فنحن أمة قديمة ابتدعنا الحضارة لأول ما ابتدعت فى تاريخ هذه الكرة الأرضية ، فكنا المعلمين وسائر الأمم التلاميذ . ولكننا جمدنا وخشينا البدع ولزمنا سنن الآباء ، ولم نتطور فسبق التلاميذ معلميهم وبتنا وقد تخلفنا وتقدم غيرنا . وأقرب برهان على جمودنا أننا فى العام الماضى

أحدثنا زوبعة هائلة فى فنجان بشأن طائفة من الشباب أرادوا أن يستبدلوا القبعة بالطربوش ، ثم عدنا فملأنا العالم صياحاً بشأن طلبه دار العلوم حين أرادوا اتخاذ اللباس الغربى . وفى هذاالشهر أذاع وزير المعارف منشوراً يحتم فيه لبس العمامه والقفطان على معلمى المدارس الأولية

فتأمل معى أيها القارىء وقابل مصر بانجلترا . فهناك يتجرأون على تبديل الصلاة ، وهنا لا نجرأ نحن على تبديل اللباس ، وحين يتشوف شبابنا إلى التمثل بالغربيين ويطمحون إلى المساواة بهم نكبت فيهم هذا التشوف وهذا الطموح وتضطرهم إلى لزوم اللباس الذى كان يلبسه أجدادنا وأجداد أجدادنا

هناك فى انجلترا يقول برنارد شو ان الأمة الحية يجب أن تنقح دياناتها مرة على الأقل كل عام . ويعمد الأساقفة الى كتاب الصلاة المقدس الذى تضعه العجوز الهرمة تحت وسادتها فى الليل وتقرأه فى الصباح فينقحونه ويبدلون فى معانيه وألفاظه ونحن نصيح ونولول اذا غيرنا اللباس

وليس ذلك فقط : بل فى العام الماضى اطلق فى مصر على اليهود والنصارى صفة الكفار . وكانت الحجة فى اطلاق هذه الصفة انها قديمه يعرف بها النصارى واليهود منأكثر من الفعام

فلهؤلاء الذين يبالغون فى احترام القديم نقول : انظروا الى الأساقفة الانجليز واحفظوا عنهم دروساً فى المدنية . فان هؤلاء الأساقفة وجدوا أن صلاة التعميد تذكر غضب الله وانتقامه فمحوا ذلك واستبدلوا بهما ذكر الحب والرحمة ووضعوا البركات فى مكان اللعنات . ووجدوا أن صلاة العرس تقتضى الطاعة من الزوج لزوجها فمحوها ووضعوا فى مكانها الحب والتعاون

ومنذ نحو ٣٠ سنة حين اعتلى ادوارد السابع عرش أجداده ورأى فى صلاة التتويج الانجليزيه مايجرح عواطف البابا والطوائف الكاثوليكية عمد الى الاساقفة فطلب منهم تنقيح هذه الصلاة حتى توافق روح العصر وتعمل للوئام وتضع الحب والرحمة مكان البغض والانتقام . وقد استجاب الاساقفة لهذا الطلب الشريف

ويستفاد مماتقدم ان الامم الراقية تتطور ولا تبالى باصطناع البدع حتى فى صلاتها وهى أقدس ماعندها تحول فيها وتبدل لكى توافق العصر الحاضر فيجب أن نعتبر نحن بذلك ونرضى بالبدع فى الصناعة والزراعة واللباس والمسكن حتى تتفق معيشتنا فى القرن العشرين مع أهل القرن العشرين . ويجب أن نذكر أنه لو كان كل انسان يلزم مسلك أبيه لما خرج الانسان من الغابة ولما عرف حضارة أوزراعة . فان الرقى يقتضى ابتداع البدع الجديدة والايمان بأن الخلف خير من السلف وان الابن يبذ أباه فى الاخلاق الفاضلة والعلم الصحيح والثقافة الواسعة . واذا كان لجدودنا إحن قديمة فليس من واجبنا أن نذكرها ونخلدها وانما الواجب أن ننساها أو نتناساها ونعيش مع الناس . أجل ، مع جميع العالم بالحب والوئام كما هو مفهوم من التنقيحات التى وضعم

الاساقفة الانجليز للصلاة لانه بهـذا وحده يحبنا العالم وندخل فى زمرة الامم المتمدينة نعمل لرقى العالم كله كما يعمل العالم لرقينا بالمخترعات والمكتشفات التى نستعملها وليس لنا فيها فضل الاختراع أو الاكتشاف

مارى

فى سنة ١٨٨٣ ماتت فتاة روسية تدعى مارى بشكير تسف وهى فى الرابعة والعشرين من عمرها بعد أن أكل التدرن رئتيها وبرزت أضالعها كالقفص الفارغ

وللتدرن من الآلام البطيئة مايبعث السأم فى النفس ويدها عن ضروب التمتع ويحبب اليها الموت ولكن مارى كانت بعكس ذلك تحب الحياة وتشتهى البقاء . وقد تركت فى مذا كرتها اليومية صورة قوية لهذا الجوع الذى كان يحثها على أن تلتهم العالم التهاماً وهذا العطش الذى كان يدفعها إلى أن تذوق حلو الحياة ومرها . وهى فى اشتهائها للبقاء لم تكن تخضع لشهوات الدنيا بل كانت تسمو وتتشوف إلى أرفع ما فى هذا العالم من مطامع وأغراض

كتبت مرة فى مذكراتها تقول : « يبدو لى أنه ليس هناك أحد يستطيع أن يحب كل شىء كما أحبه — يحب الفنون الجميلة والموسيقى والرسم والكتب والاختلاط بالناس واللباس والترف أوالتقزز والهدوء والضحك والدموع والحب والحزن والادعاء والثلج والشمس . . . انى أحبها كلها وأعجب بها كلها . . . . وأحب أن أرى هذه الاشياء بل أمتلكها وأعانقها وأندمج فيها ثم أموت فى طرب هذه اللذة (لانى لابد أن أموت بعد سنتين أو بعد ثلاثين سنة) حتى أعرف سر هذا الختام بل سر هذه البداية »

وكتبت مرة أخرى تقول : « انى أحسد العلماء حتى أولئك المهزولين الذين يكسو وجوههم الشحوب والقبح »

وتصحيح مرة أخرى فى مذكراتها حين تقول : « ما الزواج وولادة الاولاد ؟ أليست الغسالات أنفسهم يقدرن على ذلك ؟ »

وهذه القطعة الاخيرة تدل على أن مارى قد احتقرت أشياء لم تكن دون ماتحب من حيث لذة الاختبار وبلوغ السعادة وربما كان احتقارها هذا علة كبرى للاسى العظيم الذى كان يتملكها ويملأ أحياناً فؤادها غضباً وحنقاً

وقد كان يقال أن الصحة تاج على رءوس الاصحاء لايراه إلا المرضى . وكذلك يمكننا أن نقول من مثال مارى هذه ومن مثال باربيون الذى سبق فذكرناه على هذه الصفحة أن الدنيا جميلة

لايرى جمالها الا من أوشكوا أن يغادروها . ففى كلتا الحالتين نرى أن باريبون ومارى يتعلقان أشد التعلق بالحياة يريدان أن يستوعبا كل مافيها من لذة أو متعة كما يريدان أن يختبرا خيرها وشرها و يقفا على كل مايمكن علمه من علومها وآدابها وفنونها . وما ذلك الا لانهما عرفا ان المرض يوشك يقطع بينهما وبين هذه الدنيا فانكبا عليها وانغمس فى درسها وفهمها

وما أحرانا ونحن بعد فى صحتنا ان نعرف لهذه الدنيا قيمتها فنقبل عليها ونتمتع بها فندرس علومها ونسيح فى ارجائها ونستكنه أسرارها قبل أن يحملنا هذا التيار الجارف الذى يحمل جميع الاحياء الى محيط الأبدية . وانما يكون اقبالنا عليها ونحن بعد فى شبابنا قبل أن تستولى الشيخوخة علينا وقبل أن تكون لنا عادات تمنعنا من هذا الدرس والتمتع . ولكن يجب ألا ننسى أن التمتع ضروب عالية وسافلة . فمن الناس من يتمتعون بالنهم للطعام أو النوم بعد الظهر أو نحو ذلك من الملاذ التى كان باريبون ومارى يترفعان عنها و يجدان ان الحياة أقصر من أن تنفق ساعاتها فى مثل هذه الملاذ الخسيسة . فان النوم يضعنا فى صف النبات من حيث الوعى بهذا العالم و يغيب أذهاننا التى هى أقوى أدوات تمتعنا فيجب لذلك أن نأخذ منه بأقل مقدار يكفى لصحتنا أما النهم فأليق بالحيوان منه للانسان .

وخلاصة القول اننا ما دمنا نعيش فى هذا العالم فاننا يجب أن نتمتع به وأن نتأنق فى تمتعنا حتى لا نخرج منه الا وقد شبعنا مما فيه من اللذات السامية ووقفنا على ما يمكننا من أسراره . و بعبارة أخرى يجب أن نحيا على الأرض لكى نعيش ونختبر ونتعلم لا لنقضى عليها حياتنا فى سبات الغفلة كأننا نوع من الأشجار

وكذلك يجب أن نحذر تلك الحياة الضنينة التى يقصر المجهود فيها على تحصيل العيش والمبالغة فى الأثراء حتى يصبح صاحبها كأنه فرس العربة بينه وبين العالم غمامة تغم على عينيه فلا يرى إلا ما أمامه . فانما الحياة الوفيرة تلك الحياة التى يقول بها السيد المسيح تقتضى أن تتمتع بالنواحى العديدة التى تعرض لنا من هذه الدنيا . وهذه الناحية لا تنحصر فى تحصيل العيش

أعجوبة الطفولة

اذا قوبل الطفل بعجائب العالم كان أعجبها وأدعاها الى التأمل والاعتبار . فقد كان ابن سينا يعجب بالانسان و يقول ان العالم الاكبر قد انطوى فيه . وكان شكسبير يقول ان الطفل أبو الانسان . فاذا ضممنا القولين قلنا أن العالم أو الكون كله قد انطوى فى الطفل

واذا نظرنا الى الطفل من حيث انه اختراع للطبيعة ألفيناه من أغرب المخترعات . فنحن اذا

اخترعنا آلات جديدة صنعناها كلها على غرار واحد كأنها أتومبيلات تخرج من مصانع فورد . ولكن الطبيعة تخترع الأطفال وكل منها على مثال نفسه لا نظير له . فأنت اذا نظرت الى مائة طفل فكأنك تنظر الى مائة اختراع جديد ليس واحد منها يشبه الآخر

وفى كل واحد من هؤلاء الأطفال قد انطوى تاريخ الانسان لا بل الأحياء كلها فى الماضى . وأنت لو أدمنت الملاحظة وألححت فى استقراء حركاته وتتبع أصواته وبدواته لرأيته يتكشف عن أطوار الانسان الماضية طوراً بعد طور . ولكنه ليس صحيفة مطوية للماضى فقط إذ لو كان كذلك لما استحق أن يسمى اختراعا جديدا . كلا . فانما هو اختراع جديد من حيث أنه صحيفة جديدة للمستقبل

فكل طفل يأتى الى هذا العالم بشىء جديد لم يكن له وجود من قبل زيادة على ما ورثه من أسلافه . فالحيوان القديم الذى كان أحد جدودنا المحترمين مضمر فى جسم الطفل وعواطفه . ولكن الفيلسوف أيضا مضمر فى ذهنه

ومن هنا صعوبة تربية الطفل . فان العالم كله يحتفل الآن بمضى مائة سنة على وفاة رجل التربية المشهور بستالوتسى فيجب إذن أن نقول كلمة عن تربية الطفل

وصعوبة الكلام فى هذا الموضوع هى لهذا الشىء الجديد فى الطفل . لأنه لو كانت أطفالنا تخرج على غرارنا بلا زيادة لكان لنا الحق فى أن نتبسط معهم ونكسبهم كل آرائنا وننبههم الى ما عرفناه من خير وشر . ولكنهم شىء جديد فى هذا العالم قد تطورت بهم الحياة طوراً جديداً وعبرتنا اليهم مرتقية صاعدة وتركتنا فى الخلف

فنحن نقف بازاء الطفولة الجديدة موقف الجهل فكيف إذن نربى الأطفال ونكسبهم آراءنا واعتقاداتنا ؟ اننا اذا فعلنا ذلك كان افتياتنا على الطبيعة عظيما جدا لأننا نحاول بذلك أن نصوغ هذا الطفل الذى هو العالم الأكبر على غرارنا كأننا نحن غاية التطور وتاجه وكأن ليس فى ابداع الطبيعة أحسن منا ولا أرقى وكأننا نعرف ما أضمرته الطبيعة لمستقبل الانسانية كلها فى هذا الطفل فتتغلغل الى ضميرها ونحاول أن نتقحم فى أغراضها وغاياتها

كلا . فانما التربية الحقيقية هى أن نقف من الطفل كما قال كوربتكين موقف التعجب فقط لا نمس أغراضه أو آراءه الا بالاحتياط الشديد حتى ينشأ على طابع نفسه وعفو طبيعته . وانما علينا فقط أن نغذوه كما نغذو الشجرة نهىء لها الوسط الذى تبلغ فيه أعلى مقدار من نموها بدون أن نعوق غصونها بوضع الحواجز والعوائق

فلنهىء للطفل غذاءه بل غذائيه : غذاء الجسم من الطعام السليم وغذاء الذهن من الثقافة الحسنة . ثم بعد ذلك نتركه لكى يختار جسمه وذهنه من هذين الغذاءين ما ينموان بهما و يزكوان

فى نموهما . وليس لنا بعد ذلك أن ندخل فى أخلاقه نقومها ولا فى آرائه نمليها عليه ولا فى اعتقاداته نغرسها فى قلبه فان ذلك كله بمثابة وضع الحواجز لغصون الشجرة والاعتياض من عفو طبيعتها تكليفها شكلا خاصاً لم تقصد اليه

ومن الجناية أن نقوم أخلاق الطفل لانه ليس عندنا ما يثبت انه معوج يحتاج الى التقويم ولا من الانصاف أن نملى عليه رأياً قد يكون مضمراً فى نفسه الجديدة ما هو أصوب منه وأسد وليس من الحق أن نغرس فيه عقيدة قد يأتى هو بخير منها . فواجبنا إذن أن نتركه ينمو حراً نزوده بما يشتهى من غذاء صحيح سليم نعرض له ثقافة الأمم كلها يختار منها ما يشاء أما العقائد والآراء فيجب أن يترك فيها حراً حتى يأتى فيهما بالجديد فتتطور روح الانسان بذلك كما يتطور جسمه

ويجب أن نتذكر اننا مهما حاولنا تنشئة الطفل فى حرية الرأى والعقيدة فانه سيتلبس بحكم وسطه ولغته وثقافته بآراء الغير وعقائدهم فالجديد فيه سيكون مع ذلك قليلا . ولكن هذا القليل ثمين جداً اذا نظرنا اليه فى ضوء التطور فان العالم لا يتقدم بما يرثه الخلف عن السلف بل بما يجدده الخلف على السلف ويرتقى به عليه

فالطفل هو العالم الاكبر فلنحذر إذن من أن نفتات على هذا العالم الاكبر بأن نملى عليه طريق تطوره ورقيه

فضل الجراءة

قرأت فى إحدى الصحف ان الذين قتلتهم الطيارات منذ الهدنة الى الآن لا يقلون عن ألف نفس . وهذا عدد عظيم ولكن الأمم العظمى لا تكف مع ذلك عن انشاء الطيارات ولبعضها وزارات خاصة بالطيران وهذا وزير الطيران الانجليزى قد قام هو وزوجته برحلة جوية من انجلترا الى الهند وعاد منها الى بلاده فأكبرت فعله جميع الصحف

والناس فى هذه الدنيا اثنان . واحد يخاف — ويخاف جداً — فيتقى المخاطر بل شبه المخاطر فتراه اذا أوشك أن يموت وقف أمواله على أبنائه اطمئناناً عليهم واحتياطاً لهم حتى لا يبددوا ما جمع . وواحد يخاطر لا يرى معنى للحياة الا مع الاقدام والجراءة فهو يركب الطيارات ويرتفع بها فوق السحاب

والناس بعبارة أخرى أمتان : أمة تنشىء وزارة أوقاف خوفا من أخطار الحياة على أبنائها وأمة تنشىء وزارة طيران حباً فى أخطار الحياة . وعند الاولى لا يموت أحد من الاوقاف بل

يعيشون كلهم عيشة طويلة ولكنها وضيعة ضنينة . وعند الثانية يموت ألف نفس ولكنهم يرون الدنيا من فوق السحاب ويعيشون عيشة قصيرة وفيرة ويعلنون مجد الانسان بالاختراع والجراءة ونقول بعبارة أخرى ان الانجليز ينشئون وزارة لركوب المخاطر ونحن ننشيء وزارة لكي نتجنب بها شبه المخاطر . فأينا أعرف بحقيقة الحياة نحن أم الانجليز وأينا يجرى على نواميسها ؟

ان فى القاهرة على بضع خطوات من إدارة هذه المجلة متحفاً جيولوجياً للحيوانات التى كانت تعيش فى مصر ثم انقرضت منها . وهناك يرى الزائر أحافير هذه الحيوانات وعظامها . وهو اذا عجب فانما يعجب لجراءة الطبيعة التى لا تحتاط ولا تحذر بل تغامر وتخاطر فى سبيل اختراع الانواع الجديدة من النبات والحيوان . فالصحف تذكر ألفاً قتلتهم الطيارات ولكن يجب أن نعرف انه قد مات عشرة أمثالهم منذ اختراع الطيران الى الآن . ولكنهم بمغامرتهم التى أودت بحياتهم فتحوا مملكة بل ملكوتاً جديداً للانسان وغزوا السماء وجعلوا حياة الناس وفيرة المتع والملاذ العليا . والطبيعة تغامر وتخاطر أيضاً فى سبيل الاختراع ، وقد انقرض فى مغامراتها هذه عشرات الآلاف من الحيوان والنبات . ولكنها لولا هذه المغامرات لما نشأت أنواع جديدة بل لما نشأ الانسان نفسه . فالطبيعة لا تعرف الوقف ولا تحبس خيراتها على أحد الانواع لكى يعيش مهما طرأ عليه من فساد بل هى تعمل للمخاطرة والمزاحمة وتبيد العاجز ولا تبقى غير الكفاة القادرين . وما أحرانا نحن أيضاً أن نجرى على سنن الطبيعة فلا نحمى العاجز اذا كان لا يحمى نفسه . وبعد فأيهما أشرف فى نظرك أيها القارىء وأيهما أنفع للانسانية : أولئك المغامرون المخاطرون فى سبيل الرقى الانسانى يغزون له السماء ويهلكون فى ذلك . أم أولئك الوادعون يهنأون بالعيش الضنين من وقف حبسه عليهم آباؤهم وجدودهم ويعيشون بذلك العمر الطويل

لو كان الغرض من الحياة الاطمئنان والدعة لكانت وزارة الاوقاف أنفع للانسانية من وزارة الطيران . ولكن الحياة بطبيعتها مغامرة مخاطرة لا تبالى بمن يهلك فى سبيل غايتها . فنحن يجب اذن أن نتمشى ونواميس هذه الحياة فنخاطر ونقتحم فى ميدان الافكار . وما أحوجنا الى الاقتحام فى ميدان الافكار . وهذا الاقتحام نفسه قد يجرنا الى الخطأ ولكن خيراً لنا أن نخطىء ثم نصلح أخطاءنا من أن نركد فلا نفكر ولا نخاطر . وقديما قال هكسلى : « قلما يبلغ الحقيقة من لا يرضون بتجاوز الحقيقة » وهكسلى من الذين صاغوا الفكر الانسانى فى القرن التاسع عشر وكان عاملا كبيراً فى تطوره بهدايته الى حقائق جديدة . وهو بعبارته هذه يعنى ان من لا يتجرأ على التفكير ويخشى الشطط لا يقتحم ولا يخاطر فانه لن يهتدى الى الحقيقة . وهذا حق , فان جميع الحقائق العلمية الراسخة الآن كانت فى بدايتها ظنوناً وفروضاً تتنازع الفكر الانسانى مع ظنون وفروض أخرى وكان كثير منها غاية فى الشطط ولكنها تمحصت بالبحث والتحرير واستقر منها المفيد . فلنتجرأ ولنقتحم ولا نجعل السلامة ديدننا بل ليكن السمو والرقى غايتنا

التفاؤل والتشاؤم

اذا نحن أهملنا من يستحق الاهمال وهو الرجل القانع بحاله الراضي بمعيشته فاننا نجدنا فى هـذا العالم بازاء رجلين أحدهما متفائل يرى الخير أو يرجوه وآخر متشائم يرى الشر أو يتوقعه

وأنت اذا راجعت هذا المتشائم وناقشته ألفيته متفائلا وان لبس السواد له وجه عابس ولـكن نفسه تبتسم لانه هو فى الواقع لا يتشاءم إلا لأنه يطمع ويرجو ويرى فى الامكان أفضل مما هو كائن ولـكنه يرى من العوائق ما يحول دون تحقق الرجاء . فهو يغضب ويعبس لا لأن الطبيعة البشرية سيئة قد تأصل فيها السوء اذ هى لو كانت كـذلك لما كان ثم مجال للتشاؤم أو الغضب فنحن مثلا لا نغضب من الرصاص الذى لا يستحيل ذهباً ، وانما هو يغضب لأنه يرجو التحسن فيجد عوائق تمنع هذا التحسن

فالمتشائم متفائل من حيث لا يدرى تتشوف نفسه الى الرقى والعلا وتشوفها هذا دليل على ما فى النفس البشرية من الخير والرجاء لأن نفسه هى مع تشاؤمه نفس انسان وما فيه من رجاء وتسام نحو الرقى يرجعان الى ما فى هذه الطبيعة البشرية التى يتشاءم هو بها عندما يفكر فى مستقبلها ويرجو من خير ورجاء

ومعنى ذلك ان المتشائم والمتفائل يرجوان الخير ويتساميان الى الرقى بفرق واحد وهو ان الاول يرى ان العوائق كـثيرة تمنع تحقق الرجاء والثانى يرى ان هذه العوائق يمكن تمهيدها

وهذا الرجاء وهذا التسامى كلاهما برهان على سمو الطبيعة البشرية وانها غير قابعة بحالها بل ترمى على الدوام الى ما هو أسمى منها تريد أن تنسلخ من ثوبها القديم راجية أن تتجدد فى ثوب جديد . وهذا المتشائم الذى يعبس للدنيا ويسيء الظن بالانسان يحسن به الظن أيضا من حيث لا يدرى لانه ينتظر أكـثر مما يراه منه . ومعنى ذلك كله ان الرقى فى الانسان هو حقيقة منشودة ان لم تكن حقيقة واقعة . لان الطبيعة لم تغرس هذا الرجاء فى قلوبنا عبثاً وانما غرسته لـكى تدفعنا على الدوام الى التجدد والتطور . وما هذه القناعة التى يصاب بها بعضنا إلا نوع من المرض يشبه تلك الراحة التى تلى الاعياء الشديد أو تسبق الموت الأخير . فهى حال غير طبيعية فى الانسان قد تصاب بها أفراد أو أمم وعندئذ تحق عليهم كلمة الفناء

فأما حال الانسان الطبيعية فهى ذلك الرجاء الذى يتوهج بالصحة والسرور والنشاط أو ذلك الاستياء المقدس الذى يدعو صاحبه الى الغضب وكراهية الواقع مع محاولة تحقيق الامانى والأحلام

ونقول بعبارة أخرى انا اذا استكنهنا روحنا و بلغنا منها اللباب نجد أننا أبعد ما نكون عن الجمود وأشوق ما نكون الى الرفعة والسمو وان تاريخنا فى المستقبل لن يختلف عن تاريخنا فى الماضى من التطور من أدنى الى أعلى . وذلك لأن فى كل منا غريزة للرجاء لا تقل عن أية غريزة اخرى قوة ودفعا للنشاط . وفى كل منا أيضا شهوة للتطور لا تقل عن أية شهوة أخرى بل يبلغ من قوتها أحيانا انها تدفعنا الى التضحية بأنفسنا أو الى مكابدة العذاب لأجل تحقيق غاية قصدت اليها الحياة عن سبيلنا

وبهذه المناسبة أذكر قولين لعظيمين من عظماء البشر أحدهما بولس الرسول المسيحى المشهور . فقد وصف هذا الرجل الأمم الوثنية التى زارها بانها لا رجاء عندها وكان بالطبع يقيس رجاءها بما فى نفسه من الرجاء الكبير للمسيحية وهى بعد فى فتوتها التى تغلبت بها على هؤلاء الوثنيين اليائسين. والثانى هو برنارد شو الأديب الانجليزى المعروف إذ يقول ان الدرامة الصحيحة لا يمكن أن تكون مأساة لأن فى الحياة من الرجاء ما يجعل كل مأساة سخيفة بعض السخف ولذلك فاننا لا نطيق رؤية المأساة البالغة إلا فى صورة « أوبرا » أى درامة موسيقية وذلك لكى يغفل ذهننا عما فيها من سخافة بما فيها من طرب الموسيقى . فكيف إذن نتشاءم بالحياة وفى نفوسنا غريزة الرجاء ؟

هل نحن اوروبيون ؟

مما يؤسف له أكبر الأسف أن الجامعة المصرية لم تستطع اغراء الأستاذ اليوت سمث للقدوم الى مصر والتدريس بالجامعة . فقد بخلت عليه حكومتنا بخمسمائة جنيه مع أن مثل هذا الرجل لا يضن عليه بمال وخاصة بالنسبة الينا نحن المصريين . فاننا أمة نحتاج الى الدعاية فى أوروبا لتحسين سمعتنا عند الأوروبيين ورفع مقامنا فى عيونهم وليس فى العالم رجل رفع من شأننا وجعل لنا المقام الاول فى التاريخ مثل اليوت سمث

كان اليوت سمث قبل عشرين سنة أستاذاً فى مدرسة الطب بقصر العينى وكان يدرس الجماجم المصرية القديمة ويقابلها بالجماجم الحديثة فى مصر وأوروبا وآسيا ، وكان التشريح درسه الاصلى ولكن هواه كان فى المصرلوجية ينقب عن الآثار ويبحث عن جماجم أسلافنا ويقيس رءوس الفراعنة ويستقرىء أدوات مصر القديمة وآلاتها . وفى أحد الايام حوالى سنة ١٩٢٠ التمع بذهنه خاطر غريب ، وهو ان المصريين أول من عرفوا الزراعة والحضارة فى العالم وان الآثار الحجرية التى توجد الآن بانجلترا أو بالهند أو بأمريكا هى من آثارهم بالذات أو بالثقافة المنقولة عنهم

وهذا الخاطر الغريب قد صار علماً يتباحثه العلماء فى جميع أقطار الارض المتمدينة وصارت له كتب ضخمة ومختصرة قرأت أنا وحدى منها الى الآن ثلاثة كتب وسأوالى القراءةفىهذاالموضوع الى يوم أموت . وذلك لا لأنى أجد فى هذه الكتب علماً صحيحاً وكشفاً عظيما لتاريخ الانسان فقط بل لأنى أشعر فيه من الارتياح بل الزهو ما يجعلنى أنبسط لقراءة هذه الكتب الجديدة وأهش لهذه النظريات الرفيعة

وكيف لا أزهى ، بل كيف لا تزهى أنت أيها القارىء المصرى عندما تعرف أن الاقدار قد اصطفتنا من بين أمم العالم كله لكى ننشر على الناس مبادىء الحضارة ونخرج الانسان من بداوة الغابة والصحراء الى الزراعة والصناعة ونخطط أول المدن ونرسم أول الحكومات ونخلق أول الآلهة ونستنبط النحاس والذهب وننحت الحجر وننشىء علمي الكيمياء والفلك ونضع للناس — أجل لجميع الناس — شرائع الزواج ؟

هذا ما يقرره الاستاذ اليوت سمث هو وطائفة كبيرة الآن من العلماء وهذه النظرية ترفع من مقامنا فى عيون العلماء الذين كانوا يعتقدون اننا شرقيون منحطون لا ننتفع من العالم ولا ننفعه . ثم هى مع ذلك نظرية صحيحة يدعمها الاستقراء ويقول بها غير المصريين من العلماء

ولكن الأستاذ اليوت سمث يزيدنا وجاهة ومقاماً للتاريخ من حيث أنه يقول ان المصريين كانوا شعباً لا يختلف من حيث بنية الجسم واللون من الشعوب التى كانت تعاصره فى ذلك الوقت فى انجلترا وأسبانيا وايطاليا . وهو يقول ذلك بناء على مشاهداته عندما قابل رءوس المصريين القدماء برءوس قدماء الأوروبيين . واذا عرفت أن بعض العلماء يعتقد أن أسلافنا كانوا زنوجاً أو شبيهين بهم ، وان البعض أيضا يعتقد أنهم يمتون الى أصل مغولى أدركت قيمة هذا البحث الجديد فى الدعاية لمصر

والخلاصة ان العلماء يتجهون الى القول بأن مصر هى التى أفشت الحضارة فى العالم وأن المصريين القدماء لم يكونوا أمة شرقية ، بل كانوا أمة غربية الدم والمزاج . وان غربيتها هذه هى التى يسرت على أوربا اصطناع حضارة المصريين لأن الاوربيين وجدوا أن القائمين بهذه الحضارة يمتون اليهم بنسب الدم وقرابة العصب فلم يتوجسوا شراً من بدع المصريين بل نقلوها واصطنعوها وارتقوا بها

والآن أيها القارىء أسألك : اذا كانت الأقدار قد قيضت لآبائنا أن يثبوا بالانسان الى نور الحضارة فهل يليق بنا نحن أبناءهم ان نركد فلا نبتدع ولا نثب ؟

كلا . اننا لن نكون حفدة أولئك الجدود العظام مالم نقف فى مقدمة الأمم نعمل لخير العالم ،

كما عملوا نطوى على النية الحسنة التى انطووا عليها ونبشر بحضارة جديدة ونغامر من أجل رقى الانسان نركب الطيارات ونخترع فيها ونلتحق بتلك الشعوب التى خرج منها هؤلاء الجدود فنلبس لباسهم ونسير معهم ونتثقف بثقافتهم

اغانينا

أليق الاوصاف للاغانى التى نغنيها وأكثرها وروداً على ألسنة الكتاب حين ينعتون أحد المغنين بالبراعة والتبريز وصفهم أصواته بأنها « مشجية » . ولم يكن من العبث أو السهو اطلاق هذا النعت على أغانينا لانها على الدوام كما يدل معنى الشجى محزنة . وهذا الحزن يبدو فى هذه الالحان الممطوطة التى تشبه البكاء والعويل بحيث لو سمعها غريب عن لغتنا لاعتقد أننا نندب ولا نغنى . وقل مثل ذلك أيضاً فى الحان الموسيقى ونغماتها فانها تتساوى وأغانينا إذ هى مشجية تستثير فينا الحزن وتستخفنا الى الطرب الذى يتولد فى النفس من الاسى والشقاء . ومصداق كلامنا يتضح إذا عرفنا أن بعض المغنيين إذا غنى وكذلك بعض الناس اذا سمعه ترقرق الدمع فى أعينهم وانكسرت قلوبهم وصاحوا جميعاً « آه » وهل يتأوه الانسان الا من وجع وحزن؟ . وهذا القول يتضح أكثر اذا قابلنا أغانينا بأغانى الاوربيين وقارنا حالة النفس المصرية عقب الغناء أو الموسيقى بحالة النفس الاوربية . فالاغانى الاوربية تبهج النفس وتستخفها الى طرب الفرح حتى ليشعر المستمع أن أعصابه تتفزز ويود لو يقف ويرقص . أما أغانينا فتستخفنا الى طرب الحزن حتى لنود أن نبكى ونشعر كأننا نأسف على مافات ونخشى ماهو آت

وليس شىء فى العالم يدل على حالة الأمة النفسية من أغانيها وموسيقاها لان الالحان تعبر عن النيات المستكنة فى النفس وهى تنبع منها عفوا كما ينبع منها البكاء أو الضحك . وانما غلب الحزن و « الشجى » على أغانينا لهذا الظلم الطويل الذى قاسيناه فى أكثر من الف سنة مضت حتى أصبحت نجوانا الى الله والدهر نجوى المحزون اليائس . وانه لما يدعو الى التأمل ولا يخرج عن موضوعنا أن يتلبس « الدهر » الذى ليس فى معناه فى الاصل سوى الزمن بمعانى الكوارث والنكبات

أجل . لقد قاسينا عذاب الولاة والحكام الجائرين فى القرون الماضية حتى صرنا اذا أردنا أن نشدو ونغنى بكينا وندبنا . لان العالم يبدى لنا قاتما اذا خلونا الى أنفسنا انطلقت هذه الانفس التعيسة بالبكاء والندب وتجاوب القيثار والمزمار صدى أحزاننا فردها الينا الحاناً نكاد نحس فيها بنشيج الباكى الولهان وأهات الموجع المحزون . ولكننا نرى الآن أنه قد آن لنا أن نغير أغانينا والحاننا . وذلك لان نفوسنا التى كان يرهقها وأحيانا يزهقها ظلم المماليك العبيد من اكراد وأتراك قد

تحررت وازدهى العالم فى وجهنا بعد القتام . فجدير بنا أن تكون أغانينا مفرحة مبهجة تملأ نفوسنا تفاؤلا ونشاطاً وتجعل شباننا يتفزز الى العمل والأمل بدلا من هذه الاغانى والالحان الحاضرة التى تكرب نفوسنا وتكبتها وتشل فينا الامل وتحثنا على البكاء

ولسنا نعنى بذلك أن تكون أغانينا مقطوعات مضحكة وانما نعنى أن تكون طبق الحياة فيها الحزن والمضحك كما أن فيها الألم والفرح . لانه أذا لم تكن الحياة مهزلة فهى ليست أيضاً مأساة وانما هى درامة عادية تختلف فيها الوقائع والعواطف . ولكن كما أن المريض يجب أن يفكر فى الامل أكثر مما يفكر فى الالم كذلك يجب أن تشرب أغانينا وألحاننا الموسيقية روح التفاؤل والبهجة والرغبة فى الرقى . ولا يكون ذلك بتأليف القصائد التى كان يغنيها مغنونا الى عهد قريب فى مدح عبد الحميد وعباس وفى تلحين القصائد القديمة لابن الفارض وأبى فراس . وانما نريد من شعرائنا أن يؤلفوا القصائد من الكلام المصرى العذب الذى هو وليد ألسنتنا وقلوبنا لا من الكلام الجافى الذى دونه الزمخشرى فى معجمه قبل الف سنة . ولقد كان كونفوشيوس يقول : لست أبالى بمن يسن للناس شرائعهم بذلك أن للاغانى تأثيراً فى النفس قد يكون أبلغ من تأثير الشرائع . وذلك لان الاغنية تخرج من المغنى لحناً يتبطن النفس وتنزل كلماتها منها منزلة الطبع

فى الادب العالمى

ساء بعضهم ما قلته على هذه الصفحة من أنى أعزو تأخرنا الى اننا ما زلنا نعيش فى عصر الزراعة والأدب مع ان العالم الراقى يعيش الآن فى عصر الصناعة والعلم . وتوهم من قولى انى أحض الناس على أن يهجروا الادب وألا يتدارس سوى العلوم . وقصر هذه الصفحة يدعونى أحياناً الى الاقتضاب فلا أتوسع فى الشرح ويصعب عندئذ توقى الخلل . ولذلك أرانى محتاجا الى العودة الى هذا الموضوع بشىء من الايضاح

فهذا الادب الذى نتدارسه الآن فى مصر هو أدب منحط لا ينهض بنا لأنه لا يمس حياتنا ، وهذا أيضاً مع استثناء القليل منه الذى يحاول فيه أدباؤنا درس الحياة المصرية . وذلك لأن الأدب لا يخرج عن أن يكون نقداً للحياة ، فاذا هجر الاديب الحياة وجرى على قواعد السلف أصبح أدبه كالعدم ، وهذا كان حال الفنون فى عصر البيزنطيين و يمكنك أن ترى أثر هـــذه القواعد اذا زرت كنيسة قبطية فى القاهرة حيث ترى الصور البيزنطية على جدرانها تجرى على قواعد مأثورة فترى الاجسام جامدة لا تلين للعاطفة ولا تؤديها . ويقابل هذا الجمود فى رسم الصور عند البيزنطيين جمود شعراء العرب ومنشئيهم فى الشعر والنثر إذ جروا على قواعد مأثورة وهجروا الحياة فجمد

الادب العربى جمود الفن البيزنطى . ولهذا السبب لا تجد للقصة فى النثر أو للملحمة فى الشعر ولا للدرامة ذكراً فى الادب العربى لانه كما قلنا قد هجر الحياة . والقصة والملحمة والدرامة كلها تتعلق بالحياة . وجرينا نحن على مأثور هذا الادب فصار أدباؤنا فى واد والامة فى واد بحيث انه عند ما هبت الامة فى سنة ١٩١٩ فوجىء الادباء بيقظتها فاذا بالآية معكوسة فبدلا من أن ينبه الادباء هـــذه الامة اذا بها هى تنبههم . ومهما قيل فى ثورة ١٩١٩ فان الحق الذى لا ينكر ان أدباءنا لا فضل لهم فيها . وعلة ذلك كما قلنا ان أدبهم كان منحطا لا يمس الحياة وبالتالى لا يوقظ الامة

هذه واحدة . أما الثانية فهى ان الادب الحديث قد أصبح أدباً علمياً يعتمد على علم النفس والعمران . فهو بذلك علم من العلوم قد ترخص فيه الكاتب الى استعمال لغة العامة بدلا من أن يستعمل لغة العلم . ولكن طريقته هى طريقة العلوم وغايته غايتها . وهذا مثلا هو الادب الروسى الذى يقتدى به فى كافة أوربا و يحاول المؤلفون أن يحتذوا مثاله ليس له ميزة سوى انه أدب علمي . فهذا مثلا دستوفسكى يكتب «قصة الأبله» أو «الجريمة والعقاب» كانه طبيب شرعى يكتب تقريرا عن أحد المجانين . وهذا أيضا تورجنيف قد مارس الطب قبل أن يمارس الفن القصصى وهذا أيضا ولز القصصى الانجليزى المعروف له كتاب فى تشريح الارنب . وهذا باربيون صاحب صاحب اليوميات عالم فى التاريخ الطبيعى . بل ادباء الخيال أنفسهم مثل جول فرن وكونان دويل وجاك لندن يبنون خيالهم على قواعد العلم

فالأدب الحديث ينزع الى العلم وهو من هذه الوجهة لا يقل عن العلم شرفاً أو امتاعاً أو منفعة وان كان مع ذلك يتوسل بالعبارة السهلة و لموغ الجماهير دون العلم الذى يقنع بلغة الاخصائيين ويقتصر عليهم

فاذا أنا تأسفت على أن نهضتنا أدبية زراعيه وليست صناعية علمية كما هى فى أوروبا الآن فانما أعنى بذلك ان أدبنا ليس علميا بل هو أدب تقليدى جامد يجرى على قواعد ومحفوظات لا تتحرى بحث الحياة ولا غاية له وان أدباءنا يسيرون فى أدبهم مثل منادرة الصين الذين يستظهرون القديم ويجترونه ثم يقيئونه على الناس . وأنا مضطر هنا الى التعميم المخل لأن المكان لا يتسع للشرح فكان يجب أن أقول مثلا ان تيمور يمس الحياة المصرية وان طه حسين يجرى على أصول علميه فى ابحاثه وان عندنا غيرهما قلة تحمد طريقتهم ولكن هل هذا يمنعنى من أن أقول ان الأمم الهمجية قد تعلمت الزراعة وانها ستزاحمنا فى أسواق العالم لقلة حاجات عمالها وقلة أجورهم واننا لذلك يجب أن نعمد الى الصناعة الالية حتى نثرى ونتسع ونستعمر قطرنا هذا ؟ ثم هل هذا يمنعنى من أن أقول انه يجب أن نهجر الأدب كما يمارس فى أكثره الآن من حيث قيامه على جودة العبارة وحلاوة اللفظ واجترار القدماء وادمان التفكير فى ابن الرومى وابى تمام نكتب بلغتهم ونرطنها رطانتهم ؟

كلا انى أعتقد انه يجب أن نعمل للادب ما عمله لطفى السيد للوطنية . فقد كانت وطنيتنا شائعة أيام مصطفى كامل فى العالم الاسلامى فحددها لطفى السيد فى حدود التخوم المصرية . وكذلك يجب اخراج الأدب المصرى من الشيوعية العربية وقصره على الحياة المصرية فى القرن العشرين

تربية الفتاة المصرية

منظر الفتاة المصرية وهى فى ذهابها الى المدرسة أو إيابها منها من أجمل المناظر الطبيعية . فهناك ترى الشباب مقروناً الى الحياة والعفاف يزينه التأنق وسذاجة التلمذة لا يشوبها أدنى هم من هموم المعاش .

ونحن المصريين ليس شىء فى العالم نهتم له ونفكر فيه ونرجو منه الخير مثلما نهتم للمرأة المصرية ونفكر فى شأنها ونرجو منها الخير لبلادنا فى المستقبل . ولذلك فأبهج المناظر لدينا هو منظر الفتاة المتعلمة التى ترفع عنا عار الجهل وتؤسس لنا بيوتاً تجعلنا ننسى فى جمالها ما للقهوات والحانات من سلوى . فنلزمها مغتبطين نأتنس فيها بحديث الزوجة المستنيرة ونغذوا أعيننا وقلوبنا بمرأى الأطفال النظاف والاثاث المرتب

وانما نعلق هذا الرجاء على المرأة المصرية لأننا نجد فيها سبيل السعادة والحضارة معاً . فهؤلاء الأوربيون يسبقوننا فى أشياء كثيرة ولكن أعظم ما يسبقوننا فيه عنايتهم بالمرأة . فقد رفعوها الى مستواهم وعلموها واكسبوها جميع الحقوق الدستورية والمدنية فاستجابت هى لهذه العناية وأصبحت رفيقة الرجل وزميلته فى بيته وجعلت هذا البيت جنة تغريه بالاقامة فيه وذلك فى حين اننا لا نقيم ببيوتنا إلا سواد الليل وأوقات الطعام كأنها فنادق أو مطاعم . ثم نحن نرى كثرة الوفيات بين الأطفال عند الاوربيين فنعزو ذلك الى سوء التعليم أو عدم التعليم . ثم هذا التفاوت بين تربية الشاب المصرى التى لا تقل الآن عن تربية الشاب الاوربى وتربية المرأة التي لا تختلف أحيانا عن تربية جدتها قد يكون أحياناً كثيرة مثارا للخلاف بين الزوجين . لأن الزوجة تعاشر زوجها وتحادثه فاذا لم يتفقا فى الأذواق والمشارب والاخلاق ساءت بينهما العشرة . وهذا الاتفاق لن يكون حتى تتعلم المرأة المصرية وترتفع الى مستوى زوجها

ومن هنا ذلك الفرح الذى نشعر به كلما سمعنا بافتتاح مدرسة للبنات أو رأينا فتاة مصرية متعلمة . ومن هنا أيضا ذلك الحب الذى نشعر به الآن بعد جحود طويل لقاسم امين ، فقد فتح أعيننا وقسرنا على أن نرى العالم كما هو ووضع أصبعه على الجرح عند ما عزا تأخرنا الى جهل المرأة المصرية وحجابها .

فنحن كلنا الآن بفضل قاسم امين نرغب فى تحرير المرأة وتعليمها . ونحن كلنا الآن نعرف انه كان على صواب فى دعوته وان الذين قاوموه أو شتموه مثل الخديوى ومصطفى كامل ووجدى وغيرهم كانوا على خطأ . ونحن كلنا الآن نفرح بانتشار المدارس ونأمل فى اليوم القريب حين نرى فى مصر مثلما نرى فى أوربا القاضيات والطبيبات والمحاميات وربات البيوت المتعلمات

ولكن تربية الفتاة المصرية يجب أن نسير فيها بحذر ونرمى منها الى غاية هى أن تكون فتاة متحضرة مثقفة تعيش فى بيتها عيشة النظافة العلمية حتى لا يموت واحد من أولادها . وتستطيع أن تجارى زوجها فى تجديد ثقافته حتى لا يحدث التفاوت شقاقا . بل تستطيع اذا مات وكان صاحب متجر ان تدير متجره أو صاحب أرض أن تزرعها بدون حاجة الى وصى يأكل أموالها وأموال أيتامها . فهى فى حاجة لذلك الى تربية حديثة أبعد ما تكون عما تناله الآن فى المدارس الاولية . فان آراء لنا شرقية يوهمنا كبرياؤنا الوطنى انه يجب علينا أن نحتفظ بها فى المدارس ولو تحققنا خطأها وهذا غلط فاحش يجب أن نكف عنه . ولكن يجب أيضا أن نكف عن ذلك السخف الذى يدعونا الى تعليم الفتيات قشور الفرنسية والانجليزية .

وشر ما فى تربية الفتاة المصرية ذلك الزهو الكاذب الذى يدعو الآباء الى تعليم فتياتهن مبادىء اللغة الانجليزية أو الفرنسية لان الرطانة ببضع كلمات تدل كما قلنا على السخف والزهو لا على التربية وانى واحد من الذين عالجوا تعلم اللغات وأعرف من اختبارى الشخصى أن المعرفة اللازمة لقراءة كتاب فى الانجليزية لا تحتاج الى أقل من ٥ سنوات فى الدرس الجدى المتواصل . وأية فائدة تنالها الفتاة من اللغة اذا لم تستطع قراءة كتاب فيها

ان أول واجب على الفتاة المصرية أن تعرف لغتها معرفة جيدة وتعرف الى ذلك صناعة الطبخ وشيئا من الثقافة العامة هذا اذا كانت من طبقة العمال أما اذا كانت من احدى الطبقتين العليا أو الوسطى فانه يجب أن تنزل على قدم المساواة التامة مع الفتى

الحياة الكاملة

لن يكون الانسان سعيداً حتى تكون حياته كاملة . ولكن هذه الحياة لن تكون كاملة حتى يستوفى الانسان جميع نواحى النشاط التى فيها . ففي الحياة أثرة وايثار وجراءة وحيطة وذهن وعواطف . فاذا عنينا بواحدة من هذه النواحي دون الاخرى اختل التوازن فى كفايات الجسم فنشعر بالنقص يبدو لنا فى حزن نفسانى عميق غامض تؤثر عليه الموت أحيانا . أو هو يبدو لنا فى ميل مفرط نحو الناحية المقابلة

فمثلا قد ترى انساناً قضى حياته فى الاستسلام للعواطف يدمن الشراب والغرام . فتراه فى آخر حياته قد ركبه حزن عميق قد يبعثه الى النسك والتعبد بل الرهبانية . وقد أثبتت الحرب الكبرى انه يعقب التهور عند بعض الجنود حيطة شديدة تبدو بهيئة الرعب عند سماع طلقة العيار أو أزيز الطيارة . واحيانا ترى الرجل الذى أمضى حياته فى اقتناء الاموال يعود فى آخر عمره الى السخاء فى البرو يستريح الى ذلك لأن الاثرة القديمة فى نفسه تحتاج الى ايثار يعيد اليه توازنه . وقد تبقى بصيرته مظلمة فلا يهتدى الى علاج نفسه بالايثار ويبقى حزينا مغموما ينظر الى الدنيا وقد سقط فى يده منها

ونحن كلنا ذلك الرجل يجب أن ننظر الى عناصر نفوسنا ونغذوها كلها على السواء . فاذا كنا نستمرىء الاثرة ونعمل بجد لكى نثرى ونزداد قوة وجاها فاننا يجب أن نذكر الايثار ونعمل له بالبر والمعونه لمن حولنا من الناس لأننا مهما ظننا أننا نحب انفسنا فان حب الغير والنزعة الى الخدمة طبيعيان ايضا فى نفوسنا . فاذا نحن اشبعنا احدى العاطفتين حتى البشمة فقد أجعنا الاخرى . وعندئذ يختل التوازن فى نفوسنا ونشعر بالغم والحزن لان ناحية من نواحى نفوسنا قد اجيعت

وكذلك رجل الذهن قد يجيع عواطفه فتطمو به فجأة وقد يكون فى طموها خراب نفسه لانه لايستطيع عندئذ ان يتحمل صدمتها كلها وكذلك ايضاً الرجل العادى يقضى حياته فى هدوء يمارس اليوم عمل الامس فلا مجال عنده للجراءة أو الاختراع . فهذا أيضاً قد يشعر بتوازنه يختل لان الجراءة والاختراع من خواص الحياة

وعبرة ذلك كله اننا يجب أن نفهم من « الاعتدال » ماكان يفهمه الاغريق القدماء من هذه اللفظة . وهو أن نغذو جميع عناصر نفوسنا فلا نترك ناحية منها فى بشمة وناحية أخرى فى جوع . ويجب ان نربى أولادنا على ذلك فاذا كنا نغذو عقولهم بالحساب والهندسة وجب ألا نهمل عواطفهم من الموسيقى والرقص والرسم . واذا كنا نعودهم حب انفسهم فيجب أن نعودهم أيضا حب الآخرين

واذا نحن استقرينا احوال السعداء من الناس الفيناهم كما ذكرنا يجرون على النظر فى عناصر نفوسهم ويغذونها كلها . فقد كان جيته رجلا كاملا حتى لقد صاح نابليون عند أول رؤيته له بقوله « ها كم رجلا » وكان جيته هذا شاعرا يؤلف الشعر والقصص ولكنه كان الى جانب ذلك يبحث فى العلوم بل يكتشف فيها وكان يعشق وهو فوق الثمانين

وكان نيتشه رجل أثرة يكره الايثار فعاش طول عمره حزينا غاضباً . وكان الغزالى رجل ايثار لا يبالى بنفسه فعاش أيضا حزيناً حتى هجر الدنيا فى أواخر ايامه وعاش فيما يشبه الرهبانية . وكان أسعد لحياتهما لو اعتدل كل منهما ووقف بين الاثرة و الايثار

فشخصية كل انسان لاتكمل حتى يغذو نواحيها كلها . وأكبر ماينقصنا فى مصر ان جانب العواطف عندنا فى جوع دائم أو هو محروم من الغذا. الصالح ولذلك يعمد الى أىغذاء و يرضى به . فلا رقص عندنا ولا موسيقى ولاشعر . وكل ماعندنا من هذه الاشياء سخيف ولذلك مانعتاض منها اشياء تافهة بل احياناً مؤذية

العصر الصناعى

من كان يظن قبل مائة سنة أن الحرير سيصنع من الخشب وأنه سيتغلب على الحرير الذى تصنعه دودة القز ؟

ومن كان يظن قبل مائة سنة أن النيل الصناعى سيتغلب على النيل النباتى فى صبغ الانسجة ؟

ومن كان يظن قبل مائتى سنة أن القطار والباخرة سيقومان مقام الجواد على البرد والسفينة الشراعية فى البحر للنقل والسفر ؟

ومن كان يظن قبل ثلاثين سنة أن الاتومبيل والطيارة ستنقلان الناس الى أبعد المسافات حتى نستغنى بهما عن الحمار والفرس بل عن القطار نفسه ؟

لم يكن أحد يظن أن هذه المخترعات ممكنة . ومع ذلك فانه يباع الآن فى القاهرة أنسجة حريرية رخيصة مصنوعة من خشب التوت والقطن وهى أرخص جداً من الانسجة المصنوعة من دودة القز . وكل من يتأمل هذه الحال الجديدة لايمكنه إلا أن يعتقد أن الزمن الذى ستنقرض فيه دوذة القز قد قرب جداً . وأيضاً كنا الى عهد قريب نستعمل النيل الذى يستخرج من النبات فى الهند . وكان يزرع أكثر من مليون فدان من هذا النبات . فاكتشف الالمان طريقة جديدة لاستخراج هذه الصبغة من مركبات كيماوية فبارت الأرض فى الهند. وزالت زراعة النيل. وأيضاً كان النقل والسفر الى عهد قريب فى بلادنا بالجمل والفرس والحمار ولكن الصناعة تغلبت حتى أنك قلما تجد الآن فرساً فى إحدى العزب لان الاتومبيل يقوم مقامه ولا يتكلف تكاليفه

ففى كل ذلك نرى علامات جديدة لزمن جديد هو العصر الصناعى الذى دخل فيه العالم المتمدين . فنحن فى بداية عصر اذا لم نفهم علاماته وندرك مغزاها ونتهيأ لها فقد يقضى علينا فى تنازع البقاء الجديد بين الامم و نصبح ذكرى كما أصبحت الهكسوس فى مصر أو العرب فى الاندلس

فالواقع الذى يجب أن نفهمه أن العالم يوشك أن يخرج من العصر الزراعى الى العصر الصناعى وانه ليس ببعيد أن نرى فى حياتنا أن أحد المخترعين اخترع نسيجاً جديداً يشبه القطن و أنه لاداعى بعد ذلك لزرعة هذا النبات . وليس أيضاً بعيداً أن يستخرج الطعام من الخشب وعندئذ تلغى الزراعة من العالم كله

ولست فى قولى هذا أتمادى فى الخيال . فان السكرين الكيماوى كاد يأخذ مكان السكر لولا أن صاحبه امتنع من صنعه عندما تأكد ضرره والحرير الصناعى يباع بأرخص من القطن وحرير الدودة

أما النيل الصناعى فقد ثبت فى فوزه ومنع زراعة النيل الطبيعى فى الهند ولاتنس أن جميع العطور التى تشتريها فى القاهرة صناعية أوتكاد تكون كلها كذلك . ومعظم مانشر به من الشراب المعطر ليس فيه شيء من العطور الطبيعية

فنحن نعيش فى عصر الشأن الاول فيه للصناعة . وهذه الصناعة سائرة فى التقدم وقد تفاجئنا يوما ما باختراع يلغى ميزة القطن . وبينما الصناعة تسير فى تقدم تسير الزراعة فى تأخر لأن الهمج والمتوحشين يدخلونها ويبيعون حاصلات أرضهم بأرخص الاثمان فيطردوننا نحن المتمدينين من الاسواق لأننا لانستطيع أن نزاحمهم فى رخص أثمانهم الناتج من انحطاط أجورهم وهوان معيشتهم

لقد عاش الانسان فى العصر الحجرى فعرفت مصر النحاس فكادت تستولى على العالم كله بهذا لاكتشاف . ثم عرف البرونز . ثم بعد ذلك عرف الحديد وربما كان هو سبب هزيمة مصر . فان الدولة الرومانية التى ملكت مصر الف عام هى دولة الحديد . وعاش العالم طويلا فى العصر الزراعى وهانحن أولاء قد دخلنا فى العصر الصناعى الذى جعل الامم الاوربية الصناعية تمتلك العالم كله بصناعتها

فلننظر فى علامات الزمن ولنتعلم الصناعة ونعلمها لأولادنا

عدو الظلم والاضطهاد

من الناس من تقرأ ترجمتهم فكأنك بذلك تقرأ قصيدة سامية حوت من المعانى أشرفها ومن المقاصد أعلاها . فتقرأ وأنت فى لذة وطرب تشبه ماتشعر به عند سماع أحد الادوار الموسيقية الانيقة

وإذا كانت حياة كل منا تجرى أو بالاحرى تمشى فى طرق مألوفة معبدة لاتصطدم بصخرة ولا تقاومها موجة حتى كأنها النثر البارد فان فى حياة الابطال أمثال فولتير وجيته من الشعر والايقاع والموسيقى مايجعلنا نتصفح حياتهم ونعاود التصفح كما نعاود سماع قطعة موسيقية مطربة

ثم كلما ألمت بنا مصيبة من طاغية يطغى أو رئيس يتنطع فى السياسة أو الدين عدنا إلى فولتير فنجد فيه العزاء والدواء . فقد أمضى حياة طويلة بلغت ٨٣ سنة وهو يحارب الجور والاضطهاد ويزرع فى الناس بذور الحرية ويداور الحكام الطغاة ويمكر بهم ويطبع كتبه بغير اسمه لانه لم يكن يبغى منها الشهرة بل كان يبغي نشر الافكار والآراء ولكن الشهرة جاءته حتى أنه عندما زار

باريس فى آخر حياته كانت رحلته من سويسرا اليها فى رأى أحد الأدباء الانجليز « من أ بر حوادث القرن الثامن عشر » لكثرة من وفد عليه من الأهلين لرؤيته حتى كانت سفرته أشبه بالموكب منها بالسفر المألوف

وحبس فولتير مرتين فى الباستيل شيخ السجون ورمز الاضطهاد ونفى مرة إلى انجلترا وكل ذلك فى سبيل رفعة الانسان وتحريره من الخرافات وهدم السلطات الجائرة . ولكنه عاد من انجلترا وقد ازداد قلبه قوة وتقديراً للحرية

واذا ذكرنا فولتير ذكرنا ابتسامته التى لاتفتأ تلعب بل ترقص على شفتيه ، ابتسامة الحنان والشفقة للمنكوبين والمظلومين ، وابتسامة التهكم والتقريع للطغاة والظلمة . فقد حكى أنه عندما خرج من الباستيل بعث بخطاب لملك فرنسا يقول فيه : « أرجوك يامولاى ألا تكلف نفسك فى المستقبل نفقات مسكنى »

ولما أعياه المرض وانطرح على فراشه وأخذ فى نزع الموت حاول الذين حوله ان يستخلصوا منه اعترافا فقال لهم : « أموت فى حب الله وحب الأصدقاء لا أكره أعدائى وانما أمقت الخرافات فوضع بهذه الكلمات ناموسا جديداً للانسان

وفى سنة ١٧٩١ أى بعد أن مضى على موته ودفنه ١٣ سنة أخرج أهل باريس رفاته وحملوها فى موكب على نعش كأنه عرش يحفه الزهر ويتعالى حوله الهتاف ويسير الناس وراءه بالالآف هذا يصفق وهذا يهتف وهذا يبكى من الفرح وهذا ينشد له مقطوعة من الشعر وهذا يحمل فى يده حكمة مما فاه به فى حياته حتى اذا بلغوا الباستيل الذى حبس فيه مرتين وكان الباريسيون قد هدموه وضعوه على انقاضه وقد كتبوا فوق نعشه : « فى هذه البقعة حيث قيدك الاستبداد تقبل طاعة الامة الحرة »

ولكن يجب ألا تنسى شيئاً قاسيا مفجعا حدث فى هذه المظاهرة الحرة التى أعلن فيها انتصا الحرية على الاستبداد . فبينما كان أهل باريس يحتفلون بملك الأدب ويسيرون وراءه ورءوسهم عارية والناس فى بيوتهم يشرفون من النوافذ ويهتفون عند مرور النعش بهم ويدعون بالحياة لهذا الميت كان فى باريس شخصان اثنان يسمعان الهتاف ولا يطلان من النوافذ . وهذان الشخصان هما الملك لويس السادس عشر والملكة مارى انطوانيت زوجته

والآن كلنا يحب فولتير وكلنا يقرأ حياته كما يسمع دوراً من الادوار الموسيقية المطربة وكلنا يقرأ مؤلفاته التى تبلغ نحو التسعين وكلنا ينتفع بهذا الحكيم الذى بذر البذرة الصالحة فأثمرت فى العقول وكسرت شوكة الظلم والاضطهاد . وكلنا أيضا يشعر بشرف هذه الحياة التى أمضيت فى خدمة الانسان

ولكن ثم شيء سافل يجب ان نذكره بجانب هذا الشرف وهو انه فى سنة ١٨١٤ عند ما عادت الملوكية الى فرنسا أمر الملك فأخرجت جثة فولتير من مدفن العظماء فأحرقت بالجير وبعثرت . ولكننا مع ذلك نذكر الآن فولتير ولا نذكر اسم هذا الملك النكرة ونعجب بشهامة الاول ونشمئز من سفالة هذا الثانى

الحق والقوة

القوة هى الحق واذا كان الحق ضعيفا فليس بحق. ولبيان ذلك نقول ونضرب المثل ببريطانيا والهند فالعرف الشائع بين الكتاب وخاصة كتاب الهند يقول أن بريطانيا قوية والهند ضعيفة ولكن الحق مع الهنود لانهم ينشدون استقلال بلادهم والباطل مع الانجليز لانهم يعتدون على هذا الاستقلال

ولكن لماذا يكون الهنود ضعفاء وهم ٣٠٠ مليون نفس ويكون الانجليز أقوياء وهم أقل من ٤٠ مليون نفس ؟

ان الهنود ضعفاء لانهم يمارسون صنوفاً عديدة من الباطل فى بلادهم بين بعضهم البعض . والانجليز أقوياء لانهم يمارسون صنوفاً عديدة من الحق فى بلادهم بين بعضهم البعض . فالانجليز يتساندون ويتناصرون فيما بينهم بحيث تصير كتلتهم على صغرها متماسكة فى حين أن كتلة الهنود الكبيرة على ضخامتها تبقى متفككة . ولهذا اذا اصطدمت الكتلتان تغلبت الصغرى لمتانتها على الكبرى لخراعتها

ولكن هذه الكتلة الانجليزية الصغيرة انما تتماسك وتتناصر وتقوى لما يمارسه أفرادها فيما بينهم من فضائل . فهنالا ترى فى انجلترا التعليم العام لا يضن الاغنياء بالضرائب الباهظة وبالتبرعات العظيمة لتعليم الفقراء . بينما فى الهند تعد طبقات الفقراء نجسة أذا وقع ظل احد رجالها على رجل من البراهمة ذهب يتوضأ ويغتسل كأن الأبالسة قد لمسته . وفى انجلترا يعيش الملك فى حدود الدستور ولكن فى الولايات المستقلة فى الهند يعيش الراجوات والمهارجة وهم يقتنون الجواهر لزينتهم بمال الامة الذى كان يجب أن ينفق على تعليمها وصحتها ورفاهيتها وفى انجلترا لايقل دخل العامل الانجليزى عن مائة جنيه فى السنة فى حين أن دخل العامل الهندى قد لا يزيد على أربعة جنيهات فى السنة . وللعامل فى انجلترا بيت صحى جميل تسهر الحكومة على العناية به وتعاقب المالك اذا أساء بناءه . وفى الهند يعيش العامل فى خص من القش . فاذا طولب الانجليزى بالدفاع عن وطنه لبى الطلب لأنه يدافع بذلك عن أشياء ثمينة تمسه مساساشخصياً أما إذا طولب الهندى بالدفاع عن الهند نظر المسكين حوله فلا يجد انه يملك من هذه الهند الكبيرة شيئاً قليلا أو كثيراً ثم هو يجد أن البراهمة يغتسلون منه اذا مسوه أو خاطبوه أو وقع ظله عليهم . وبينما يعرف الانجليزى انه

إذا مرض ستعنى أمته بمعالجته ويعرف الهندى انه اذا مرض سيعنى الموت باختطافه . وبينما يعيش كل انسان فى انجلترا وهو حر فى عقيدته يعيش المسلمون والحرب سجال بينهم وبين الهندويين والدماء تسفك بينهم من أجل بقرة تذبح

فالانجليز فى الهند يدافعون عن باطل وهو الاعتداء على استقلال الهنود ولكنهم لم يبلغوا هذه القوة من الدفاع عن الباطل إلا لأنهم مارسوا الفضائل فى بلادهم حتى قام التناصر مقام التخاذل والعلم مقام الجهل والحرية مكان الاستعباد والتسامح مكان التعصب فهم لذلك أقوياء حتى فى باطلهم ولكن الهنود ضعفاء الآن فى حقهم . ولم ينزلوا الى هذا المقام من الضعف إلا لأنهم مارسوا الرذائل فى بلادهم حتى صاروا يتناحرون من أجل بقرة وصاروا يستنجسون أبناء بلادهم من أجل الآلهة القديمة التى خلقها الانسان وصاروا يضنون بالمال لتعليم اخوانهم الفقراء أو معالجتهم أو العناية بمساكنهم

وليس ضعف فى العالم إلا وهو بعيد كل البعد عن الحق . وليس حق فى العالم إلا وهو قوى . وقد تلتبس علينا امارات الحق والباطل ولكن القوة تلازم الحق على الدوام . ومن مصلحة الانسان أن تفوز القوة وذلك على الاقل لكى يخشى الانسان الضعف ويتوقاه ، فمن مصلحتنا نحن المصريين مثلا أن نعرف أن الهنود عوقبوا على ضعفهم باستيلاء الانجليز على بلادهم حتى نتوقى هذا الضعف فلا نذل عمالنا كما أذل الهنود عمالهم ولا نتقاتل من أجل العقائد ولا نترك حكامنا يستبدون بنا ولا نفتر فى المجاهدة لكى نكون أقوياء بجميع ضروب القوة من مال وجمال وعلم واخلاق

والقوة لاتقوم الا على الفضائل حتى صحة الجسم تحتاج الى ممارسة العفة والقناعة والاعتدال . وحتى ضعف الجسم يحتاج الى ممارسة الرذائل من انغماس أو تهتك أو نهم أو نحو ذلك . فما من ضعف تتهم به امة الا ووراءه صنوف من الرذائل قد مورست مدة طويلة حتى أحدثت هذا الضعف . وما من قوة تتصف بها أمة حتى القوة الجسدية الغشيمة الا ووراءها صنوف من الفضائل قد مورست أيضا مدة طويلة . فالحق لذلك يجرى على الدوام مع القوة لأن كل قوى لم يبلغ قوته إلا للزومه الحق بلزومه الفضائل التى جعلته قوياً

العالم هو الوطن

أعظم الاخطار التى تستهدف لها الامم ألا تفهم علامات الزمن وتطور الاحوال فتسير فى عصر على مبادىء عصر سابق وتتشبث بالنظر القديم للاعمال الحديثة

فلقد سبق ان كتبت هنا جملة مقالات أشرت فيها الى ان العالم يدخل فى طور جديد من العلم والصناعة وانه يوشك أن يهجر الادب والزراعة . فالعلم الآن يغزو الادب حتى صار الاديب

عالماً والصناعة تغير على الزراعة حتى صارت العزبة أشبه شيء بالمصنع وحتى صارت الاقمشة والطيوب والاصباغ تصنع الآن من غير المزروعات. فاذا لم نفهم « ما يكتب على الحائط » كما تقول التوراة ونقدم على الصناعة و العلم بكل قوانا و نحدث بيننا ثقافة ضخمة فيهما فان الامم الصناعية تكتسحنا من طريقها و يعود ذكرنا فى العالم مثل ذكر الهكسوس أو طسم وجديس أو العرب فى اسبانيا أو نحو ذلك من الامم البائدة

هذه علامة من علامات الزمن الحاضر. وثم علامة اخرى يجب ان ندرك مغزاها ونستعد لها فان الامم تخرج الآن من حدود القومية والوطنية الى وطنيه عالمية تحدد فيها سلطة الامة ويخضع فيها استقلالها لمصلحة العالم. ففى جنيف الآن مؤتمر للدول العظمي تدرس فيه مسألة تحديد السلاح البحرى وعلى ذلك ان تكون الامة فى المستقبل كائنة ما كانت قوتها حرة فى ان تزيد سلاحها البحرى. وهذه عصبة الامم تمهد الطريق لحكومة عالمية فى المستقبل القريب. وقبل عصبة الامم كنا نعرف محكمة الهاى التى كانت تفصل فى المنازعات بين دول العالم. وقد كثرت المعاهد الدولية فى العالم بعضها يبحث فى الصحة و بعضها يبحث فى الملاحة و بعضها يبحث فى شؤون العمال والعمل و بعضها يبحث فى الزراعة مثل « المعهد الدولى الزراعى فى رومية »

وكل هذه المعاهد تعدو حدود الوطن ولا تنظر لمصلحة أمة مخصوصة بل تنظر الى مصلحة العالم كله. وهذا المعهد الاخير فى رومية قد أعلن فى الصحف المصرية فى الاسبوع الماضى عن « خلو عدد من الوظائف الادارية والفنية فى مختلف أقسام المعهد رغبة فى الحصول على مرشحين لتلك الوظائف » وهو يعلن عن هذه الوظائف فى جميع انحاء العالم لكى يتقدم اليه الهندى والمصرى والسودانى مثلما يتقدم اليه الروسى والالمانى والبرازيلى. فهو معهد للعالم أنشأه رجل يهودى لكى يخدم العالم كله يبحث عن ترقية الزراعة فيه وايراد الاحصاءات و التقارير الخاصة بغلاته

فماذا نفهم من هذه المؤسسات الدولية؟

نفهم ان النعرة القومية والتمجد بالاسلاف والانانية الوطنية قد زال زمنها كلها واننا يجب ان نتشبه بارقى الامم فى الحضارة والثقافة وان نرتبط بها بل نتحالف معها لاعلى رقينا نحن فقط بل على رقى العالم كله بحيث يجب ان نسارع الى الانضمام الى عصبة الامم وان نسارع الى هدم قوى الظلام فى بلادنا تلك التى تذكرنا على الدوام بالماضى وبالاساليب الشرقية فى الحكم وبالثقافة « الاسيوية » ثقافة الالفاظ والبهرجة وتحثنا على البقاء معزولين عن العالم نتوهم لانفسنا كرامة كاذبة حتى لندافع بحرارة عن الطربوش بينما العالم المتمدين كله قد اتخذ القبعة ونحاول ان نمتلك قناة السويس امتلاكا أبدياً بينما العالم كله يصيح بحرية البحار ونخطىء علامات الزمن فنتوهم ان العالم سيسمح لنا بفرض الضرائب كما نهوى على كل سفينة تمر فى القناة كأننا أحرار فى بلادنا مع أن

النزعة الدولية الجديدة تحد من حرية الامم فى معاملة ابنائها فكيف بمعاملتها لابناء الامم الاخرى فليست أمة الآن حرة فى الاتجار بالرق أو ارهاق العمال فكيف نظن اننا سنكون احراراً فى المستقبل نتصرف بقناة السويس كما نشاء ؟

ان فى العالم نزعتين اذا لم نفهم مغزاهما قضى علينا قضاء شنيعاً . أولاهما نزعة العلم والصناعة وثانيتهما تلك النزعة الدولية التى تنظر للعالم كأنه الوطن الأسمى لكل انسان . وكلتا النزعتين لم نفهمهما للآن فعندنا أدباء لايعرفون العلوم ولا يبالون بها وعندنا سياسيون يتكلمون بلغة القرون الوسطى السياسية يعتقدون انه يجب ان نمتلك السودان وانه لا شأن لنا بعصبة الامم وان قناة السويس عندما تنقضى مدة امتياز شركتها ستكون لنا ابريق زيت يغل علينا كل عام اموالا وكنوزاً الى الأبد وهذا كله خطأ بل خطر

القرية المصرية

ليس فى العالم بلاد اشترك فيها الحظ الحسن مع الحظ السيء فى تاريخها مثل بلادنا . فبينما نرى تاريخنا مجيداً عظيما فى عصر الفراعنة أو الفاطميين نراه قبيحاً حقيراً فى عصر المماليك والأتراك . فاننا نقرأ الآن تاريخ هؤلاء ونعجب للعلة التى منعت الناس من قتل ولاتهم الظلمة مع أنهم كانوا فئة قليلة سافلة الأخلاق لاتستطيع أن تصبر على جلاد . ولكننا إذا تدبرنا الثقافة السائدة فى تلك الأيام عرفنا علة هذا الخنوع للظلم فى آبائنا ورددناه الى أصله وهو أنهم كانوا بحكم هذه الثقافة متواكلين يقولون بالخضوع لأولى الأمر والطاعة للسلطان . ونحن نحمد الاقدار الآن على ألا نخضع لأولى الامر اذا خرجوا عن دستور البلاد وأننا منذ سنة ١٩١٩ قد عرفنا أن الثورة فائدة ترد الظالم الى عقله وتنزع من الغاصب سلطانه . ولكننا مازلنا ننظر الى بعض شؤوننا نظر آبائنا مدة المماليك وخاصة فى نظرنا الى أخينا وأبينا وعمنا وابننا هذا الفلاح . فقد كان المماليك أجانب عن البلاد حمر الوجوه زرق العيون لهم فى معيشتهم وأجسامهم نعومة مزرية وكانوا ينظرون الى الفلاح المصرى كما ينظر الابيض الى الزنجى يحتقرونه ويتسخرونه لاعمالهم ويسرقون أمواله ويهتكون أعراضه من ناحية ومن الناحية الاخرى يبنون المساجد والاضرحة له ويحبسون الأموال التى اغتصبوها على الأربطة . فكانوا فى صلاحهم أشبه بالمجرم يساوم ربه على الحسنات والسيئات يقيم الاولى حتى يستطيع أن يترخص فى الثانية . ونحن وان كان حكم المماليك والاتراك الفعلى قد زال من البلاد زوالا أبدياً فان حكمهم المعنوى لايزال قائماً فى احتقارنا للفلاح والصانع ، ولذلك فان القرية المصرية مع تقدم العمران فى بلادنا وارتقاء أحوالنا الاجتماعية لاتزال كما كانت مدة المماليك اكواخاً قذرة من الطين المجفف بالشمس ولاتزال هذه الاكواخ خالية من مبادىء الصحة والنظافة ليس فيها مراحيض أومطابخ يختلط فيها مكان الماشية بمكان الناس. وبينا ينفق بعض الافراد

فى بلادنا الوف من الجنيهات فى العام لاينفق الفلاح أكثر من عشرة جنيهات هو وعائلته يعيش بها وهو فى بؤس وقذر وفاقة لازمة

وريفنا جميل تنبسط فيه الأرض بساطاً أخضر يغذو العين بنضرته طول السنة ولكن القرية المصرية تبدو فيه كالرمة البالية كدرة غبراء وبيئة لاتنزح عنها الامراض حتى ان الاجنبى الداخل لمصر يجزع لرؤيتها ولا يكاد يصدق أننا أمة متمدينة . ولقد زارنا ابن سعيد وهو شاب أندلسى مدة الأيوبيين وهم الملوك الاكراد الذين حكموا مصر فى القرن الثالث عشر فما راعه شىء بعد جمال الاندلس مقدار ماراعه منظر القرى المصرية حيث قال : « ولقد تعجبت لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ويضيق الصدر بضيق أوضاعها »

ولابن سعيد الحق فى أن يقول هذا القول عن قرانا فقد نشأ فى أوربا بين القرى الاندلسية ومن يعرف القرية الأوربية يجزع من رؤية قرانا ويهوله مافيها من قذر وكدر . فان القرية فى فرنسا متنزه جميل قد كسيت شوارعها بالبلاط . وفى هولندا تغسل الفلاحة جدران بيتها بالماء والصابون ولاتدخل الماشية من الباب الذى يدخل منه أهل البيت . ومعظم القرى تضاء الآن بالكهربائية واذا بلغ الفلاح سن الستين فى انجلترا نقدته الحكومة معاشاً سنوياً قدره ٣٠ جنيهاً

ونحن فى مصر قادرون على كل ذلك لا يمنعنا منه سوى التقاليد التى ورثناها عن المماليك والاتراك فى احتقار الفلاح والفلاحة . وهؤلاء كان لهم العذر القبيح فى أن الفلاح كان أجنبياً عنهم لايتكلم لغتهم ولا هو ناعم البشرة أزرق العين مثلهم . ولكن كيف يقوم لنا نحن عذر وهو من لحمنا ودمنا ؟

قصيدة الحياة

لقد أتاح لى الحظ الحسن أن أجالس عظيما انجليزى المولد وطنى العالم عرضت معه تاريخ حياته فكانت كالقصيدة العصماء تخرج منها من بيت سرى الى آخر أسرى وتجتاز بالموقف الشريف الى موقف أشرف وأنصع . وهذا العظيم هو السير ويلكوكس

وحياة السير ويلكوكس قصيدة لا تتخللها أدنى ركاكة أو تفاهة . عاش الى الثلاثين فى الهند وكان يشتغل بالهندسة وبشىء آخر لا يزال يشتغل به الى الآن وهو يحبو الى الثمانين أعنى به البر . فالسير ويلكوكس رجل يحترف البر منذ شبابه الى الآن كان وهو مهندس فى القرى الهندية يعالج المرضى ويغسل لهم جروحهم بيديه ويحادثهم عن المسيحية ويحادثونه عن البرهمية . وهو لايزال للآن ذلك الرجل البار القديم يعمل فى أحد المستشفيات فى القاهرة يخفف آلام المرضى وينفق من ماله القليل على أرواحهم وأجسادهم

وهو مع أنه انجليزى يؤمن بفائدة الامبراطورية البريطانية ، فانه وقف موقف الخصم لحكومته

التى اتهمته بالقذف والفتنة لكى يدافع عن مصلحة مصر فى مياه النيل . فهو انجليزى بمولده ولكنه يدافع عن الحق ولو كان على بلاده

فهذا بيت مجيد من أبيات هذه القصيدة العصماء . ولكن حياة ويلكوكس كلها جهاد فى الحق والبر وكلها تجارب سامية . نشأ فى الهند ثم قدم الى مصر فوجد الفلاحين يسخرون بلا أجر فى حفر النهر فعمل على الغاء التسخير ورفع عنا وصمة قديمة وألماً فظيعاً كان يعانيه آباؤنا . ثم انتدب فى تقرير الضرائب فسار بها بالعدل بين الملاك ثم سافر الى خط الاستواء بين الزنوج فى البحث عن مياه النيل ووضع الترسيمات للخزان وانتدبته حكومة العراق لدرس أحوال الرى فقام أيضا بهذه المهمة وهو الآن فى شيخوخته الهنية يخدم المرضى ويواسى المنكوبين

فأية حياة فى العالم أحفل من هذه الحياة بالجهاد فى سبيل الحق والخير وفى خدمة الانسان هندياً كان أم مصرياً أم انجليزياً ؟ أجل . انها حياة مملوءة بالتجارب السامية رأى صاحبها خط الاستواء وحره المزهق وناسه الهمج كما رأى ثلوج انجلترا وحضارتها الراقية ورأى الهند كما رأى مصر والعراق . وله ضمير كلما عاد اليه أذكره ببره للفلاح الهندى أو المصرى فيرتاح للذكرى ويأنس الى هذه النفس السخية التى ناداها الحق فاستجابت لندائه واصطرع فيها جو العالم وباطل الوطن فآثر العالم على الوطن . ان فى حياة معظم الناس وفى أخلاقهم من الجبن والأنانية ما يجعلنا نكره الناس ولكن فى حياة ويلكوكس ما يجعلنا نؤمن بالانسان وننظر للمستقبل بعين الرجاء حين يصير الحق غاية والعالم وطناً وخدمة الانسان الغرض الأسمى من الجهاد

وينوء السير ويلكوكس الآن بهمين ثقيلين من همومنا المصرية . الأول أن الفلاح المصرى يزرع الأرض ولا ينال أجراً يسيراً على كده وكدحه والثانى أننا لا نكتب بلغتنا المصرية العامية دون العربية القديمة . وهو يقول بوجوب تحديد الايجارات بنسبة الضرائب وأيضاً بتدوين العامية حتى يتيسر للفلاح أن يقرأ بأقل عناء . وليس شك فى أن الرجل ينوى الخير لنا فى كلا القولين . وقد عاش فى مصر أكثر من ٤٥ سنة ومارس من شؤون الفلاحة والرى ما لم يمارسه كثيرون منا وعرف الفلاح القديم الذى كان يعمل مسخراً والفلاح الحديث الذى خرج فى سنة ١٩١٩ يقطع السكك الحديدية ويطلب الاستقلال . ولكنى أنا لا أبالى بآراء السير ويلكوكس مقدار ما أبالى بحياته . فهذه الحياة يجب أن تكون قدوة لكل منا لان هذا الرجل قد عاش تلك الحياة الوفيرة حياة العمل والجهاد للحق والعدل والخدمة للناس واحتفظ بصحة الشباب فى سن الثمانين وتمتع بأرقى ما يتمتع به الانسان الراقى من التجارب والاختبارات

كيف نربى أنفسنا

نحن نعيش مرة واحدة في هذه الدنيا فمن واجبنا أن نعيش فيها أحسن عيش مستطاع نسكن أجمل المنازل ونقرأ أفضل الكتب وتأكل أشهى الاطعمة ونتمتع برؤية الاقطار المختلفة ونزداد بتقدم العمر حكمة وصحة وتجارب وعلماً

ولكننا لن نستطيع هذه العيشة ما لم نعمد الى أنفسنا فنربيها ونعودها العادات التى تساعدنا على الرقى . فان الجسم الانسانى سريع الطاعة للعادة ينقاد اليها ويؤديها عن رضى وارتياح . وأنت عندما تقرأ سيرة أحد العظماء تعجب لوفرة أعماله وتتساءل : كيف توافرله الوقت أو أسعفته صحته أوكيف أخلص له أصدقاؤه حتى أمكنه أن يؤدى هذه الاعمال كلها ؟

ولكن الواقع أن الوقت والصحة والفرص متوافرة لنا جميعاً وانما تضيع منا لاننا قد اعتدنا عادات سيئة . فهذا رجل يرجع فشله فى الحياة مثلا الى أنه يضيع كل يوم من وقته نحو الساعتين فى الركود على القهوة وهوقاعد كأنه الماء الآسن لاحركة ولاتفكير ولاهمة ، تخرج منه أنفاس الدخان فى كسل وتراخ كأنه يريد أن يموت . فهذا رجل لايتمتع ولا ينتفع بالحياة ولا ينفع غيره

وثم رجل قد اعتاد عادات سيئة فى الطعام يأكل كثيراً فينام كثيراً ويسمن ويكره الرياضة فلا يقوى على عمل مفيد . فهذا آخر يعيش كالنبات لايتمتع ولاينتفع بالحياة

وثم رجل قد اعتاد مخاصمة الناس فهو فى نزاع دائم مع كل من يعرف يقضى وقته فى قيل وقال وفى مشاغبات فى المحاكم وهو منغص مشغول فى غير شاغل مفيد طول حياته

فهؤلاء وأمثالهم قد اعتادوا عادات سيئة تقصيهم عن التمتع بالحياة بأرقى معانى التمتع . وقد يموت أحدهم فى سن الستين أو السبعين وعقله فى مستوى عقول الصبيان لم يتهذب بثقافة ولا بسياحة لوعددت ماقضاه من الوقت على القهوة فى فارغ الشؤون لبلغ عدة سنوات من عمره

فنحن اذن فى حاجة الى أن نربى أنفسنا ونعتاد منذ الصبا أو الشباب عادات تلزمنا مدى حياتنا فتزيد سعادتنا ومنفعتنا لأنفسنا ولغيرنا . وأهم هذه العادات تلك التى تحفظ لنا صحتنا مدى حياتنا فانه لاهناء ولاتمتع بلاصحة . وقد قيل ان من الناس من يحفر قبره بأسنانه لكثرة نهمه . ولكننا نعرف الآن أن الصحة تضيع بأشياء أخرى أيضاً غير الطعام منها قلة الرياضة ومنها اعتياد الشراب أو سائر المخدرات

ثم نحن فى حاجة الى اعتياد الدرس بموالاة القراءة فان الميزة الحقيقية تميز الانسان على الحيوان

الآن هى أنه حيوان مثقف، لأن المحرومين من الثقافة هم من الانحطاط بمثابة الحيوان . واذا نحن عشنا بلاثقافة لانقرأ ولانفكر فى تاريخ هذه الدنيا ومصيرها وعلومها وآدابها فاننا نعيش عيشة حيوانية فيجب أن نغرس فى أنفسنا عادة الدرس ونعيش مدى حياتنا طلبة مجدين فى جامعة الدنيا

ثم يجب أن نعتاد الرفاهية فلانقنع بالدون من أىشىء لافى المسكن ولافى الطعام ولافى الشراب والفنون الجميلة نفسها لايبعثها فى نفوسنا سوى نزعة الرفاهية بل نزعة الترف . فيجب أن نتأنق فى الحياة ونعتبر المعيشة فناً جميلا نمارسه بذكاء وذوق . والعبرة على الدوام بالنزعة فما دمنا نتأنق فى المسكن والمطعم والملبس فاننا نتأنق فيما نقرأ فلا نرضى لأنفسنا قراءة كتاب سخيف أوصحيفة خليعة كما لانرضى بأن نعمل عملا ناقصاً غير متقن لأننا نتأنق فى كرامتنا

وأخيراً يجب أن نعتاد المعاشرة الحسنة مع الناس وخاصة مع عائلاتنا حتى لا نعيش منغصين حاسدين محسودين فيذهب مجهودنا العصبى فى غير فائدة وتزيغ أبصارنا عن طرق الخير والمنفعة

وفى كل مناً غرائز حيوانية اذا استسلمنا لها انهكت قوانا واختصرت أعمارنا وعشنا بها كالبهائم فلابد من أن نعود أنفسنا عادات الاعتدال فيها حتى تتوافر لنا من أبداننا قوة تقوم بالغايات العليا من الدرس والمنفعة والتمع بالمتع الانيقة السامية التى لايستطيع الحيوان أن يتمتع بها لأنها من احتكارات الانسان وبرهان رقيه

يجب أن نرتب حياتنا بحيث نستغلها الى أقصى مافيها ولايتيسر ذلك لنا حتى نعتاد عوائد حسنة فى ادخار الوقت والمال والصحة والتوفر بها كلها على الدرس والسياحة وخدمة الناس والعمل لرقى الهيئة الاجتماعية التى نعيش بين ظهرانيها بترقية العلوم والفنون .

فى مدح اللعب

ليس من الصدف العارضة ان تكون اكثر الامم حضارة مثل انجلترا اكثر انغماساً فى اللعب وادماناً على اختراع الالعاب المختلفة . فكرة القدم التى اخترعها الانجليز قد صارت تلعبها جميع الامم فى جميع القارات . فهى تسير مع القطار أينما حل وهو ينشر التجارة والحضارة حوله كما تنشر هى طرب الحياة فى هذه الحضارة . وكلاهما مع ذلك من اختراع الانجليز

واذا نحن تأملنا اللعب الفيناه نوعاً من الفنون الجميلة فان الانسان يشعر فيه بمثل ذلك الطرب الالهى الذى يشعر به رجل الفن عند ممارسة فنه

وهو يشترك أيضا والفنون من حيث انه نوع من الترف الكمالى الذى ترتاح اليه النفس المتعبة المنهوكة : بل من الفنون ما لا نعرف تعيينه على وجه التمام مثل الرقص مثلا فاننا نحتاج الى ان نتساءل : هل هو لعب أو فن ؟ ففى الرقص ايقاع وفى السباحة ايقاع وكلاهما رياضة فنية تختلف

من حيث الدرجة فقط وكلاهما أيضا ضرب من اللعب يختلف من حيث الايقاع وتنوعه

وادمان الجد فى هذه الحياة قد يجر البلايا للافراد بل للامم أيضا . واكبر مثال على ذلك هذا البارود الذى اخترعه الصينيون قبل الف سنة ومع ذلك لم يصنعوا منه سوى الصواريخ يلعبون بها ويطلقونها فى الظلام فتنتثر نجوما مضيئة يطرب لها القلب وتهتز لها الاعصاب . وقد قنعوا فى البارود بهذا اللعب فعاشوا اكثر من الفى سنة فى سلام . أما الاوربيون فنظروا اليه بعين الجد واستخدموه للقتل فتناحروا به اكثر من ٦٠٠ سنة وكاد أخيراً يمحو حضارتهم . فالنظر الصحيح للبارود ان نلعب به فقط

وهذه الامة العظيمة امة الاغريق التى وثبت الى صفحة التاريخ ثم غابت كأنها الحلم اللذيذ لم تكن تعرف لحكومتها واجبا محتوماً يجب أن تقوم به سوى تنظيم الالعاب الاولمبية . فكانت هذه الالعاب أساس حياتها العمومية يبنى عليها تقويم السنين ويقصد منها غاية الجمال. وكان للاغريق بذلك حضارة لم ير مثلها من قبل ومن بعد . وكان اللعب مزاج هذه الحضارة فكانت لذلك الحرية تشمل جميع مؤسساتهم وافكارهم وفلسفاتهم لانهم تناولوا كل هذه الاشياء بروح اللعب فانتفى عنهم التكلف والتنطع وكانوا يعيشون كانهم يلعبون

وما أحرانا نحن بأن ننظر الى الدنيا نظر الاغريق القدماء فنجعل الجمال غايتنا ونجعل ألعابنا وسيلة فنلعب ونمارس أرقى الألعاب وهى الفنون الجميلة مثل الرقص والموسيقى وسائر أنواع الرياضة ونحس منها بطرب الحياة وحرية الحركة وحرارة اللعب

ولست أنظر الى الرياضة واللعب نظر البخيل أقصد منهما زيادة القوة وتحسين الصحة بل انظر منهما الى غاية الجمال . والصحة يجب أن تأتى عفواً بعد ذلك . ولا فائدة من الصحة اذا لم تقترن بالجمال . ولذلك يجب أن نسير فى ألعابنا كما يسير المتأنق فى اختيار الطعام يختار ماساغ وما يلذ طعمه فيكون له منه ، مع ذلك وبلا قصد ، ما يحفظ صحته ويزيد قوته

ومن ينظر الى الالعاب الاسوجية يجد أن الأمم الأوربية تتطور نحو الجمال فى ألعابها وأن القوة الجسدية لم تعد الغاية التى تتجه اليها الرياضة كما كان الحال قبلا

فيجب لذلك أن تكون ألعابنا جميلة تشمل كل طبقات الامة رجالها ونساءها وصبيانها حتى تقوم أخلاق الامة على الرشاقة والحرية والنظام لأن هذه الصفات الثلاث لازمة للألعاب الرياضية ولها مع ذلك صدى يرى فى حياة الامة اليومية . والرياضة ألزم لنسائنا منها للرجال لأن هذا السمن العظيم والترهل الكبير الذى نراه أحياناً فى أجسام النساء عندنا ليس يرجع فى الواقع إلا الى عدم اعتياد نسائنا الرياضة . ثم هذا الارتباك الذى يرى أحياناً فى مشية البعض منهن يرجع أيضاً الى العلة نفسها . فنساؤنا فى حاجة الى اللعب حتى يكن رشيقات الحركة ضامرات الأجسام مثل الأوربيات منتصبات القدود وبالجملة يكن جميلات لأن السمن والارتباك والرأس المنحنى كلها تنافى الجمال

الهند العظيمة المسكينة

ارتاع الانجليز كما ارتاع الاميركيون من كتاب الفته سيدة امريكية تدعى الآنسة مايو عن الهند تناولت فيه أحوال العائلة الهندية وعرضتها بالتفصيل على قرائها كما رأتها بعينيها مدة اقامتها فى تلك البلاد الاسيفة

وكلنا اذا ذكر الهند خطر بباله الاستعمار الانجليزى وسيئاته واستنكر أفاعيل الانجليز بالهند وود لو تقوى عصبة الأمم حتى تصير حكومة عالمية حقاً وتحكم بطرد الانجليز من ذلك القطر الذى يكاد يكون قارة

ولكن كل من يقرأ كتاب هذه الآنسة الاميركية يعرف أن نكبة الهنود ليست فى الانجليز بل هى احدى النكبات الشاملة الاقطار الشرقية وهى فى عقائد الهنود وعاداتهم وعبادتهم للماضى وفى التنطع بان للشرق حضارة تفضل حضارة العرب وفى التوهم بان للهندى كرامة يجب أن ترفعه عن محاكاة الغربى

فهذه الهند العظيمة بحجمها الحقيرة بأبنائها ما زالت ترضى بأن تحكمها أديان وعقائد مضى عليها آلاف السنين . والعالم يتقدم ويتطور مدة هذه الآلاف من السنين والهند واقفة تشرح ما قاله علماؤها منذ الف أو الفى سنة وتمارس عادات قديمة يهلك بها ملايين الاطفال كل عام وليس بين الهنود واحد يجرؤ على تسفيه هؤلاء القدماء

فهذه المؤلفة الاميركية وجدت أنه يموت من الامهات فى كل جيل فى الهند ٣٢٠٠٠٠٠ ام وقت الولادة وذلك لأن هؤلاء الامهات المسكينات يحملن وهن فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من أعمارهن إذ يتزوجن وهن فى السادسة أو السابعة وتأتى لهن مولدات يعالجهن بالرقى والطلاسم عوض العلاج الطبى الحديث

ويموت فى الهند فى كل عام ٢٠٠٠٠٠٠ طفل لأن امهاتهم لايعرفن لصغر أسنانهن كيف يعنين بهم وأيضاً لأنهن لايدركن من معنى النظافة سوى تلك الطهارة التى تقول بها أديانهم والتى تجعل روث البقر اطهر من ماء النهر وتجعل الام وقت النفاس دنسة لا يقترب منها أحد طاهر

وتتزوج الفتاة بل الصبية الهندية قبلما تبلغ العاشرة من عمرها تؤخذ من ميدان اللعب الى بيت الحريم حيث لاترى سوى زوجها وضرائرها وقد يكون زوجها فوق الخمسين . وقد ذكرت المؤلفة حوادث يقشعر لها البدن عاينتها بنفسها فى مستشفيات المجانين حين وجدت صبايا هن دون العاشرة تزوجن رجالا فى اعمار جدودهن . فلما التقى العروسان لم تتحمل الصبية المسكينة فظاعة المنظر ولا

أطاقت مايطلب منها من الواجبات الزوجية فجنت وحملت الى المستشفى تنتظر الراحة الأبدية بالموت القريب ولكن زوجها هندى مثقف يعرف السنة والفرض من عقائد آبائه ولذلك رافعها الى القضاء يطلب ردها الى بيت الطاعة . . .

والهنود أبناء هؤلاء الامهات ينشأون ضعاف العقول خريبي الاجسام لايقوون على عمل ولا يصمدون لكفاح يفتخرون بأنه كان لهم قبل الفى سنة حضارة عظيمة

ولكن الحضارة الراهنة لاتبالى بالماضى بل تفكر فى المستقبل وهى تكتسح من أمامها كل من يعارضها ولا يجرى على اصولها الصحية والاجتماعية فصير الهنود الى الفناء اذا لم يصلحوا عائلتهم ويحرروا نساءهم ويرفعوهن من ذل هذه العادات القديمة

والعالم الآن فى تطوره السريع لا يتسع للأمة الراكضة المستسلمة لما يميل عليها ماضيها بل حياة كل أمة الآن تتوقف على مقدار ما عندها من قوة للابتكار وقدرة على التحول للاوساط الجديدة . وهذه الصين وهذه تركيا كلتاهما قد عرفت أن الماضى يجب أن يدفن وأن تشق الامة لها طريقاً الى المستقبل

وهذه الهند الأمة العظيمة بماضيها المسكينة بحاضرها لن تدخل فى زمرة الامم المتحضرة حتى تخلع عنها ماضيها وتسن لنفسها شرائع قائمة على العلم والتجربة والفائدة

الوطنية الجديدة

حدث منذ اقل من شهر ثلاث حوادث كبرى يجب ألا تمر دون تنبيه للقراء وتعليق عليها من المحرر

فأول هذه الحوادث ان محكمة الهاى حكمت فى الخلاف الذى قام بين فرنسا وتركيا بشأن الباخرة لوتس لمصلحة تركيا دون فرنسا مع ضعف تركيا وقوة فرنسا

والثانى أن مسيو جوفنيل مندوب فرنسا فى عصبة الامم استقال من هذه العصبة لانه يتهم فرنسا وطنه الاصلى بأنها تحاول اضعاف عصبة الامم . فاستقالته اتهام لوطنه واحتجاج عليه .

والحادث الثالث أن اللورد سسل مندوب انجلترا فى عصبة الامم استقال من هذه العصبة أيضا لانه يتهم انجلترا وطنه الاصلى بانها كانت علة فشل العصبة فى تخفيض السلاح

فهذه حوادث ثلاث تدل على اخلاق جديدة وولاء جديد ووطنية جديدة . ففى كل امة الآن من الامم المتمدينة طبقة من الناس قليلة العدد ولكنها كبيرة الاثر بعلمها وجاهها تحاول ان تجعل العالم الوطن الاول للانسان وتنظر الى عصبة الامم باعتبارها البذرة الاولى لحكومة العالم التى

تندمج فيها حكومات الامم المختلفة وهى تنظر بعين الرجاء الى المستقبل حين يكون لعصبة الامم القول الفصل فى جميع المنازعات الامية بل ايضاً تكون لها الكلمة العليا فى الاجراءات التى تعمل لرقى الانسان

وهذا طور جديد فى الاخلاق نحتاج فى مصر الى ان نماشيه بحيث اننا عندما نعلم تلاميذنا مبادىء الوطنية يجب الا نقول لهم بوجوب التضحية بانفسهم لمصر فقط بل ايضاً يجب ان نعلمهم ان المبادىء الحديثة تقتضى بأن نضحى بمصر لاجل العالم لانه كما ان الفرد يفتدى به الوطن كذلك الوطن يفتدى به العالم الذى هو الوطن الاكبر لكل انسان

ولكن هذه المبادىء البارة لا تثبت إلا بجهود طويلة فنحن فى حاجة الى أن نحذف من التاريخ تلك الامجاد الحربية السخيفة والى أن يفهم التلميذ أن الحروب والغزوات من الهمجية القديمة وان الحضارة الحديثة تضطر الأمم الى التحكيم وأن العدل مضمون فى المحاكم الأممية مثل الهاى . ثم يجب أن يبث الحب فى النفوس بدل البغضاء والكراهية والتسامح بدل التصعب كما يجب أن تطهر الاديان فى جميع أنحاء العالم مما يحض الناس على كراهة الغير ويسمو بهم الى أن الدين عقيدة شخصية يجب ألا تشترك فيها حكومة وأن حرية الفكر هى أساس التقدم والرقى

وقد تكون عصبة الامم ضعيفة الآن ولكنها اذا اجتمعت القلوب حولها وعاضدتها على البر والخير للعالم صار منها أداة عالمية قوية لمحو الشرور التى لا تنفع فيها جهود أمة وحدها . فتعمد العصبة الى الغاء الرق بكل معانيه من النخاسة الصريحة الى حجاب المرأة الى استغلال العمال بارهاقهم إلى الاتجار بالاعراض . ويصير لها شرائع تخضع لها جميع الامم فى صيانة الصحة والتعليم والمبادلة التجارية وحماية الاقليات ونحو ذلك ويكون لها جيش ينفذ شرائعها وهذا الجيش لا يعرف سوى الولاء لها . وليس بعيداً عن هذه العصبة أن تنشىء للعالم لغة عامة تحتم على جميع الناس التفاهم بها كما قد تستطيع أيضاً أن تنشى ديناً عاماً

وقد يكون هذا القول تماديا فى الخيال ومبالغة فى الرجاء ولكنه خيال يقوم على أساس من الحقيقة . ففى العالم الآن محكمة تحكم لدولة ضعيفة مثل تركيا على دولة قوية مثل فرنسا . وفيه أيضا عصبة تعمل لخير العالم ولها على الناس ولاء أسمى من الولاء للوطن كما رأينا من مثال اللورد سسل والمسيو جوفنيل

وواجبنا نحن المصريين ان نكون اداة خير لهذا العالم فنعمل لرقيه بتقوية هذه العصبة بأن نشترك فيها ونعاضدها على البر والسلام . ويجب ان نصبغ عقول شباننا بصبغة عالية نضع الايثار فوق الاثرة الوطنية . وعلى كل سياسى فى مصر ان يدرس نظام هذه العصبة ويعاضدها بصوته ورأيه وعمله

اثنان من اليهود

مضى زمن التعصب وانقضى ذلك العهد حين كان كل انسان يعتقد أن الجنة وقف على بنى دينه فقط . وصرنا الآن ننظر إلى جميع الأديان فنجد فيها من الرقى مالا يقل عن أدياننا بل صرنا نرى فى تصوف العالم أو الفيلسوف معنى سامياً جديراً بالاحترام لايقل عما نجده من المعانى السامية فى أدياننا

وقد عانى اليهود من التعصب أكثر مما عاناه المسلمون أو المسيحيون ورأوا الذل والهوان على أيدى المتعصبين الذين حرموهم الحقوق الابتدائية الممنوحة لغيرهم من امتلاك الارض والعقارات فاضطروهم بذلك إلى الانتفاع بالربا . ثم عادوا بعد ذلك يكرهونهم بل يمقتونهم لأنهم مرابون

والآن بعد أن انكسرت شوكة التعصب واستعاد اليهود حقوقهم المهضومة وصاروا يزاولون الأعمال التى كانت محرمة عليهم قبلا صرنا نرى منهم الزارع والتاجر والعالم والفيلسوف . فاليهودى الآن عضو عامل لخير الانسانية يزيد الثقافة ويقوى الحضارة و يدأب فى خدمة العالم . ثم هو أليق الناس بأن يكون ابن القرن العشرين هذا القرن العجيب الذى ألغى الوطنيات المتعادية وجعل العالم الوطن الأصلى الذى يجب على كل منا خدمته وذلك لأنه هو نفسه قد ألغى وطنه منذ نحو ١٨٠٠ سنة . فهو يمتاز على كل منا بأنه قد مضت عليه هذه المئات من السنين وهو على الرغم مما يكابده من الظلم يعرف أن العالم وطنه ولا يعرف وطناً سواه

وليس يجب أن نطلب المساواة بناالليهودى على وجه التسامح بل على وجه الحاجة والضرورة لكى ننتفع بمواهبه . فاننا الآن قلما نجد حركة علمية أو فلسفية أو حتى أدبية إلا ولليهودى فيها يد البر والخير . فنحن مثلا نعزو حب المال إلى اليهود ولكننا ننسى أن زعيم الاشتراكية فى العالم هو كارل ماركس وهو رجل يهودى

والآن ننظر فى عالم العلم والفلسفة فنجد على القمة رجلين يهوديين يشقان الطرق الجديدة فى هذين الميدانين لايدانيهما أحد من العلماء أو الفلاسفة نعنى بهما فرود واينشتين

فالأول منهما قد شق طريقاً إلى الذهن الانسانى واكتشف مجاهله وعرف ماهو العقل الباطن وما هى الأحلام التى نراها فى نومنا . والاكتشاف فى هذا الميدان الغامض هو تحسس فى الظلام ولكن فرود أجاد التحسس ولم يبخل على هذا البحث بنحو أربعين سنة من عمره انتهى منها إلى الوقوف على أسرار الذهن وإلى انشاء علم جديد هو علم النفسلوجية الذى كان قبل فرود كشكول

سخافات وخرافات فصار بجهده ومثابرته علماً منيراً يكشف عن طبيعة الانسان وغرائزه وأمانيه السامية . ويعيش فرود الآن فى فقر يشبه الفاقة والضنك لأن الحروب الكبرى أضاعت القليل الذى جمعه لشيخوخته . وهو يعرف قيمة العلم الذى اهتدى اليه ومقدار الأدوات التى عرفها فى استكناه الذهن البشرى ولذلك فهو مغتبط باكتشافاته ولا يبالى كثيراً بفقره

فهذا واحد من اليهود ستذكره ذرارينا بالشكر والفخر . وثم آخر هو أيضاً فى القمة بل هو ينفرد بالتبريز أكثر من انفراد فرود لأن الذين يدركون مدى نظريته قليلون . نعنى به اينشتين صاحب نظرية النسبية . فهذا الرجل العظيم قد عرف قيمة البعد الرابع للأشياء فى هذا الكون فليس للجسم فى نظره ثلاثة ابعاد . الطول والعرض والارتفاع بل الزمن أيضاً . وقد وضع من الفروض الجديدة فى الرياضة والفلك ماسيجعل العلماء يقضون القرن التالى فى مراجعة آرائهم الماضية وتنقيحها حتى توافق نظرية النسبية التى تنفى الحقائق المطلقة وتقول بأن كل شيء نسبى فى هذا الكون وان اثنين من الناس قد يختلفان فى ماهية الحقيقة ولو كانت من الأرقام ومع ذلك يكون كلاهما مصيباً اذا اعتبرنا الزمان والمكان لكل منهما

فهذان يهوديان يزيدان ثقافة العالم بل هما قد زادها بعلمهما وضربهما فى مجاهل الفكر بحيث لم يلحق بهما ولا داناهما أى انسان آخر من سائر الملل والنحل ولو كان اليهود يعانون الآن ضروب الذل التى عانوها فى الازمنة الماضية الكافرة لما انتفعنا بعلم فرود واينشتين . فاليهود الآن يدفعون ثمن الحرية والتسامح الذين يتمتعون بهما ويكافئون عليهما العالم أكبر مكافأة ممكنة لأى انسان وهى زيادة النور والعرفان

سعد والشبيبة

مما تمدح عليه شبيبة البلاد تعلقها بسعد ذلك التعلق الذى كان أشبه بالرباط السحرى بينها وبينه وقد حاولت القوة الغشوم أن تقطع هذا الرباط فلم تفلح

والشبيبة جديرة بالمدح لتعلقها بسعد لأنها انما تعلقت باخلاصه للوطن ونشاطه فى خدمته وولائه على مبادئه وثباته فى إيمانه . وهذه صفات . بل مناقب لو لم يكن يقدرها شاب فى نفسه لما قدرها فى سعد . لذلك كان تعلقه بسعد تعلقاً بالفضائل السامية التى تمثلت فيه

ولكن سعداً كان على خلق عظيم وشبابنا يجهل بعض نواحى هذا الخلق ونحن لذلك ذاكرون بعض هذه النواحى كى يقتدى بها الشاب فى خدمة نفسه وأمته . فمن ذلك أنه عاش طول حياته طالبا للعلم يدأب فى الدرس وكلما وصل الى مرتبة من الرقى طلب ماهو أرقى منها . فقد نشأ شيخاً أزهريا معمما ثم خلع عمامته ولبس الملابس الافرنجية . ثم اشتغل بالأدب فصار محرراً فى الوقائع المصرية

وألف كتاباً فى ذلك الوقت فى الانشاء لتلاميذ المدارس عمد فيه الى تخليص العبارة العربية من الاغراق فى الاسجاع والزخارف . ونشبت بعد ذلك الثورة العرابية فكان فى صف العدل يقاوم ظلم الخديو ثم توظف فى الحكومة . واستغنى منها فدخل فى المحاماة وهى ميدان جديد محفوف بالمكاره فلم يقنع بما قنع به غيره بل أخذ فى الدرس ومقابلة الشرائع والتفقه فيها وعاد وهو فى سن الاربعين طالباً يتقدم للامتحان فى باريس لينال شهادة الحقوق

فتأمل أيها الشاب فى هذه الهمة العظيمة التى تحفز شاباً أزهرياً معمماً الى درس اللغة الفرنسية ثم القوانين الفرنسية والسفر الى باريس للامتحان فى سن يشعر فيها غيره ببوادر الشيخوخة . أليس فى هذه الهمة ما يحفزك الى أن تنظر الى ما هو أرقى من مركزك الحاضر فتجهد جهدك لكى تبلغه ؟

ولكن سعداً كان شابا حتى فى شيخوخته بل فى نهاية شيخوخته . سمع عن عظمة المانيا ورقيها وهو فى سن الستين فشرع يتعلم الألمانية كأنه شاب . بل ماذا أقول ؟ كأنه صبى يتعلم حروف الهجاء وأخذ يحفظ عن ظهر قلبه الالفاظ ويحاول أن يلوى لسانه على مخارج النطق الالمانية . فهذا ما كان يعمله سعد لكى يرقى نفسه ويشعر بأنه بتقدمه فى السن يتقدم فى العلم وهذا ما يجب أن يفعله كل منا يجب أن نبقى طلبة فى جامعة العالم نتعلم وندرس ولا ندخل القبر إلا وقد حوينا فى صدورنا أجمل ما فى هذه الدنيا من علم أو أدب كما يجب أن نطلب الرقى لانرى مرتبة من مراتب الرفعة الا طمعنا فيها وأملنا فى بلوغها . ولكن سعداً لم يكن يخدم نفسه فقط بترقية نفسه وتهذيبها وانما كان يخدم أمته أيضاً . وانضمامه الى الثورة العرابية برهان على يقظة ضميره وهو بعد شاب لم يبلغ الثلاثين وقد ضحى بمركزه فى المحاماة وما كان يجنى منها من الارباح الطائلة لكى يخدم القضاء المصرى . فلما رأى الفرصة سانحة فى خدمة الحركة الوطنية أخذ يغذيها بماله وآرائه كما شهدت بذلك جريدة المؤيد . ورأى ميلا من الخديو عباس الى الاستبداد فقام وكافح . ثم جاءت سنة ١٩١٩ وتاريخ سعد بذلك هو تاريخ الامة المصرية بأجمعها وهذه العجالة لايتسع فيها المجال لذكرى تاريخ أمة والآن ماذا نحب فى سعد ؟

نحب فيه أنه كان مصريا صميما له وجه الفلاحين والفراعنة وكان يرقى نفسه يدأب فى الدرس ويتطور مع الزمن متمشيا مع روح العصر يدرس اللغة الفرنسية فى سن الاربعين واللغة الالمانية فى سن الستين . ثم كان مصريا يخلص الولاء لمصر فلم يقل مرة أننا أمة عثمانية مثل الذين ضلوا بعد عرابى وكان يضحى بكل شيء فى سبيل الوطن يرضى بالنفى والاهانة وهو ثابت على ولائه لايتزعزع

فسعد قدوتنا جميعا يجب على كل شاب أن يقتدى به فى ترقية نفسه وفى خدمة وطنه

فى الصحافة

كثير من الناس لم تقدر لهم الاقدار أن ينالوا تلك التربية المدرسية العالية التى تفتح الذهن للثقافة القديمة والحديثة ولكنهم بموالاة القراءة فى الصحف الراقية استطاعوا أن يبلغوا مكانة عالية فى الثقافة والتربية. وهذا هو السبب فى أن معظم الادباء فى اوربا لم ينالوا شيئاً سوى القليل من التربية المدرسية ولكنهم نشأوا على أن يقرأوا من الصحف الراقية ما ابتعث فى نفوسهم ذوقا للادب والعلم وهداهم الى الكتب التى نزعت بهم الى نزعات الرقى المختلفة وحشدت رؤوسهم بضروب الثقافة

فالصحيفة الراقية تقف الآن الى جانب المدرسة والجامعة وتنافسهما فى نشر التعلم وابتعاث الاذواق والنزعات. وتأثير الصحيفة فى القارىء اكبر من تأثير المدرسة أو الجامعة لأنه يقرأها مختارا فهو يتقبل آراءها بقوة الايحاء الذى تبعثه اللفظة المطبوعة وبقوة التكرار الذى هو طبيعة الصحف الدورية. أما فى المدرسة والجامعة فان الاجبار يثير فى نفس المتعلم شيئاً من المقاومة والكراهية حتى أننا قلما نقرأ كتابا من نوع ما كنا نقرأه فى ايام التعلم ولا ننظر بعد تركنا المدارس الى الكتب المدرسية الا بشىء من الكراهية هو أثر الشعور السابق بواجب الدرس. ولكن منا من يحب صحيفته كما يحب قهوته يصطبح بها ويغضب لغضبها ويسر لسرورها. ومن هذا الاثر البالغ لهذه الصحيفة فى نفسه ان شراً فشر وان خيراً فخير

وعلى ذلك يجب أن يختار القارىء من الصحف ارقاها وأدعاها الى أن ترفعه وتسمو به وتحثه على الخير والبر فى العالم وعليه أن يتأنق فى اختيارها كما يتأنق فى اختيار الاصدقاء كما عليه أن يقاطع الصحف التى تعمل للعداوة بين الناس وتدعو الى التعصب الدينى وتمتدح الجمود وتؤيد الاساطير

وليس شك فى أن الصحف المصرية قد ارتقت هذه السنين الاخيرة وصار عندنا وزراء وعلماء لايجدون من الغمط لأنفسهم ان يكتبوا فيها وصار للرأى العام عن طريق هذه الصحف قوة يخشاها ذوو النيات السيئة للبلاد

ولكن صحفنا مع ذلك لم تبلغ حد الكمال فلا يزال بعضها يؤثر الطرق القديمة فى ملء انهرها بالكاتب المتطوع لأنه أرخص من الكاتب المأجور. ولكن قليلا من التجاريب يثبت أن هذه الطريقة فى الاقتصاد هى أكثر اسرافا من دفع الاجور المناسبة لمن به كفاية من الكتاب. وكثير منها لا يزال يخدم أغراض العامة من الاغنياء والاعيان بوصف توديع مدير أو مأمور أو رثاء طويل أو نحو ذلك مما يجب أن يكتب تحت عنوان « الاعلانات » أو لا يكتب البتة. على أن أكبر نقص فى صحفنا الحاضرة هو اهمالنا أخبار العالم فان الاخبار الخارجية تنحى إلى الصفحة

الأخيرة أو التى قبلها كأنها من مهملات الأخبار فينزع القارىء نزعة وطنية محدودة مع أننا أبناء هذه الدنيا يجب أن نعرف أن الوطن الأول هو هذه الدنيا بأجمعها فيجب أن ندرس أخبارها وتطوراتها . وأن أكبر أنواع الجهل ليس جهل الفلسفة أو الكيمياء أو التاريخ بل جهل هذه الدنيا التى نعيش فيها . وتلك الصحيفة التى تبالى بتوديع مأمور أكثر مما تبالى باعتصاب العمال فى اليابان تجنى على عقول قرائها جناية قد لا تستقال

ومن الجناية على القراء أن يقتل ويجرح نحو ألف انسان فى عاصمة النمسا فى الشهر الماضى فتنحى أخبار هذه الفاجعة إلى الصفحة السابعة أو الثامنة من الجرائد بينما الصفحات المهمة تخصص لتنقلات الموظفين وترقياتهم

إن شبيبة مصر يجب أن تكون راقية الذهن وواقفة على أحوال العالم واتجاهاته فى تطوره الحاضر حتى تعرف العالم ومكانة مصر منه ولا سبيل لها إلى ذلك سوى الصحافة . فاذا لم يخدم محررو الصحف القراء من هذه الناحية فانهم يهملون اهمالا فاضحاً فى أداء مهمتهم

مصر مركز الثقافة العربية

أيها القارىء

تفكر وزارة المعارف الآن فى تأليف موسوعة كبيرة للمعارف العامة كما تفكر فى انشاء مجمع علمى يساير الحركة العلمية والأدبية أو يرود الطريق لها ويمهدها بانشاء الألفاظ التى يحتاج إليها الأديب أو العالم ويضع لها معجماً

ولمصر تقاليد فى انشاء الموسوعات ليس قطر من الأقطار العربية ينافسها فيها . ففيها وضع ابن منظور معجمه بل موسوعته الكبرى « لسان العرب » وفيها وضع النويرى موسوعته الكبرى الأخرى « نهاية الأرب » .

وبديهى أن الموسوعة التى تنوى وزارة المعارف وضعها ستقوم فى الأكثر على الترجمة وستختلف عن طريقة ابن منظور والقلقشندى وغيرهما كما يختلف زماننا عن زمانهم . فقد عنوا هم باللغة والألفاظ عناية كبيرة ولم تكن غايتهم من هذه العناية الدقة بل الزخرفة .

ولكننا نحن فى حاجة اليوم إلى الدقة فى التعبير أكثر مما نحن فى حاجة إلى الزخرفة لأننا نعيش فى ثقافة علمية أو يجب أن نعيش كذلك فحاجتنا إلى العبارة الواضحة الدقيقة أكبر من حاجتنا إلى الزخارف والبهارج .

وقد كانت ثقافة العرب أدبية ولذلك عنوا بهذه الزخارف . أما الثقافة الحاضرة في أوربا فتتجه نحو العلم . والحضارة الراهنة تنحو نحو الصناعة ولذلك فنحن في أشد الحاجة الى أن تكون عبارتنا واضحة دقيقة مختصرة تؤدي المعنى العلمي أداء مقتصداً مختصراً . فاذا كانت المعاجم العربية تذكر مائة اسم للاسد فنحن في معجمنا الجديد يجب أن نقنع بواحد . ولكن يجب في الوقت نفسه أن نزيد على ألفاظ هذا المعجم ٤٠٠٠ اسم خاص بالاجهزة والادوات الكهربائية مثلا

وكذلك الحال في الموسوعة يجب أن نعنى فيها بالثقافة الحديثة عناية كبيرة . ويجب أن نجعل غايتنا توجيه القراء الى ناحية العلم والتفكير في المستقبل دون ناحية الأدب أو التفكير في الماضي

ونحن الآن في مركز الزعامة للثقافة العربية من مراكش غرباً الى العراق شرقاً . ولسنا من الاوربيين مزاحمون في الثقافة فاذا لم نجعل ثقافتنا وفق العصر الحاضر بحيث يجد فيها القارىء العربي ما يعلمه ويهذبه ويسمو به الى آراء القرن العشرين فانه لابد تاركنا الى اللغات الأوربية التي تغذوه بالآراء الحديثة

ونحن نرى في مصر وسوريا الآن طائفة من الشباب المتعلمين تركونا وتعلقوا باللغات الاوربية لانهم لم يجدوا في ثقافتنا ما يغذو نفوسهم ولانهم وجدوا أن أدباءنا مازالوا يهرجون لهم في الالفاظ ويذكرون لهم أبطال الأدب في بغداد والبصرة قبل ألف عام دون عناية بما يجري حولهم

ولنا شباب آخرون تعلقوا بالثقافة العربية القديمة التي أصبحت لا تتفق والعصر الحاضر فصاروا ينظرون الى كل نزعة جديدة بعين المرتاب الذي يخشى منها كفراً جديداً أو تفرنجاً سخيفاً

فلهؤلاء ولهؤلاء نحتاج الى موسوعة جديدة للمعارف ومعجم يكونان دستوراً للاديب يجذبان الينا أولئك الذين هجرونا الى الآداب الاوربية ويفتحان أعين أولئك الذين يتعلقون بالقديم للثقافة الحديثة

وكلنا يرغب في أن يتوحد العالم العربي في اللغة العربية ولكننا لانحب أن نضحي في ذلك بشخصيتنا ولا نحب أن تكون الرابطة بيننا وبين سائر الاقطار العربية رابطة لغوية فقط . وانما نرتبط بهذه الاقطار بثقافة حديثة قائمة على العلم والصناعة تربطنا جميعاً برباط الحضارة لا برباط البداوة فسبيل التعارف والتآلف بيننا يجب أن يكون قائماً على الآراء الحديثة في الحكومة والزواج والاصلاح الاجتماعي والمخترعات والمكتشفات العلمية وبعبارة أخرى يجب أن نرتبط برباط المدنية الحديثة والثقافة الحديثة حتى تتحد عواطفنا الاجتماعية وغاياتنا الاصلاحية

وهذه الغاية نبلغها اذا كانت مصر مركزاً للثقافة الحديثة تخرج منها المؤلفات ويجمع العالم العربي معجماً للالفاظ المفيدة في العلوم والآداب يكون دستوراً للادباء كما أن الموسوعة تكون أساساً جديداً لنهضة جديدة تقوم على الابتكار والاختراع

إعلان

أنا الآن صحفي عتيق لا أقنع من الصحيفة أو المجلة بما يقنع منها القارىء العادي يقرأ المقالة أو القصة ويتركها وقد ينسى أسمها . فقد انغمست في الصحافة وزوالتها مدة طويلة حتى صرت أميز فيها بغريزتي أكثر مما أميز بعقلي . ولذلك فاني أنظر في اعلانات الصحف وخاصة منها تلك المجلات الأوربية نظرة المدقق الباحث عن الفن الصحفي وكثيراً ما اهتدي إلى دقائق في الفن لا أهتدي اليها في المقالات والقصص

ومما يجعلني أنتفض وأتقزز اعجابا تلك الاعلانات الخاصة بالطيران تعلنها مدارس هذا الفن الجديد وتحث الشبان على الالتحاق بها وتطمعهم بالآمال الواسعة المعقودة بهذا الفن حين تحتكر الطيارات حمل البريد وحين تتصل القارات بخطوط هوائية وحين تتعدد الاغراض من الطيران حتى تصبح الحرفة رائجة السوق عالية الاجر

وهي ترغب كل قارىء في أن يكون طياراً . فهذا الاعلان يقول مثلا : « في منزلك وفي أوقات فراغك يمكنك أن تتعلم قواعد الطيران وتشرع بنفسك في طريق الربح العظيم »

فالطيران أصبح أيها القارىء حرفة يبغيها الناس للربح العظيم ولم يعودوا يذكرونه بالشجاعة أو الشهامة او الجرأة لأنهم قد ألفوه فصار من صناعة القرن العشرين التي يتعلمها الناس لكي يعيشوا لا لكي يشار اليهم بالبنان وتذكر أسماؤهم في الصحف

ولكن هذه الحرفة لسوء الحظ لاتزال غريبة عن بلادنا مع أن لنا أجساما قوية وعقولا ذكية وقلوباً جريئة وانما يعوزنا أن ننزع نزعة جديدة تناقض ما ألفناه بل ما تعلمناه فنعرف أن الانسان سلطان هذا الوجود الذي يقهر الطبيعة ويذللها ويركب السحاب ويسخر الريح وان مهمتنا في هذا العالم أن نبتكر ونخترع ونترك طرق الاسلاف القديمة ونشق لأنفسنا طرقا جديدة توافق عصرنا وتعمل لخيرنا ورقينا

ولكن كيف السبيل إلى الى أن ننزع هذه النزعة التي تجعلنا نستسهل الطيران ونقبل عليه ؟

السبيل الوحيد الى ذلك أن نتثقف بالثقافة التي كان الطيران احدى نتائجها . أعني بها الثقافة الأوربية . فيجب أن نقبل على درس هذه الثقافة وأن نكرع منها حتى الامتلاء ونقل منها الى أبناء وطننا ونحثهم على الاطلاع عليها وادمان درسها . وليس يعيبنا النقل عنها فانها أثبتت أنها أرقى ثقافة في العالم الآن وأن نتائجها العملية أي الحضارة الراهنة تفوز على أية حضارة أخرى

وهذه الثقافة قد مضى علينا أكثر من ألف سنة وهي تتكون فيجب أن ننتفع برقيها ونأخذ آخر أطوارها وأرقاها ونجري على سننها الأخيرة وننزع نزعاتها العديدة. ولا عبرة بأن يقال لنا عندئذ أننا مقلدون فانه يجب علينا أن نقلد أهل الرقي في رقيهم واذا نحن اعتمدنا على أنفسنا فقط فاننا نحتاج إلى ألف سنة لكي نبلغ مابلغته أوربا من الرقي الآن. وعندئذ تكون أوربا قد سبقتنا بألف سنة اخرى فنبقى الى الأبد متخلفين عنها.

ويجب أن نعلم من الآن أحلاما لذيذة بشأن الرقي يراه أبناؤنا وأحفادنا إذا لم نره نحن فيجب أن نتحدث بل نهجس بذلك اليوم الذي نرى فيه كلية الأزهر تعلم الطيران للمجاورين وتحثهم على ركوب السحاب. وعندئذ يحتاج المجاور الى تبديل ملابسه من قمة الرأس إلى أخمص القدمين لأن الريح فوق السحاب لاترحم. ويجب أن نعلم أيضاً ونهجس عن الشاب القادم حين يخترع ويبتكر ويعيد الى هذا الوطن تلك الذكرى المجيدة التي لاتزال له من أيام الفراعنة آبائنا العظماء الذين أنشأوا الحضارة وأخرجوا العالم من ظلام العصر الحجري

وبمثل هذه الأحلام وهذه الهواجس تغرس في ذهن الشاب هذه النزعة الميمونة إلى الجديد فيخرج حراً طليقاً من القيود التي تقيدنا نحن بها بحكم تربيتنا وثقافتنا القديمة منذ طفولتنا ويستطيع عندئذ هذا الشاب إذا أشرب الثقافة الاوربية وتشبع بها أن ينزع نزعة أبنائها في الاختراع والابتكار. ويجب علينا ألا ننسى أن أحلامنا هي حقائق أبنائنا وأحفادنا

نزعة الأدب السخيف

نهضتنا نهضة أدبية بينما المدنية الحديثة علمية خالصة. فنحن نعيش في واد والغربيون في واد آخر لانالانأبه إلا للآداب ونهمل العلوم إهمالا فاضحا فأدى ذلك الى تقهقرنا وانحطاطنا. فان كل شيء يقوم الآن على قواعد العلم حتى الأدب لايمكنه أن يستقيم إلا اذا كان له أساس من العلم وذلك علة تقهقرنا في الآداب التي قصرنا عليها اهتمامنا. فان أدباءنا الى الآن لايطرقون الموضوعات الاجتماعية العلمية فيدرسون حالة فلاحنا دراسة علمية ويطلبون اصلاح حاله مثلا بل هم يؤلفون عن عصور الخلفاء وأعجاز القرآن بينما نحن نجهل حقيقة الحركة العرابية مع أن التاريخ أصبح الآن علما بكل مافي كلمة علم من معان. والأدب أصبح علما يقوم على أساس من العلوم الكونية والطبيعية وعلى المشاهدات المحسوسة لاعلى الأوهام والخرافات

وهاهم الاوربيون يريدون أن يجعلوا من كل شيء علما. فهذه الفلسفة ماتقدمت حديثا إلا حين انسلخت عن الآداب وادخلت في دائرة العلم لها مالغيرها من العلوم من معامل وتجارب ومقارنات

وبراهين . وهذا علم النفس صار من زمن بعيد علماً له معامل كسائر العلوم وبلغ من التقدم أنه صار أساس الأدب الحديث فكل الروائيين والشعراء الآن علماء نفس بلا مبالغة بينما أدباؤنا ليس لهم أساس إلا علم الخرافات فصارت الفلسفة علماً والادب علماً . كذلك قل في السياسة والصحافة والتاريخ ولا نزال نحن هنا نعيش فى القرن الثانى للهجرة نفسر الالفاظ وننشد المراثى والمدائح بينما الأوربيون يقلبون ظهر الأرض باختراعاتهم واكتشافاتهم فهم يحاربون الأمراض ويعملون على تقريب اليوم الذى يصبح المرء فيه فى مأمن منها كلها . وهم يخترعون الغازات السامة بينما دأبنا الكلام الأجوف فى كل شىء نطالب به »

ولا تظن أيها القارىء أن ماقرأته هنا هو من قلمى وإن كنت قد اعتدت منى على مثل هذه اللهجة حتى السأم . ولكنها منقولة من كاتب يجب أن نحييه هو « حسن عارف » ويجب أن نشجعه على المضى فى هذه النزعة الشريفة التى يراد منها الخير لبلادنا . فنحن منكوبون حقاً بالأدب السخيف أدب الالفاظ واللعب واللهو ودرس السلف كأننا أمة بدوية تعيش فى وسط الصحراء ولا تتصل بالحضارة الحديثة ولا يهمها إلا قصة رويت قبل ألف سنة أو بيت شعر هو نكتة من نكات المغفلين

وقد أثلجت صدرى هذه المقالة التى تدعونا إلى هجران الأدب السخيف والنزوع إلى العلم وقلبت الجريدة التى بها هذا المقال فرأيت مقالا آخر عن المستر فورد خلاصته أنه ينوى أن يجدد مصانعه بحيث تخرج فى اليوم — أجل فى اليوم الواحد — ١٢٠٠٠ أتومبيل . فكانت هذه المقالة الثانية برهان صدق المقالة الأولى وأكبر دليل على أن النزعة العلمية هى التى تحمل الرقى بينما النزعة الأدبية كما هى بلادنا لاتحمل إلا الانحطاط

منذ سنة أو أكثر مات رجل انجليزى يدعى الاستاذ برى ألف كتاباً غريباً يبحث عن فكرة الرقى والتقدم كيف نشأت ومتى نشأت ؟ فانك إذا استقريت أحوال الأمم القديمة لاتجد لهذه الفكرة أثراً إذ هى حديثة جداً قد لا يزيد عمرها عن مائتى سنة . والذى يبدو للباحث أن هذه الفكرة الشريفة التى تجعل الانسان ينزع إلى تحسين نفسه وبلدته ووطنه لم تنشأ إلا من الاختراعات العلمية . فان الانسان ابن العادة فاذا هو رأى التبديل والتحسين فى الآلات نزع به ذلك إلى التفكير فى التبديل والتحسين فى المؤسسات العمرانية . فالعلم هو أساس فكرة التقدم والاصلاح أما الأدب فما كان له هذا الفضل قط . ولهذا السبب أصبح أدباء أوربا علماء بل منهم من لاتعرف هل تسمه بالعلم أو الأدب . مثل ما يترلنك مثلا فانه يؤلف كتاباً عن الارضة وكيف تعيش وبعد ذلك يؤلف دراما عن المسيح

تربية الكبار

ليس الصبيان وحدهم ولا الشبان وحدهم هم الذين يحتاجون الى تربية . والفرق بين الاثنين أن الصبى أو الشاب يحتاج الى معلم يعلمه ويرشده أما الكبير فيجب أن يربى نفسه

واذكر بهذه المناسبة رجلا قد ربى نفسه ونجح فى تربيتها أعنى به المستر ولز الانجليزى . فقد كتب يصف أحد أبطاله وأظنه كان يصف فيه نفسه بقوله :

« كان فى عقله من التقزز ما يكسبه حرارة ودقة وكانت له مع ذلك ابتكارات ونزعة سخيفة وكان يحب الكلام والكتابة وكان يتكلم عن كل شئ وكان يفكر فى كل شئ . ولم يكن فى وسعه أن يمتنع عن تشمم أثرك وهو يتبعك . فكان هو يتشمم أثر الحقائق . وكثيرون من الناس يعتقدون أنه مفيد منير وقليل منهم لا يطيقونه وكان حافلا بالافكار عن السلالات البشرية والامبراطوريات والنظام الاجتماعى والمؤسسات السياسية والحدائق والاتومبيلات ومستقبل الهند والصين وفلسفة الجمال وأميركا وتربية النوع البشرى على وجه العموم » .

وولز رجل فوق الستين ولكنه دائب الدرس والتفكير والتأليف وقد تطور فى الثلاثين السنة الماضية واعتقد انه سيتطور فى المستقبل . وتطوره هذا يدل على أنه يربى نفسه وهو كبير بل وهو شيخ واذا نحن تتبعنا بعض مؤلفاته منذ شبابه الى شيخوخته علمنا مقدار تطوره ومقدار عنايته بنفسه فى تربية نفسه

فقد بدأ حياته بكتاب عن تشريح الارنب وبعض الحيوانات لانه هو نفسه ترقى تربية علمية ثم عمد الى الادب فكتب بعض القصص والمقالات ومنها مقالة هزأ فيها بالاشتراكية والقائلين بها ثم بعد ذلك بسنوات عاد فألف أحسن كتاب فى الاشتراكية يدعو اليها ويوضح أنظمتها ويقول بضرورتها الحتمية . ثم جاءت الحرب فأخذ يقول بضرورة حكومة العالم ويدعو الى حل الامبراطورية البريطانية مع أنه هو انجليزى . ووضع تاريخا ضخما للعالم باعتباره أمة واحدة

ولاح امامه درس جديد وهو النفسلوجية الحديثة التى ابتدعها فرود فدرسها وألف قصة بل قصصا عنها . حتى آخر النظريات التاريخية الحديثة القائلة بأن مصر هى أصل حضارة العالم أخذ يدرسها وينصح لقراء قصصه بقراءة مؤلفات اليوت سمث مبتدع هذه النظرية

فهذا كاتب يتطور مع الزمن ويدرس كل شئ من الاتومبيلات الى مستقبل الصين ومن تنظيم الحدائق الى فلسفة الجمال ولا يبالى بأن يغير رأيه ودرسه متى لمح قبسا من الحقيقة

فهذا كاتب يتطور مع الزمن ويدرس كل شيء من الاتومبيلات الى مستقبل الصين ومن تنظيم الحدائق الى فلسفة الجمال ولا يبالى بأن يغير رأيه ودرسه متى لمح قبسا من الحقيقة

وما أحرانا نحن بأن نتعهد أنفسنا بمثل هذه التربية فنعيش مدى حياتنا طلبة فى جامعة العالم ندرس ونتفقه فى حقائقه ونتطور فى الآراء والمذاهب وننظر فى هذه الحضارة التى نعيش بين ظهرانيها فندرس حقائقها وأحلامها وأديانها وآلاتها ومؤسساتها

والدرس نوع من التوسع ولذلك فان طالب المعرفة كطالب المال لا يشبع لأن كلا منهما يشعر بنوع من السيادة فى هذا التوسع يشبه الملوكية إذ له شيء من كبريائها وكرامتها . ولكن قلما تجد رجلا يعمد الى الدرس والتثقف مالم يكن قد نزع هذه النزعة وهو شاب . ولذلك فان تربية الرجل كبيراً تحتاج الى تربيته صغيراً بحيث ينزع نزعة الدرس

فيجب أن نقصد من تربية الصبى الى غرضين : أولهما أن نغذوه بالمعارف العامة . والثانى أن نغرس فيه هذه النزعة الى التوسع الذهنى بحيث يكون هو المعلم لنفسه فى المستقبل حتى يدأب فى تربية نفسه وهو كبير

وأنه لمن المآسى العظمى أن يرى الانسان شابا أو شيخاً وهو قاعد « يقتل » الوقت لأنه لا يعرف كيف يشغل ذهنه بما يفيده ويرفعه من اكتساب المعارف والتفكير فى حقائق هذه الدنيا التى هى وطننا الاكبر والتى يجب على كل منا أن يدرسها ويبحث فى تنظيمها وتخليصها من الاغلال القديمة

تحديد النسل

اذا كان أهم أسباب الحروب هو فيض السكان على الاوطان فان أنجع علاج للحرب وخير ما يدرأها عن الناس هو تحديد النسل بحيث لا يزيد السكان على الوطن الذى يعيشون فيه فيمتنع الازدحام الذى يدعو الى المهاجرة أو الى الاستعمار وبذلك تقل المنافسة بين الامم وتنتفى الحروب

والامم الآن ليست عظيمة بعدد سكانها بل بمقدار ما فيها من صحة ونظافة وحضارة وثقافة فهذه الهند مثلا يزيد سكانها عن ٢٢٠ مليون نفس ومع ذلك فان أسوج التى لا تبلغ ستة ملايين نفس أعظم منها وأقدر على التمتع بالحياة منها ولو نازلتها فى حرب لغلبتها ولو تبارى الاثنتان فى علم أو أدب أو جمال أو فن أو حضارة لبزت أسوج الهند وأربت عليها

فكثرة السكان الآن لا قيمة لها البتة وانما العبرة بما عند الامة من وسائل لتعليم هؤلاء السكان وما عند هؤلاء من اخلاق وعلم وصحة . وأكثر الامم حضارة هن أقلهن نسلا فأوربا أقل نسلا من آسيا أو أفريقيا ولكنها تفوق الاثنتين فى القوة والذكاء والجمال وكل ماله قيمة انسانية وكل

أمة كائنة ما كانت تنقسم طبقات أرقاهن أقلهن نسلا أيضا . فى أوربا نفسها يتكاثر العمال ويزداد نسلهم بينما الطبقة السائدة الحاكمة التى تقبض بأيديها على المال والحكومة لاتكون أبداً إلا قليلة النسل

وقد كان المرجفون الذين يحبون من الأخبار مايرجف ويرعب ينعون على أوربا قلة مواليدها ويذكرون آسيا وان أهلها يتكاثرون بحيث قد يطغى سيلهم على أوربا فيغرقها ويبيد حضارتها . وكان الامبراطور غليوم يؤمن بهذه السخافة حتى أنه رسم صورة رمزية تمثل هذا الخاطر المزعج فتناقلتها الصحف وتذاكرت الآراء فيها

ولكن اتضح بعد تمحيص الآراء فى هذا الموضوع ومشاهدة الآثار التى تخلفها الحضارة الاوربية فى آسيا أنه كلما ارتقى الاسيوى وتحضر وتثقف رأى من هذا الارتقاء نفسه داعيا يدعوه الى تحديد نسله . ولذلك عاد الاوربيون فاطمأنوا وعرفوا أنه مادامت آسيا فى همجيتها وتقييدها بقيود الاسلاف فانه لاخطر على أوربا من كثرة نسلها لأن من الجهة الواحدة معظم هذا النسل يموت لقلة العناية الصحية به ومن الجهة الثانية تحتاج الحروب الحديثة الى صناعة لم يتثقف الاسيوى بعلمها ثم هى أيضا اذا تحضرت وعرفت الصناعة فانها تعتاد عادة تحديد النسل فلايخشى عندئذ من تكاثرها لان تحديد النسل نتيجة للرقى والحضارة اذ هو فى الواقع ضرب من التبصر والعناية بالاولاد وقد شرعت عائلات كثيرة فى مصر تحدد نسلها وتمنع تزايد الاولاد حتى يستطيع الابوان تعليمهم وتهيئتهم بقليل من المال للدخول فى معترك الحياة . ونحن يجب ألا تخيفنا هذه النزعة اذ خير لنا أن نكون أمة صغيرة راقية مثل أسوج من أن نكون أمة كبيرة متأخرة مثل الهند أو الصين وجسم الانسان بعد كل مايقال هو ملكه وهو أعرف الناس بمصلحة أولاده وأسدهم رأيا فى تقدير حاجاتهم فاذا وجد أن أمواله لاتكفى لتعليم عدد كبير من الاولاد وتربيتهم التربية الصحية وتنشئتهم النشأة اللائقة بهم وجب عليه أن يقتصر على عدد صغير . لانه كما أن كلا منا يجب عليه أن يتبصر لمستقبله كذلك يجب أن يتبصر لمستقبل أولاده . ثم يجب ألا ننسى أن الهناء العائلى لايتم الا اذا كان الابوان فى راحة بال وراحة جسم من جهة أولادهما . وقليل من الامهات من يستطعن أن يلدن ويربين عددا كبيرا من الاولاد . فالولادة نفسها مجهود كثيرا مايقضى على حياة الوالدة وتربية الطفل مجهود آخر يضنى الاعصاب ويهد القوى . ولذلك فالاعتدال فى النسل ضرورى للام للمحافظة على صحتها وضرورة للاديب لكى يستطيع أن ينفق على تربية أولاده

الايمان برقى الانسان

لما أوشكت الثورة الفرنسية أن تقع وانشق الناس فريقين فريق كبير هو الأمة كلها تقريباً وفريق صغير هو الملك والنبلاء . كان بين هؤلاء النبلاء رجل يدعى المركيز دوكوندورسيه. وكان مع أنه نبيل نشأ فى بيت له تلميذ فى النسب والحسب قد انضم الى الشعب فأخذ يعاون رجال الموسوعة فى نشر الأفكار الحرة ويعمل على تقويض الطبقة التى ينتسب هو إليها وصار ينفق ماله وجاهه وعلمه لكى ينبه الشعب الى الثورة

وجاءت الثورة فاختلط فيها الجنون بالعقل وقام الناس على النبلاء يقتلونهم وينهبون أموالهم وكان المركيز دوكوندرسيه من هؤلاء النبلاء له شارتهم وعليه سماؤهم فكان على الرغم من حبه للشعب وسعيه لانقاذه من الجهل والظلم معدوداً بينهم فقتله الثائرون ونهبوا أمواله

والآن قد تظن أيها القارىء أن هذا الرجل قد مات يائساً من تقدم الشعب ورقيه إذ أعطاه صحته وذكاءه وماله ولم يأخذ عوض ذلك شيئاً ثم قتل على يديه . ولكن الواقع أنه عاش ومات مرتاح البال يؤنسه رجاء عظيم هو رجاء التقدم المطرد للنوع البشرى . فقد كتب قبل وفاته يقول :

« لم تضع الطبيعة حدوداً لآمالنا وحسبنا أن نتخيل تقدم النوع البشرى بعد انطلاقه من السلاسل وهو يسير بقدم ثابتة عن طريق الحق والفضيلة والسعادة فنجد من هذا المنظر مايعزى الفيلسوف إلى الأخطار والجرائم والمظالم التى لاتزال تدنس وجه الأرض وتنزل بها المصاعب »

بمثل هذه العقيدة مات المركيز كما يموت الشهيد من أجل عقيدته الدينية بفرق واحد بينهما وهو أن الأول يريد الجنة فى هذا العالم ويعمل لتحقيقها والثانى ينتظرها فى عالم آخر بعد الوفاة

وليس شىء يخفف عنا آلامنا ويزكى فى أعيننا تلك الكوارث العديدة الحافل بها تاريخ الأمم سوى هذا الايمان بأن العالم يتخلص بالتدريج من الأوهام والمظالم فيخرج من الايمان بالأساطير الى الايمان بالعلم ومن الاستبداد الى الدستور ومن المرض الى الصحة ومن الضعف الى القوة

ثم مثال هذا النبيل الفرنسى يخفف عنا أيضاً ما نجده فى أيامنا من قوى تعمل للشر وتناهض مافينا من خير وبر فان صيحة الاصلاح التى نصيح بها على مافيها الآن من ضعف ووهن ستفوز فى النهاية لان الرقى طبيعة البشر التى لامحيد عنها . وليس البرهان على ذلك بعيداً عن الاثبات أو مستعصياً على الافهام . فان نظرية التطور نفسها هى نظرية الرقى ولذلك أطلق عليها اسم « نظرية النشوء والارتقاء » عند مانقلت الى لغتنا . فاذا كان تاريخ ألف مليون من السنين يدل على الرقى فى الماضى فمن التعسف أن نحسب أنه انتهى وانقطع بوجودنا . فان عناصر هذا

الرقى كامنة فى كل منا حتى المنتحر نفسه انما ينتحر لأن نفسه تنزع الى الرقى والمجنون نفسه يجن بأشياء تحمله على أجنحة الرقى والعظمة فيتصور نفسه ملكا أو أميراً أو غنياً

فالرقى كامن فى نفوسنا ينطق به تاريخنا الماضى وهذا هو مايؤنس قلوبنا ويجعلنا نرضى بالتضحيات كلما سمعنا عن الاستبداد يبطش بالدستور أو الظلم يجور على الحق أو البغض ينتصر على الحب أو الاثرة تفوز على الايثار وسنرى هذا الوطن كما نرى غيره من أوطان العالم حراً تعيش فيه الامهات حرائر متعلمات ويعيش فيه الرجال علماء أيقاظا يدرسون هذا العالم ويتمتعون به ويقصرون همومهم على اسعاده . ولولا هذا الايمان بأن العالم يرتقى لما كان لحياتنا معنى أو مبرر للبقاء . وفى هذا الايمان قوة تؤاتينا على الخير والبر . ثم فى ذلك كله شعور بالسعادة لانا نؤدى عملا يرتاح اليه ضميرنا ويتفق وما فى صميم نفوسنا من نزعات وهذا بخلاف ماإذا عملنا للشر وناهضنا التقدم فاننا نشعر بأننا نكافح فى نفوسنا نوازع الرقى فيأخذ اليأس مكان الرجاء ونقيم حياتنا على مضض وعنت

فكلنا يجب أن يكون هذا المركيز دو كوندورسيه يعمل لرقى الشعب ويؤمن بهذا الرقى فانه حقيقة لاشك فيها وأول مانرى برهانه فى أنفسنا إذ لايمكننا أن نفكر فى ترقية الناس مالم نرتق نحن أولا . ولا عبرة بعد ذلك بالعوائق فان النهر العظيم لينحرف بعض الانحراف فى مجراه ولكن بالغ مصبه

فى الحب

من القصص العظيمة التى مثلها المستر اتكنز فى القاهرة قصة « تاجر البندقية » وفيها يخاطب اليهودى المسيحيين الذين يتعصبون عليه ليهوديته فيقول موضحاً لهم أن اليهودى لايختلف من المسيحى

« أليس لليهودى عينان ؟ أليس لليهودى يدان وأعضاء وحواس وعواطف وشهوات ؟ أليس يطعم بالطعام ويجرح بالسلاح نفسه وتنزل به الأمراض نفسها ويشفى بالوسائل ويدفأ ويبرد فى الصيف والشتاء كالمسيحى ؟ أليس يخرج منا الدم اذا وخزنا ؟ وألسنا نضحك اذا جشنا ونموت اذا سممنا ؟ »

وما أحرانا بأن نذكر كلمة هذا اليهودى حين يطمو بنا التعصب القومى أو الدينى . فنحن كلنا اخوان فى هذه الدنيا وخير لنا أن نتحاب من أن نتكاره لاننا بالحب نستطيع أن نتعاون وبالحب نستطيع أن نعمل مالا نعمله بالبغض والكراهية

ويقص الانجليز قصة يستخرجون منها عبرة الحب . وهى أن أحدهم خرج فى يوم قد كثف

ضبابه . والأشباح تتجسم فى الضباب حتى يهول منظرها على بعد . فرأى وهو سائر فى طريقه شبحاً كبيراً مخيفاً فارتاع منه . فلما اقترب منه قليلا تبين له أنه رجل . فلما واجهه عرف أنه أخوه وهكذا نحن فى هذه الدنيا نحسب الناس غرباء عنا فنخشاهم ونتوجس منهم ولكن الواقع اننا نحن وهم اخوان بل اخوة قد اتصلت دماؤنا بدمائهم . فاذا حسب المصرى مثلا وأحصى مقدار ما دخله من دماء الامم الاجنبية فى نحو أربعين قرنا مضت لوجد أنه خليط من الدم الرومانى والعربى والانجليزى والفرنسى والسورى والصينى والتركى

فنحن لسنا أبناء مصر فقط بل أبناء هذه الدنيا واذا كانت مصر وطننا الأصغر فالعالم وطننا الأكبر . ويجب لذلك أن يكون الحب والتعاون وسيلة التعارف والمعاملة بيننا وبين الناس سواء أكانوا مصريين أم غير مصريين . وبهذه المناسبة نذكر كلمة للمشترع الانجليزى المعروف بنتام حيث يقول : «ان سبيل الراحة لنا هو أن نعمل لراحة الآخرين . وسبيل الراحة للاخرين انما يكون بأن نبدو لهم كأننا نحبهم . وانما نبدو لهم كأننا نحبهم اذا أحببناهم بالفعل»

وهذا كلام صريح وحقيقة تتضح لكل من اختبر الناس . فاننا لا يمكننا أن نرتاح الى الدنيا والناس مالم تكن علاقتنا بهم علاقة الحب . وراحتنا لا تقوم الا براحتهم

ولكن الوحش القديم لا يزال للاسف حياً فى الانسان فما زلنا نفكر فى التنازع بدلا من أن نفكر فى التعاون ولا يزال التنازع للان خطة التعامل الرسمية بين الدول وأفظع ضروب هذا التنازع هو الحرب : ولكن العالم كله يسير من التباغض الى التحاب ومن التنازع الى التعاون وينهزم الوحش فى الانسان رويدا رويداً . ففى العالم الآن محاكم تحاكم أمامها الدول وفى كل أمة متمدينة جمعيات تتعاون على البر وتنشر العلم والصحة وترفع الكرامة الانسانية

ولا عبرة بعد ذلك بأن تبقى فى عصرنا أشياء من متخلفات الماضى كالاستعمار والسجون والرق الاقتصادى فان كل هذا سيزول لأن الحب سيتغلب على البغض وسنرى أو يرى أولادنا يوماً ما حل الامبراطورية البريطانية واستحالة السجون الى مدارس ومستشفيات وارتقاء العامل الى حيث يملك كل ثمرات عمله بدون أن يكون فوقه واحد يعيش من كده ولا يعمل شيئاً لفائدة الناس

ولكن الحب للأفراد فيما بينهم ليس فى ذاته صدقة يتصدق بها الواحد على الآخر بل خطة تعود بالراحة والسعادة على من يمارسه : فهو لذلك يستحق الثمن الذى ندفعه بما نكلف أنفسنا من معاونة الناس وابداء الحب لهم بخدمتهم الخدمة النزيهة التى تدل على أن ما نظهره لهم هو طبق ما نبطنه

الطفل والطفولة

ليس شيء فى العالم يبلغ فى الحلاوة منظر الطفل وهو يتلبط على صدر أمه وينظر اليها نظرة فاتنة تنسيها كل ما تعالجه فى سبيله من آلام . واذا كان الجمال يتمثل فى المرأة أو الرجل فالحلاوة تتمثل فى الطفل الذى تكمن فى نفسه عناصر الانسان الراشد . وليس شىء ألذ عند الام أو الاب من ان يريا هذه العناصر المندغمة فى طبيعة الطفل تتفتح رويداً رويداً حين تتشوف هذه النفس الصغيرة الى الرجولة أو الانوثة القادمة . فيرى الجواد لاول مرة فى حياته ويتأمل من ذنبه الى رأسه ويسمع عن الكذب ويدرك كنهه لاول مرة ويأخذ فى اكتشاف هذه الدنيا قطعة بعد قطعة وهكذا الى ان يشب الطفل فتنكشف طبيعته عن انسان سوى

ولكن اذا كانت الطفولة حلوة بطبيعتها فان عندنا من العادات ما يحيل هذه الحلاوة الى بشاعة حين نرى الطفل وقد كساه الذباب أو حين يأكل الرمد عينيه أو حين يتقلب فى الاوساخ ولمثل هذه الحال الاسيفة أقامت الليدى لويد سوقاً خيرية للعناية بالاطفال فاستحقت بذلك الشكر الخالص من كل مصرى

ولكن العناية بالطفل يجب أن تبدأ قبل ولادته . فيجب ان تمنع الفتاة الصغيرة من ان تلد بل من ان تتزوج لأن صغر سنها اذا لم يكن سبباً لعسر ولادتها ووفاتها كما يحدث كثيراً عندنا وعند الهنود فانه من اكبر أسباب الاهمال لصحة الطفل وتنشئته النشأة الحسنة فى جسمه وذهنه ثم يجب ألا يتزوج الا من كان سليم البدن حتى لا يولد الطفل وهو يحمل عبء أبويه من الامراض التى نزلت بهما لاهمالها السابق

ويجب ان نذكر أن أثمن ما فى الامة من ثروة هم أولادها فاذا نشأوا على التربية الحسنة والخلق العظيم والذهن المثقف كانوا قوة لا تعادلها فى جلب الثروة واستكثارها كثرة الاراضى أو المناجم أو المصانع . فان رأس المال الحقيقى لكل أمة هم أولادها . ومن الغريب ما نراه فى مصر ان معدل المواليد عال جداً وكذلك معدل الوفيات فى الاطفال . بل يحدث فى أشهر الربيع عندنا ان تزيد الوفيات على المواليد فى المدن الكبرى وهذه الزيادة ترجع الى ثقل الوطأة التى تنزل بها الامراض على الاطفال فتحمل أجسامهم الصغيرة الى القبر بعد آلام لا تطيقها هذه النفوس الغضة فى الامعاء والرأس . وعلة هذه المآسى كلها جهل الآباء والامهات . وهذا الجهل متراكب فهو من ناحية جهل بتحديد النسل حتى يزدحم البيت بالاطفال فلا تقوى الام على

تربيتهم ولا يقوى الاب على العناية بهم لقلة دخله ثم عندنا ايضاً جهل الام التى تقدم الطعام الجامد للطفل قبل ان يتم سنته الاولى فلا تقوى أمعاؤه الرقيقة على هضمه فتستحيل ثعابين تتلوى فى بطنه حتى يموت . وأيضاً هناك جهل الاب الذى يتزوج وهو لا يبالى بمرضه ثم هناك الطامة الكبرى فى زواج الفتاة وهى بعد صغيرة لا تصلح للامومة

فكل هذه عيوب يجب على الآباء اصلاحها . وهناك عيوب أخرى يجب على الحكومة ازالتها نعنى بها كثرة الذباب . فهذه الحشرة الخبيثة تقتل عشرات الالوف من أطفالنا كل سنة . وهى قليلة الآن فى المدن الاوربية لان الاتومبيل قد طرد الخيول من المدن وزال بذلك روثها الذى كان الذباب يبيض فيه . ولكن الخيول ماتزال تملأ مدننا وتدنس شوارعنا بروثها . ان الطفل حلاوة مجسمة وهذه الحلاوة لا تتفق والاوساخ والامراض

الحكم بالاعدام

كتب بعضهم وصفاً للطرق الشائعة فى اعدام المجرمين على المشنقة فاجاد الوصف وأوجع القراء وأوسعهم ألماً وخجلا

ولا أظن أنى أنفرد فى الشعور بالالم والخجل كلما قرأت هذا الوصف فانى لا أعتقد أنى أرق احساساً من غيرى من القراء . فالحكم بالاعدام وتنفيذ الاعدام عملان لايمكن أن يؤديهما انسان الا وهو كاره بل وهو مضطر . بل لقد حدث من مدة قريبة ان الجلاد فى باريس قد اقيل من منصبه فرغب فى الظهور على المسرح فطرده الجمهور ولم ينفعه اعتذاره بأن الحكومة لم تعين له معاشاً بعد إقالته . وذلك لاننا فى أعماق نفوسنا نكره كل من يلطخ يده بالدم

ومع أن العادة تيسر كل شىء وتسهل الصعب فاننا ما زلنا نتألم على الرغم من تعودنا قراءة أخبار الاعدام كلما ذكرت الصحف اعداماً جديداً لاحد الاشقياء . ونحن جديرون بالفخر لهذا الالم لانه يدل على أننا قد أرتقينا حتى صار يأبى ضميرنا أن يقنع بحجة العدالة فى هذا الانتقام الصريح

فليس شك فى أن الاعدام انتقام وانه برهان على العجز فى معالجة القتل . فنحن بالطبع لانقصد الى ترقية القاتل باعدامه وانما نقصد الى المقاصة التى نقول اننا تركناها للاسلاف القدماء وبقاء الاعدام الى زماننا هذا وصمة لكل انسان وخاصة اذا علمنا أنه الغى فى عدة امم فلم تزدد جرائم القتل بالغائه

واذا كان كل انسان منا يتألم كلما سمع بخبر الاعدام واذا كان جميع من يزاولون تنفيذ الحكم أو يحضرونه يشعرون بالخجل ويخرجون وأعصابهم ممزقة من منظر يغم على أذهانهم ويملأ

نفوسهم بالكرب كأنهم هم المسئولون عن هذه الجناية فلم لا نلغى هذه العقوبة ؟

انا نعيش الآن فى عصر تدعونا مظاهره كلها الى الشك فى مبادئه وأغراضه وأخلاقه ونزعاته فهل يجوز لنا الشك فى كل شىء مع الجزم بفائدة الاعدام وحده ؟ مع ان الاعدام حاسم لا يمكن الرجوع فيه أو التعويض منه . والانسان عرضة للخطأ فى كل أحكامه وليس شىء فى العالم نحن متأكدون من صحته فيجب لذلك أن نجعل لاحكامنا مجالا للمراجعة والتحرير ولو رجعنا الى أحكام الاعدام الماضية التى ذكرها التاريخ فى الاضطهادات الدينية والسياسية العديدة لكانت حوادث الاعدام أكبر وصمة فى هذه الاضطهادات

ان كل من يدرى شيئاً من أسرار النفس البشرية يعرف ان الوحش القديم لا يزال حياً فى كل منا وانه عند ما يطمو بأحد فى نزوات الشر فانه لاقبل له فى رده . ومهمة الحضارة استئناس هذا الوحش وتذليله . ولكنه يجمح أحياناً ويخرج على العقل وعندئذ نرى القاتل

ولكن تذليل هذا الوحش الكامن بحكم الوراثة فى نفوسنا يحتاج الى عناية بالوسط فاذا كان سيئا فان الارجح أن الغرائز الشريرة الموروثة تتغلب وتنطلق . ومن هنا قال رسكين الاديب الانجليزى المعروف ان العقاب اللائق لاية جناية تقع ألا يؤخذ الجانى نفسه بل يقترع على سكان المدينة التى يقيم فيها ويؤخذ من تصيبه القرعة فيعاقب . وهو يعنى بذلك أن الجناية تنبت من الوسط الذى يعيش فيه الجانى فكل من فى هذا الوسط مسئول عنها ولذلك اذا أردنا العقاب فلنقترع عليه ما دمنا كلنا مسئولين

وخير من معاقبة القاتل بجناية قتل أخرى أن نرقى هذا الوسط فننشر التعليم والحرية ونقلل التفاوت فى الثروة . ومع كل ما نقوم به من ترقية وتفريج للعواطف المحبوسة فان الوحش القديم سيطمو بنا أحياناً وينزو نزواته الشريرة فنرتكب جريمة القتل فى أنفسنا وفى غيرنا . ونحن نشفق على المنتحر ونعرف أن أزمة الاعصاب التى وقع فيها انتهت بالقضاء على نفسه ولكننا لانشفق على القاتل مع أن أعصابه قد تكون أحياناً فى أزمة أشد من تلك التى تصيب المنتحر وفى السجن المؤبد بدل من القتل

ذنب المرأة

من مدة قريبة شكت زوجة زوجها الى المحاكم الانجليزية تطلب الطلاق لأنه زنى بامرأة أخرى . ثم رأت المحاكمة ستطول فاستعجلت القاضى فى الحكم بالطلاق وتعللت بأن التأخير

سيؤذى المرأة الزانية لأنها قد تلد قبل أن تتمكن من الزواج بزوجها فيولد ابنها وعليه وصمة فهى لذلك تستعجل القاضى حتى يتمكن زوجها من تزوج هذه المرأة وحتى يولد الولد فى بيت شرعى ولادة شرعية شريفة

فهذه الحادثة الصغيرة تبعث الانسان على التفكير فى قلب المرأة وهل هى تنزع الى الخير أم الى الشر اذا نالت حريتها . والواقع أن المرأة لم تكشف عن طبيعتها قط . فقد عاشت الى الآن فى مايشبه الرق الذى تختلف درجاته بين أمة وأخرى . وقدلايقوم هذا الرق على الشرائع المدونة ولكنه يقوم على الرأى العام ولهذاقوة لاتقل عن قوة الشرائع لانه يقسرنا بعامل الحياء واللياقة على أعمال ومضايقات لاتستطيع الشرائع أن تقسرنا عليها بعامل العقوبة . وما دامت المرأة غير حرة فما يبدو منها الآن من دناءة تبعثها الغيرة ليس حجة عليها وليس دليلا على أن نفسها مطبوعة على الدناءة

والواقع الذى نراه الآن أننا نجد عند الرجل من الاريحية والتسامح والصراحة والبر أكثر مما نرى عند المرأة . ولكن الارجح أن ذلك لايرجع الى اختلاف فى طبيعتى الرجل والمرأة وانما يرجع الى اختلاف الاحوال عند كل منهما . فالرجل يستشعر القوة والاستقلال ويرى أبواب الرزق مفتحة أمامه والفرصة متاحة فى كل وقت فنفسه تسخو بما لا تسخو به نفس المرأة لانها ترى العيش ضيقا أمامها وحريتها محدودة والرأى العام يمنعها من مزاولة الاعمال التى يعملها الرجل

وأرجح الظن أن المرأة عند ما تنال حريتها وتعتاد هذه الحرية مدة ما تذهب عنها آثار الرق السابقة ونرى عندئذ أمثال هذه الانجليزية التى لاتنسى وهى مكسورة القلب من الزوج الخائن أن هناك ولداً يوشك أن يدخل هذا العالم بغير رغبته ويوصم بوصمة الزنا طول حياته بغير جريرته فهى تتقدم لانقاذه مع ماتشعر به من غيرة تأكل القلب وتغم على الذهن

وما أحرانا بأن نعمل كلنا لكى نبلغ هذه الحالة ونرى المرأة مستعدة لمثل هذه المواقف الشريفة . وانما يكون ذلك اذا علمناها حتى يتسع الافق الذى تنظر اليه فى هذا العالم . فهو الآن محدود عندنا بحدود البيت ولكن البيت مهما أكبرنا شأنه وتمجيده لايزال ضيقا والمرأة انسان يدخل هذا العالم لكى يعرفه ويتمتع به . فيجب أن يعدو نظرها حدود البيت ويجب أن تدخل غمار الاعمال كالرجل ويجب أن تستشعر القوة والاعتماد على النفس حتى تصرح لنا عن عفو نفسها بلا مواربة أو مداجاة

وبمثل هذه الحرية التى تورث المرأة القدرة والكفاية يتحول الزواج من حرفة تطلبها لكى

تعيش منها وتنظر الى نفسها فيها كأنها خادمة للرجل الى شركة حقيقية قائمة على التساوى والاحترام المتبادل بل الحب المتبادل بين الزوجين . فالحب لايكون ثمرة القسر والاضطرار وانما يجب أن يخرج من القلب عفواً . ولكن المرأة لن تكشف عن قلبها حتى تستشعر القوة أما اذا كانت ترى فى نفسها العجز فانها تضطر الى أن تبيع قلبها لمن يدفع أكبر الاثمان فهى عندئذ توارب وتداجى وتتزوج على سبيل الاحتراف تنشد من الزواج عيشا فقط

فلكى تكون المرأة صريحة بل لكى تسمو الى الفضائل التى نعزوها عادة الى الرجل يجب أن تتحرر وتستقل بالتعليم وبالدخول فى غمار الاعمال . وعندئذ نرى ان فى المرأة شجاعة وبر وتضحية وتشبه مارأيناه من هذه المرأة الانجليزية عند ماضحت بغيرتها براً بطفل لم يولد

التغلب على المصاعب

أذكرنى حادث تعيين الدكتور طه حسين عميداً لكلية الآداب ثم استقالته منها ، بحادث آخر فى انجلترا يصح أن يكون موضوع هذا المقال حتى يرى القارىء كيف يتغلب القلب الكبير والهمة الشماء والنفس العالية على المصاعب والعقبات

فكما أن العمى لم يمنع الدكتور طه حسين من التفوق حتى يبلغ عمدة كلية الآداب فكذلك هو لايمنع الآن الكابتن أيان فريزر من أن يكون نائبا فى البرلمان الانجليزى . ولكن أعظم مثال للهمة تستهين بالعقبات وتتخطاها هو بلا شك مثال هنرى فوصت . فقد صار هذا العظيم مديراً للبريد فى بريطانيا العظمى مع أنه كان أعمى

فقد ولد هذا الرجل سنة ١٨٣٣ فلما شب التحق بجامعة كمبردج وكان جميل الوجه مديد القامة ذكى الفؤاد وكان مغرما بالخيل فركب جواده فى احد الايام وخرج فى جماعة ولكن جواده عثر به فسقط هنرى فوصت واصطدم رأسه بالارض صدمة عنيفة فنهض منها وهو أعمى لم يبرأ طول حياته من العمى

ولو أن أحد غيره نزلت به هذه النازلة لاستسلم لحكم القدر وانزوى عن الحياة العمومية وعاش وادعا هادئا فى بيته . ولكن فوصت لم يكن ليقر بالهزيمة فى الحياة ولن ينهزم انسان مادام لايقر بالهزيمة

وهكذا عمد فوصت الى درس « الاقتصاديات » حتى برع فيها وعينته جامعة كمبردج أستاذاً فيها لهذا العلم . وفى أحد الايام فى سنة ١٨٦٤ كان فى برتيون يتنزه فسمع عن خطبة سيلقيها المرشح للبرلمان عن حزب الاحرار فقصد الى قاعة الاجتماع ليسمعها ، فلما انتهى

الخطيب من القاء خطبته وقف فوصت وألقى خطبة على سبيل التعليق والانتقاد للخطيب السابق فاستهوى أفئدة الجمهور حتى اتفق رأى الاحرار على تعيينه هو مرشحا للبرلمان بدلا من الخطيب وذلك على الرغم من أنه كان أعمى

ولما صار عضواً فى البرلمان أخذ يدرس المسائل السياسية ويدأب فى فهم تفاصيلها حتى بلغ من معرفته بشئون الهند أن أطلق عليه اسم « نائب الهند » وكان أكبر الاعضاء همة فى ترويج الاصلاح والدعوة الى تحسين الاحوال المعيشية وعرف له الاحرار اخلاصه وذكاءه وهمته فعينته وزارة غلادستون سنة ١٨٨٠ مديراً للبريد العام وهذا منصب من مناصب الوزارة وأدى فوصت واجبات هذا المنصب الاداريه أحسن أداء كما نظن أن الدكتور طه حسين كان يؤدى مثل هذه الواجبات بكلية الآداب لو لم يستقل

والعبرة لك أيها القارىء الآن هى الخلق العظيم الذى يستهين بالكوارث مهما جل خطبها ويتخطى العقابات مهما تراءت عظيمة مخيفة . فهذا العمى الذى يحسبه كل منا أنه أكبر كارثة تنزل بانسان لم يمنع المستر فوصت من أن يصير وزيراً للبريد فى انجلترا . وليس شىء أدعى الى تعجيز المرء ومنعه من أن يرقى بنفسه وينافس اخوانه من هذه الآفة

فاعتبر ذلك ايها القارىء واعلم أن الفقر والمرض هما دون العمل فى الانتصار على المصاعب والظفر بثمار النجاح . ولكن يجب أن يكون لك قلب جرىء وهمة شماء ودأب فى العمل واقامة على بلوغ الغاية . فانت نفس وجسم معاً . ولكن نفسك أكبر من جسمك كما أن بصيرتك خير من بصرك ومادامت نفسك سليمة لم يدخلها الجزع أو الهزيمة فان الفقر والمرض والعقبات المختلفة ليست كلها شيئاً أمام الهمة الحافزة التى تستثيرها النفس العالية

فاذا كان الدكتور طه حسين ينال عمدة كلية الآداب واذا كان الكابتن أيان فريزر ينال عضوية البرلمان البريطانى بل اذا كان المستر فوصت يرقى الى درجة الوزارة وينال ثلاثتهم هذه المراكز العالية مع آفة العمى التى لاعلاج لها فماذا أنت فاعل بنفسك وأنت موفور الصحة كامل البصر ؟

الحق أن فى الامثلة مايحفز الهمم الخامدة ويدعو الى الثقة بالنفس والايمان بأن الارتقاء ميسور لكل انسان حتى مع النقص البادى يكون هذا النقص نفسه حافزاً للنفس العالية على الاجتهاد والتفوق كما هو باعث للنفس الدنيئة على الاستكانة والاعتكاف والفرار من ميدان العمل

فاجعل من نقائصك حافزاً لك يعزيك بالاستكمال فى النواحى الاخرى من النشاط ويبعثك على أن تزداد علماً وجاهاً وثروة وخدمة لبلادك . والناس عندئذ يكرمون فيك هذه الهمة التى رفعتك على الرغم من النقص

عبرتان من اعلان

لاتذكر روسيا الآن فى صحف أوربا الا وهى مقرونة الى البغض والحذر والتوجس وقد لايكون هذا غريباً اذا تذكرنا ماحدث من الانقلابات العظيمة فى تلك البلاد . والناس يخشون الانقلابات مهما كانت طبيعتها وغايتها . ولكن تكرار رؤية الشتائم تصب على رأس الشيوعيين متوالية بدون أن يعثر الانسان على كلمة عطف أو رحمة ليس مما يسر النفس لانه مهما أبغضنا الاعداء وخشيناهم فانه من المروءة أن نقرن الى بغضنا شيئاً من الرحمة والعطف

لقد جالت هذه الخواطر برأسى وأنا أقرأ اعلاناً فى الصحف الانجليزية من احدى الجمعيات الخيرية تطلب فيه من الجمهور الانجليزى أن يتبرع بمبلغ ٥٠٠٠ جنيه لتأسيس مدرسة فى روسيا لتخريج الممرضات . وفى هذا الاعلان عبرتان لكل قارىء مصرى بل عربى

العبرة الأولى هى وضع الندى فى موضع السيف أو الحب فى مكان البغض . فان الجمهور الانجليزى أشد جماهير العالم كراهية لروسيا التى تهدد الامبراطورية البريطانية وتصارح أوربا بضرورة هدمها ومحو الاستعمار حتى باتت الهند محفوفة بالجواسيس خشية تسرب الشيوعيين اليها . ومع كل هذا فان هذه الجمعية البريطانية تخاطب فى الجمهور عواطف الرحمة والرقة وتطالبه بالتبرع لتأسيس مدرسة للممرضات فى روسيا غايتها تخفيف المرض ومواساة المريض والعناية بصحة الشبان والأمهات . فما أشرف هذه الغاية فى مثل هذه الظروف وما أجدرنا نحن بأن نقتدى بهذه الجمعية فنقهر فى أنفسنا عواطف الشر والعداوة ونغلب عليها عواطف الخير والصداقة ونعمل على الدوام للبر حتى بأعدائنا

هذه هى العبرة الاولى . أما العبرة الثانية فهى أن هذه الجمعية ناشدت فى الجمهور الانجليزى الرحمة والبر بحق أولئك الادباء العظام من الروس الذين كانوا سلوى ونوراً وقوة لكل من قرأ مؤلفاتهم . فقد ذكرت فى أعلى الاعلان بحروف واضحة أسماء دستوفسكى وتولستوى وتورجنيف وتشيهوف وهم أدباء روسيا الذين تقرأ الآن مؤلفاتهم فى كل لغة حية ثم قالت بعد ذلك :

« اننا مدينون لهؤلاء الروس العظام بما أوحوه الينا من البصر بالحياة والنظر للمستقبل حتى زادوا بذلك ثروة الحياة والتفكير فى العالم . وفى مقدورنا أن نرد الى الشعب الروسى بعض هذا

الجميل بأشارة خير قد تساعد على أن تزيل من الجو آثار الخصومة وسوء التفاهم من البلدين . وفن التمريض الآن فى روسيا متأخر وفى حالة يرثى لها ونحن شارعون فى انشاء مدرسة لتعليم هذا الفن يقوم بأدارتها معلمون من انجلترا وأميركا . . الخ ،

وهـذه العبرة لها مناسبة خاصة فى وقتنا الحاضر . فان جملة عناصر تعمل الآن جادة مثابرة على أن تجعل من الأدب المصرى وسيلة للتعارف بين العالم ومصر . فجريدة الاهرام قد أنشأت جائزة لترجمة بعض أشعار شوقى الى الانجليزية والفرنسية . ومنذ أيام قدم الى مصر المسيو لوشير ليسعى لدخول مصر فى معهد التعاون الذهنى الذى تشرف عليه عصبة الأمم . وقد أقام أخيراً فر من الاجانب المقيمين فى مصر حفلة لتكريم شعرائنا الثلاثة شوقى ومطران وحافظ

فهذه كلها ظروف تجعلنا نفكر فى ناحية من نواحى الأدب المصرى وهى أن تكون احدى غاياته البر والحب والتعارف بين مصر والعالم كما كان الأدب الروسى بحيث يقرأ الانجليزى أشعارنا فيحبنا ويحترمنا ولا نجعل المدفع والسيف وسيلة التخاطب بيننا وبينه كلما دب خلاف. ولكن الأدب المصرى فى حاجة إلى أن ينزع نزعة جديدة حتى نستطيع أن نعرضه على الاوربيين سافراً بدون أن نخجل منه . فان فى أشعارنا للأسف مدائح طويلة لاستبداد عبد الحميد وهذه لو قرأها الاوربى لكرهنا واشمأز منا بدلا من أن يحبنا . فان الاوربيين والعالم كله يحترمنا لاننا أبناء أولئك الفراعنة الذين اخترعوا الحضارة الاولى للعالم وما زالت آثارهم تبعث الدهشة والعبرة . ولكن مصر الحديثة تحتاج الى أدب جديد يكون صورة لنفسها وسجلا لأمانيها يقرأه القارىء الفرنسى أو الألمانى أو الانجليزى فيسر به وينتفع ويزيد آماله رحابة ويقوى فيه عواطف الحب والبر . ومثل هذا الأدب لم ينشأ بعد

التسامح الدينى

كلما احتدت المناقشة بين خصمين على صفحات الجرائد وشعر أحدهما أنه مغلوب مفحم عمد الى الآخر فاتهمه بأشياء تعدو حدود المناقشة قد تكون تهمة الكفر احداها

ولو أن أحداً اتهم آخر فى أوربا بمثل هذه التهمة لعد هذا منه نهاية الوقاحة لان العقيدة الدينية تدخل فى لباب الضمائر وليس من الحياء أن نفتش ضمائر الناس لنعرف عقائدهم ونقف على أسرار علاقاتهم مع ربهم . بل ليس من الحياء أن يسأل أحد الناس الآخر عن عقيدته

ولكننا نحن فى مصر مازلنا بعيدين عن هذا الطور حين نحترم لكل انسان عقيدته ونكف

عن التنقير والتفتيش فى قلوب الناس . ولكن يحق لنا أن نسأل أولئك الذين يقذفون خصومهم بكلمات الكفر والزندقة لعلة ولغير علة : هل يمكن أن يكون الانسان كافراً ؟

أن تاريخ « الكفار » الذين اضطهدوا فى أوربا وفى الشرق يثبت أنهم كانوا أكثر ايماناً ممن اضطهدوهم . فقد اضطهد الرومانيون المسيحيين وقتلوهم تقتيلا فظيعاً ونحن الآن نعرف أى الفريقين كان أكثر ايماناً . واضطهدت جاهلية قريش المسلمين ثم عاد المسلمون والمسيحيون فاضطهدوا المتصوفين منهم . ونحن نعرف فوق ذلك أن الملك الكافر فى تاريخ الفراعنة هو اخناتون وهو الوحيد الذى آمن بالله ورفض عبادة الأوثان المصرية

فمعنى الكفر ليس فى الحقيقة عدم الايمان . بل المخالفة فى العقيدة فقط . وتعيش فى زماننا هذا أمرأة هى مصداق مانقول نعنى بها المسز بيزانت الانجليزية فانها كافرة من حيث مخالفتها للعقائد الدينية الشائعةولكنها أكثر ايماناً من أى انسان على ظهر هذه الكرة . وفى تاريخ حياتها عبرة لاولئك الذين لايبالون بالتنقير عن سرائر النفوس وقذف الضمائر

فهذه المرأة نشأت مؤمنة بالمسيحية وتزوجت قساً من قسوس الانجليز ولعل هذا الزواج لم يكن حباً لشخصه فقط بل كان أيضاً حباً لهذا الايمان الذى أرصد حياته لخدمته . وعاشت عدة سنين وهى عابدة تصلى لاتهمل فريضة أو نفلا . ثم دب الشك فى قلبها وتزعزع ايمانها . وكانت من شرف النفس وعلو الهمة بحيث لايمكنها أن توارب أو تدارى أو تقعدعن الكفاح فى سبيل ماتؤمن به . فتركت زوجها وخرجت تدعو الى الالحاد بما لها من قوة ومال وعلم واتصلت بزعيم الالحاد فى ذلك الوقت المستربرادلف فعمل الاثنان معا فى نشر الالحاد فى انجلترا وكانت لهما مجلة تخرج على الناس كل أسبوع بما يؤذى عواطفهم الدينية . ولكن العلم القليل الذى يدعو الى الالحاد لم يطل عليه الوقت حتى تغلب عليه العلم الكثير الذى يدعو الى الايمان فرأت أنه كلما ازدادت توسعا فى الثقافة الدينية ازدادت ايمانا وزكا قلبها بالحب للناس واتحدت أنغامها مع أنغام هذا الكون من انسان وحيوان وجماد حتى صارت تؤمن بوحدة الوجود وحتى أصبحت زعيمة لهذه الصوفية الجديدة التى تدرس الاسلام والمسيحية والبوذية وسائر أديان العالم وتنشد منها الصلاح والخير والبر

فهذه المسز بيزانت ليست مسيحية ولا هى مسلمة ولكنها الآن مسيحية ومسلمة وبوذية تريد من الدين أن يكون عفوالنفس ينبع عن مجاهدة واختيار فلا يقسر الناس عليه قسراً ويحملون على التعصب له . فهى ترى أن طبيعة الانسان دينية وأن الايمان ثمرة تثمرها الناس اذا نضجت

وهذه المرأة هى الآن فوق الثمانين من عمرها تعيش معظم أيامها فى الهند وتدرس أديانها

القديمة وتطلب من أبنائها الحاضرين أن يستقلوا عن الانجليز وقد كافحت الاستعمار الانجليزى فى الهند حتى حبست من أجل الهنود وهى انجليزية . فمن منا يجرؤ على أن يقول لهذه المرأة بل لهذه الانسانية العظيمة أنها كافرة وهى التى كافحت طول حياتها لتحرير ضميرها من أجل الحق ووقفت فى وجه أبناء وطنها من أجل الحق وآمنت ثم كفرت ثم آمنت من أجل الحق . وكانت كل هذه الجهود عن نفس حرة تأبى الخضوع للعقيدة تقسر عليها ولا تؤمن بها

الموتى لايحكمون الاحياء

منذ مدة مات القصصى الانجليزى المعروف توماس هاردى وأوصى وصية لفتت نظر الكتاب وبعثتهم على انتقاد الميت وتجريح أخلاقه لأنه أشترط فى هذه الوصية بأن يكون نصيب زوجته مادامت لاتتزوج ٦٠٠ جنيه فاذا تزوجت لم يكن حقها فى الميراث سوى ٣٠٠ جنيه فقط فى السنة

وواضح أن فى هذا الشرط من دناءة النفس مايشبه أويشير الى تلك العادة الهندية التى كانت منذ نحو ٧٠ سنة أو ٨٠ سنة تقضى بأن تحرق المرأة بعد وفاة زوجها . وقد خففت هذه العادة الآن الى بقاء الزوجة التى يموت زوجها أرملة مدى حياتها . وليس هذا بالأمر الهين على المرأة الهندية فانها تتزوج وهى صبية وتترمل أحيانا قبل أن تبلغ العاشرة أو الخامسة عشرة فتعيش مدى حياتها فى عار الترمل وآلام الحرمان وكتم العواطف . وهى مع ذلك تشكر الحظ الذى لايقضى عليها بالحرق كما كان يفعل بجداتها

فوصية توماس هاردى وان لم تكن فى قوة إحراق الزوجة فانها من نوعها لان الاختلاف فى الدرجة فقط . ففى الهند كان الزوج يخشى بقاء زوجته بعده ويتوقع حبها لغيره فكانت تحرق وتوماس هاردى يخشى أن تحب زوجته رجلا غيره فهو يعاقبها على هذا الحب بانقاص دخلها السنوى الى النصف

وفى كلتا الحالتين ترى الميت يريد أن يحكم الحى ويجعل نزوات نفسه ونزقات قلبه حية تعيش بعد موته وهو رمة بالية فى القبر . وهو فى هذه الحال أشبه شىء بذلك الرجل عندنا يوصى بأمواله لبعض الورثة دون البعض ثم يموت ويترك لهم البغضاء والحسد طول حياتهم . وهذه الدنيا يملكها الأحياء ولايملكها الموتى فمن حق الحى ألا يعنته الميت ومن واجب الميت أن ينام وادعا فى قبره ويترك الدنيا وتسوية مسائلها لأبنائها الذين يسعون على أرضها ويتحملون مشاقها ويتمتعون بملاذها .

ونحن نعيش الآن فى زمن تجيز فيه حتى الامم المسيحية الطلاق بعد أن كانت تنظر اليه الكنيسة

كأنه محال . فاذا كان الاحياء يرون زوجاتهم يتزوجن فى حياتهم ويتزلون على حكم العقل فان من واجب الميت ألا يقرر العقوبات لزوجته اذا تزوجت بعد وفاته وحسبه من حبها تلك الحياة التى قضاها فى هناء الزوجية والذكرى التى تمجد اسمه

واذا نحن تأملنا فى معظم القلاقل والأحن فى العائلات لم نبعد قليلا فى تأملها حتى نجد أنها ترجع الى ثورة الأحياء على الاموات . فانه لما كانت نفس الانسان تنزع الى الخلود فهو يرى فى أبنائه وأسرته وثروته معنى من معانى الخلود ويقرر قبيل وفاته عن سبيل الوصية نظاماً يبقى يمثل ارادته ويشير الى معنى الخلود حين يبلى جسمه فى القبر ولكن طبع الحياة التطور وشأن الزمن التحول فلا تكاد تمضى على الميت بضع سنوات حتى يصطدم نظامه القديم بالاحوال الجديدة ويرى الأحياء أنفسهم معرقلين لا يملكون التصرف فيما ينفعهم بما وضعه لهم الأب أو الزوج أو الجد من شروط للحياة التى يعيشونها هم والتى هم أعرف بمصالحها من هذا المورث الوادع فى قبره والذى كان يعيش حياة لعلها تختلف من جملة اعتبارات من الحياة التى يعيشها أبناؤه أو أحفاده

فذلك الزوج الهندى القديم الذى كانت أرملته تحرق بعد موته وهذا القصصى الانجليزى الذى يعاقب زوجته اذا تزوجت بعده وهذا الموصى الذى يزيد وينقص فى حظوظ أبنائه ويقيد حريتهم فى التصرف كلهم من معدن واحد يريدون أن تبقى ارادتهم خالدة بعد موتهم وهم يضعون لهذا الخلود المنشود برنامجاً هو العنت للاحياء

وشىء قليل من التأمل فى الدنيا يزيل عنا هذا الغرور ويجعلنا ندرك معنى الفناء المادى الى جانب معنى الخلود الروحى فنذهب الى القبر متسامحين راضين أن نترك الدنيا لأبنائها وانما أبناؤها هم الاحياء فهم أجدر من الموتى بتنظيم أحوالهم والتصرف فى شئونهم من حب ومال وعيال

وما يقال فى المواريث يمكن أن يقال مثله أيضاً فى ما خلفه السلف من ثقافة . فهى ميراث للذهن ولكن هذا الميراث يعرقل أذهاننا ويؤخر رقينا اذا أحيط بما يشبه شروط الواقف أو الموصى بحيث نجبر على التزام الطرق القديمة ونمنع من الانطلاق وحرية التفكير

العبيد الذين غلبوا نابليون

كلنا يعرف أن زنوج أفريقية عاشوا قبائل مشتتة تتناحر فيما بينها وتغير عليهم الامم المتمدينة وتسبى نساءهم وأولادهم وتبيعهم فى أسواق النخاسة عبيداً يقضون حياتهم فى الكد والكدح لغيرهم . وكلنا يعرف أنهم يعيشون فى افريقية عيشة التوحش تغشى حياتهم الفاقة ويحصد أولادهم الموت وتستعبدهم الخرافات

وكلنا أيضاً يعرف أن نابليون قد قهر أوربا وبدل التخوم الفاصلة بين ممالكها كما يبدل الانسان خطوط الخريطة بقلمه . وهدم عروشاً وصنع عروشاً كما يصنع النجار بعض الاثاث . ومع ذلك فان نابليون على قوته وجبروته قد انهزم أمام العبيد فى جزيرة هايتى

وقصة هؤلاء العبيد يجب أن تكون ماثلة أمام أعيننا على الدوام مع كفاحنا مع أعدائنا الذين حرمونا من الرقى فى الخمسين سنة الماضية . لأنه اذا كان الزنوج قد استطاعوا بالاتحاد والاخلاق أن يغتصبوا استقلالهم من نابليون فجدير بنا ونحن نفوق الزنوج فى القوة والذكاء أن نحقق استقلالنا أمام الانجليز

وجزيرة هايتى تقع فى شرق أميركا وكانت فرنسا تملكها وكانت المزارع فى أيدى المستعمرين الفرنسيين . والعبيد من الزنوج يكدحون فيها لمواليهم . فلما حدثت الثورة الفرنسية الكبرى وتحطم عرش ملوكها من البوربون وأعلن الثائرون حقوق الانسان بلغت هذه الأخبار السكان فى جزيرة هايتى من البيض والسود حوالى سنة ١٧٩٠ وانشق البيض على أنفسهم بعضهم يدافع عن الملوكية وبعضهم يدعو الى الجمهورية . وانضم العبيد الى الجمهوريين لأن الثورة التى أوجدتهم وأعلنت حقوق الانسان لم تميز بين الاسود والابيض بل أقرت لكل انسان حقه فى الحرية والغت بذلك العبودية . فلما وقف العبيد على مبادىء الثورة وعرفوا منها حقوقهم الانسانية انضموا الى الجمهوريين وقاتلوا الملوكيين من الفرنسيين كما قاتلوا حلفاءهم الانجليز وانتصروا عليهم . وبذلك استقلت الجزيرة . ولما كان الزنوج يؤلفون الكثرة من السكان آل الحكم اليهم وصاروا هم أسياد البلاد

ولكن جاء الطاغية نابليون وحاول أن يفسد مبادىء الثورة الشريفة فبعث بالجيوش والبوارج لاخضاع الجزيرة . ولم يكن الزنوج فى هايتى بارقى من زنوج افريقية فقد كانت الخرافات تتحكم فى أذهانهم وعواطفهم ولهم كهنة يوهمونهم الضعف بممارسة السحر ويتغلبون عليهم ويبعثون الخوف فى قلوبهم . ولكن كانت بينهم طبقة صغيرة من الذين احتكوا بالفرنسيين وأشربوا روح الثورة من الحرية والمساواة والاخاء فعمدوا الى رجل منهم متين الاخلاق فولوه الزعامة وكان هذا الرجل يدعى توسيه لوفرتور

وكان أول ماالتفت اليه هذا الزنجى العظيم فى محاربة نابليون أن عمل للاتحاد بين الزنوج فقهر الكهنة وصاح بالناس وتجاوب الناس صياحه : ان اتحدوا فالاتحاد أقوى من السحر

ثم عمد بهذه الجموع المتحدة من الزنوج فقهر الاسبانيين ثم قهر جيش نابليون الذى كان يبلغ ٣٥٠٠٠ مقاتل وضمن للجزيرة استقلالها فى أيدى سكانها الزنوج الأحرار . ووقع هو

نفسه أسيراً وحمل الى فرنسا حيث قضت دناءة نابليون بأن يقتله جوعا . ولكن الجزيرة لم تعد الى فرنسا بل بقيت مستقلة الى الآن

فاذا كان الاتحاد بين الزنوج العبيد يقهر الأمم العظيمة ويتغلب على جيوش الطغاة ويحيل العبودية الى حرية فأحر به أن ينيلنا استقلالنا ويضمن لنا الظفر فى كفاحنا مع طغاة القرن العشرين. ولكن اتحادنا لن يكون قوياً متيناً حتى نبعد عن البلاد كل نعرة يقصد منها الشقاق وتصديع الكتلة الوطنية . فاذا كان فى بلادنا عناصر تعمل لهذا الشقاق وتفتح الثغرة التى ينفذ منها العدو الى صميم الوطن . فان هذه العناصر يجب محوها ومحقها وإبادتها . فنحن فى مركز يتطلب منا جميعاً أن نتحد ونقف فى وجه خصومنا وقد جندت أجسامنا وعبئت قلوبنا . وما ناله العبيد الذين غلبوا نابليون يمكننا أن ننال نحن مثله أو خيراً منه اذا اتحدنا كما اتحدوا

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن الدعوة الى الشقاق تتخذ أشكالا عديدة منها الطعن فى الزعماء ومنها الحيف على الاقليات ومنها تحريك الضغائن المذهبية ونحو ذلك مما يجب أن نحذره أمام الطغاة

الاجتراء

كنا نقرأ ونسلم بما نقرأه من ان الامم المترفة التى تتقلب فى نعيم الثروة تتدهور وتنحط وتذهب عنها متانة الخلق التى كانت تتسم بها أيام العيش الخشن والطعام الجشب . وكنا نعتقد ان الجراءة والشجاعة والدأب من خصال الخشونة وان الجبن والنكوص ومطاوعة الهوى من خصال النعومة والترف

ولكن نظرة واحدة الى أوربا وأميركا تثبت لنا الآن عكس هذه النظريات القديمة . فان الترف فى هاتين القارتين قد بلغ أعلى مستواه ومع ذلك فهذه الحرب الكبرى أثبتت باحصاء القتلى الذين يعدون بالملايين ان الشجاعة وبذل النفس ومجابهة الخطر خصال لا تنقص هؤلاء المترفين . ثم هؤلاء الطيارون الذين أوشكوا أن يجعلوا من الكرة الارضية وطناً واحداً للانسان والذين يعملون فى الغاء الحدود بين الامم وتقريب المسافات أو مايشبه الغاءها يثبتون لنا ان الجراءة من المزايا المطبوعة فى أخلاقهم . فهذا الفتى العظيم لندبرج يركب طيارته فى غبشة الفجر ويمرق بها كالسهم أو كالقنبلة طائراً فوق المحيط الاطلنطى لا يسمع حواليه سوى أزيز المروحة فيقضى النهار والليل وهو يخترق السحاب ويجتاز به ويعلوه وينحدر منه ثم يغشاه الظلام ويخيم عليه وهو طائر فى الفضاء يقتحم الزمان والمكان وهو قطرة بل شرارة صغيرة من الحياة فى وسط

هذا الفضاء حتى يحط فى باريس فيلبس أحسن ملابسه ويشرب أجود المشروبات ويؤانس السيدات والرجال بأحسن ما نشأ عليه من أخلاق

ثم هذا الفتى العظيم الآخر هنكلر الاسترالى يركب طيارته فى انجلترا فمازال يطوى بها الهواء من أوربا الى أفريقية الى آسيا الى أستراليا وهناك يلتقى بأهله ليخبرهم بأنه أول انسان على هذه الارض استطاع أن يطير من أقصى أوربا الى أقصى أستراليا

هؤلاء هم الاجرياء الذين لم يفسدهم أو يضعفهم الترف . لان الحضارة السليمة التى تخترع الفراش الوثير والطعام المطهم والملبس الانيق تعرف أيضاً كيف تغرس فى النفس ذلك الخلق العظيم الذى لا ينسى الجراءة والشجاعة . بل هذه الحضارة نفسها التى تجعل المرأة تتبرج وتتزين وتجعل معظم البضائع والعروض فى المخازن الكبرى خاصاً بزينة النساء وما يلزم لتجميلهن هى نفسها تلك الحضارة التى تعلمهن العلوم العالية وهى نفسها تلك الحضارة التى جعلت أم لندبرج أستاذة فى الآداب وهى نفسها تلك الحضارة التى تجعل ١٨٧ امرأة يشتغلن بالمحاماة فى باريس وحدها وهى نفسها تلك الحضارة التى جعلت الآنسة جليتز تعبر بوغاز جبل طارق أخيراً سباحة على ثبج الامواج . ولا بد أنك أيها القارىء قد سمعت عن طارق بن زياد كيف انه عند ماعبر هذا البوغاز من أفريقية الى أوربا أحرق سفنه حتى لا يمكن أحداً من جنوده أن يفر ويعود الى أفريقية . ولكن الآنسة جليتز الانجليزية استطاعت وهى امرأة أن تقوم بما لم يكن طارق يظن ان الرجال يستطيعون أن يقوموا به فسبحت من أوربا الى أفريقية

وفى العام الماضى قامت الفتاة الاميركية جرترود أدرل فسبحت من فرنسا الى انجلترا وخرجت الى الشاطىء تضحك وتقبل جدتها العجوز بعد أن قضت نحو ١٤ ساعة وهى تكافح الامواج والرياح وتكاوحها حتى تغلبت عليها . ولا بد ان كلا من الآنسة ادرل والآنسة جليتز تغشيان المخازن الكبرى وتشتريان أجمل الملابس وتتزينان بأجمل ماتتزين به النساء ولكنها فى هذا التبرج لاتنقصها الاخلاق المتينة التى تعرف الصبر والشجاعة والدأب فى بلوغ الغرض

وعبرتنا من هؤلاء الابطال الاربعة ألا نخشى ترف الحضارة فان هذا الترف ترافقه تربية سامية للاخلاق ترفع النفس وتعلم المرأة والرجل خصالا من الشجاعة والدأب والمروءة ربما لم يكن يعرفها آباؤنا . وعبرتنا أيضاً أن نمارس الترف نعنى ترف الجسم كما نعنى ترف الذهن فنعيش فى أجمل المنازل على أوثر الفراش ونأكل أفخر المآكل ونقتنى أجمل الطرائف وأرقى المؤلفات ونقرن الى هذا الترف تلك المتانة التى تتسم بها أخلاق الطيار وذلك العناد وذلك الدأب فى أخلاق السابحات من النساء اللواتى لا تتعير من التشبه بهن

خطة الدفاع

من أغرب الظواهر الطبيعية للحياة أن تلك الأحياء التي بالغت في الدفاع عن نفسها وتدرعت بدروع تقيها من الأعداء وقفت عن التطور وكفت عن الارتقاء . فهذا المحار مثلا نشأ منذ مئات الملايين من السنين أي منذ كان المقطم تغمره مياه البحر ومع ذلك بقي كما هو قطعة هلامية من اللحم مستكنة في بيت من الصدف لا تتطور ولا ترتقي

بل هناك من الحيوان أنواع نجحت في حماية نفسها الى درجة بعيدة أفقدتها بعض حواسها كما ترى في الخلد الذي آثر الاكتنان والاختفاء تحت الارض على السعي فوقها ففقد عينيه

فالمحار عاش متدرعا بصدفه ملايين السنين وهو لا يتطور حتى اننا نجد صدفه للآن في صخور المقطم والخلد لم يقف عن التطور والارتقاء فقط بل هو ارتد للوراء اذ فقد احدى حواسه بل أهم حواسه وهي حاسة النظر لان هذه الحاسة لا تنفع صاحبها الا اذا كان يسعى في النور ويحتاج الى التمييز بين الصديق والعدو أما اذا آثر الاعتكاف واختلاس العيش في الظلام فهو لا يحتاج عندئذ الى هذه الحاسة الراقية . وما أحرانا نحن بان نعتبر ذلك فلا نقنع من الحياة بخطة الدفاع كالمحار والخلد فنتجنب السعي قانعين بأقل العيش راضين بالاعتكاف كأنما نعيش عيشة سلبية هي نفي الموت فقط بل انما يجب أن نسعى ونقتحم الاخطار ونتصدى للعقبات نمهدها أو نزيلها ونهاجم الطبيعة فنكتشف فيها ونخترع ونرتقي من الحسن الى الاحسن

ان الحياة درجات فمنها حياة النبات وهي أحط حياة ومنها حياة هذا المحار وهي أقل من حياتنا وقت النوم ثم تتدرج من ذلك الى أن تبلغ الانسان الذي يلقى من هموم الدنيا أكثر من أي حيوان آخر ولكنه أيضاً يتمتع بها أكثر من أي حيوان آخر ويعيش ملء حياته تجارب واقتحامات وآلاما وملذات

ومن الأمثال الحربية التي تنطبق على الحياة المدنية أن أمثل الطرق للدفاع هي الهجوم فاذا كنا نخشى الفقر فليس سبيلنا الى التقائه أن نحتفظ بالقليل والذي نملكه ونحوطه ونصونه قانعين منه بأتفه العيش وأخسه بل انما نتقي الفقر باستغلال هذا القليل وتأثيله في عمل ما لكي يربو ويزيد مع ما في هذا الاستغلال من التعرض للخطر فالثروة ليست نتيجة الادخار والاتقاء بل هي نتيجة الاستغلال والمغامرة

وهنا يخطر ببالي أن أقابل بين الانجليزي والفرنسي . فالانجليزي مغامر لا يدخر قرشاً ولا يعرف

التقتير خطته فى الحياة الهجوم ولذلك فقد أثرى وتفشى فى العالم وصارت له امبراطورية تتمطى حول الكرة الارضية . أما الفرنسى فيقنع من الدنيا بالدفاع فهو لذلك معتز . لامرأته وسائل عجيبة كريهة فى التقتير ثم هو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل ولا ينفق الاحساب كأنه يخشى الدنيا ولذلك فهو فقير اذا قوبلت أحواله باحوال الانجليزى الذى يهاجم الدنيا ويؤثل أمواله فى الصين ومصر والهند وأميركا

وكلنا من حيث المزاج نجرى على احدى الطريقتين . أما الدفاع والاحتماء ، وأما الهجوم والتصدى . وليس هذا شأننا فى الثروة فقط بل هو ايضا شأننا فى نشاطنا الذهنى . فمنا من يقنع بدرس كل ماهو مألوف مأمون بل أحياناً يبالغ فى هذه الخطة حتى ليطلب الرقابة على الادب وتقييده ومنع الادباء من المخاطرة والمغامرة كأنه يطلب من الناس أن يعيشوا عيشة المحار بعيدين عن التعرض لاى خطر . وهذه خطة الدفاع والاحتماء .

ثم منا من ينزع نزعة الجراءة فلا يحجم عن اقتحام كل خطر يطلب من الادب أن يكون حراً مكشوفا يتناول كل موضوع ويترخص فى كل بحث ويهاجم كل عقبة لان الذهن الانسانى يموت بالادخار والحصر ويحيا بالاقدام والانطلاق . وهذه هى خطة الهجوم والتصدى

فلكى نعيش جداً ونحيا ملء حياتنا الايجابية يجب أن نتصدى للدنيا ونتبرى لتذليل عقباتها ونجعل الهجوم وسيلة الدفاع فى المال والذهن فلا ندخر كالفرنسى بل نستغل ونؤثل كالانجليزى واذا كان فى الاستغلال مخاطرة فلنقبلها راضين بمالها من عوض فى الزيادة والنماء والارتقاء

فالهجوم والتصدى والمغامرة هى صفات الحياة العالية تلك الحياة التى ترضى بالارتقاء فترتقى وتتطور ولو كان فى ارتقائها فناؤها

فى شرف الهزيمة

قد يكون من الهزائم للامم والافراد ما هو أمجد وأشرف من الانتصارات . فهذه فرنسا مثلا بعد أن أعلنت الثورة الكبرى وأذاعت مبادئها على العالم عادت فانهزمت واضطرت الى الاقرار بأن مبادئها ليست حقة فكانت فى هزيمتها هذه شريفة لأن كل انسان الآن يقرأ تاريخ تلك الثورة يعرف أنها ليست ثورة فرنسا فقط بل ثورة الانسان كائناً ماكان لأنها أعلنت حقوقه ورفعت شأنه وباتت مصباحا تستضىء به كل أمة فى العالم حتى أن طغيان نابليون ثم اتحاد الامم عليها ورد الملوكية الى عرشها كل هذا لم يقتل مبادىء الثورة بل بقيت حية أمام هذه الهزائم وعادت فى النهاية الى الانتصار

وأقرب من هذه الثورة تلك الهزائم التى نزلت بالأمة الصينية فى حرب جائرة أعلنتها عليها الامبراطورية البريطانية لكى تقسرها على شراء الافيون بعد أن كانت الصين قد منعت زراعته والاتجار به وتدخينه . فان هذه الامبراطورية حاربت الصينيين وقهرتهم واجبرتهم على شراء الافيون فكانت الصين مجيده فى هزيمتها شريفة فى مذلتها أمام هذا العدو المنتصر الذى طغا عليها بحروبه واضطرها الى شراء السم لأبنائها

ومن الهزائم المجيدة أيضاً تلك الهزيمة التى نزلت بنا فى سنه ١٨٨٢ حين وقف عرابى بجيشه يدافع عن الدستور وعن الوطن بينما الخديوى قد انضم للاعداء . فكان عرابى فى هزيمته أسمى من الخديوى فى انتصاره وذلك لأن الاول كان يدافع عن الحق فانهزم بينما كان الثانى يدافع عن الباطل فانتصر الحق مهزوماً أمجد وأشرف من الباطل منصوراً

ومن الهزائم الشريفة هزيمة الدكتور ولسون حين خرج مجاهداً فى سبيل السلام يدعو الامم الى القاء سلاحها وانشاء عصبة الامم لكى تكون المحكمة العليا للعالم كله . وقد انهزم ولسون أمام الحلفاء ولكن هزيمته كانت أشرف من انتصارهم اذ كان هو يعمل للصراحة والحب والوفاء وكانوا هم يعملون للمواربة والكراهية والغدر

وكما أن مبادىء الثورة الفرنسية قد عادت فانتصرت وكما أننا الآن ندافع عن الدستور الذى انتزعه عرابى من الخديوى ونرفع المبادىء التى كان يرفعها كذلك ستنتصر مبادىء الدكتور ولسون على دهاء الساسة الذين خدعوه واذا لم يكن هذا الانتصار عاجلا فهو آجل

وعبرتنا نحن الافراد العاديين من هذه الامثلة ألا نبالى بالهزيمة اذا كانت فى سبيل الحق وأن نؤثرها على الانتصار فى الباطل وأن نطمئن الى هذه الهزيمة لأنها هى فى الواقع انتصار أو تهيؤ للانتصار وذلك لأن الحق لا يهزم الا الى وقت وميعاد اذا آن فيهما أوانه ظهر على الباطل وأزهقه

وما أحرانا بأن نتذكر ذلك فى كل مناقشة أو جدال يحمل فيه أحد المتناقشين على خصومه بالسباب واللعن فان عندنا طائفة من الكتاب يبدو مما يكتبون أنهم لم يتعلموا اللغة العربية الا ليصيدوا منها كل لفظة مفزعة يرمون بها خصومهم حتى لينقلب الجدل بينهم الى مهاترة تشبه المفاحشة التى تسمع من السفلة غير أن ألفاظها عربية وألفاظ هؤلاء عامية . فى مثل هذا الجدل تكون الهزيمة أشرف من الانتصار

ويجب أيضاً ألا ننسى ميدان السياسة حيث يفوز الخطيب المفوه الذى يستثير عواطف الجمهور بما يخيله لهم من آمال كاذبة على ذلك السياسى الرصين الذى يسكن الى الحقائق ولا يتطوح مع الاوهام . فان مثل هذا الفوز لا يشرف صاحبه كما أن هزيمة الآخر لا تعيبه

المناقشات حول الأدب

كتب مدير جامعة شيكاغو مقالا جاء فيه قوله :

« لما كنت طالباً فى غوتنجن فى المانيا كانت هناك جالية من الطلبة الامريكيين الملتحقين بجامعتها وكانوا منقسمين فئتين احداهما تنوى درس اللغة الالمانية فقط والأخرى تنوى درس موضوع بعينه من المواضيع التى تدرس بالجامعة كالعلوم مثلا . فلما مضى علينا نحو ستة أشهر اتضح أن أولئك الذين قصروا همتهم على تعلم اللغة لم يعرفوا من اللغة الالمانية مقدار ما كان يعرفه أولئك الذين جاءوا لتعلم شىء آخر غير اللغة »

وأظن أننا نحن هنا فى مصر نرى مصداق هذا الكلام . فأولئك الذين يختصون بدرس النحو واللغة والبلاغة والبيان ليست لهم تلك القوة على الاداء والبيان التى لاولئك الادباء أو العلماء الذين يمسون موضوعات الحياة ويكتبون عنها . وهذا يدلنا على أن اللغة ليست موضوعا يدرس بذاته بل هى يجب أن تدرس عرضاً بدرس موضوع آخر . وكذلك الادب ليس سبيل التفوق فيه أن نعرف أقسامه وأساليبه وأصوله وفروعه بل أن نعمد الى الحياة ذاتها فندرسها كما هى فى طبيعتها بحيث إذا كتبنا عنها لم نعد الحقائق الحية . وذلك أن موضوع الادب هو حقائق الحياة فأحسن الادباء وأنفعهم للقراء ليس هو ذلك القادر على سرد قواعد اللغة والوقوف على مافيها من ثروة لفظية يحفظها عن ظهر قلب وهو قابع فى غرفته بين الكتب والاقلام بل هو ذلك الذى يختلط بالناس ويدرس مسائلهم الاجتماعية والاقتصادية يعرف كيف يعيشون وكيف يموتون وكيف يحبون ويكرهون . لان موضوع الادب هو الحياة التى اذا وقفنا على شىء من أسرارها تفتحت لنا أبواب المعانى وانقادت لنا اللغة فى التعبير عنها . أما إذا أردنا أن نتعلم الأدب بدرس اللغة فاننا لانخرج من هذا الدرس إلا بصورة حائلة عن أصلها ومسخ بعيد الشبه عن الحياة

نكتب هذا بمناسبة المساجلات التى عقدت حديثاً بشأن الأدب وهل يجب أن يكون مكشوفا أو مستوراً وهل الأدب العربى فيه مايشبع الأديب المصرى أولا وهل يجب أن يكون المصريون القدماء أساس الثقافة أولا . وأيضاً مايقوم أحياناً من مناظرات عن كفاية اللغة العربية أو نقصها ونحو هذا من الابحاث التى تشبه وضع القواعد للأدب . وانا أرى أن الأدب لايثمر بهذه الابحاث وانما سبيلنا فى الأدب أن ندرس الحياة من جميع وجوهها لأن الأدب هو وصف الحياة

ونقدها والتوسعة فيها باظهار القارىء على مايجهله من معانيها وارشاده الى الطريقة المثلى للمعيشة. فليست الغاية من الأدب أن نكتب ونجيد الكتابة الأدبية بل أن نعيش المعيشة الأدبية ولذلك فالقاعدة الوحيدة للأدب هى أن يطابق الحياة المثلى ويصورها . ولهذا يحتاج الأديب لكى يبلغ هذه الغاية أن يدرس كل مايتصل بالحياة من أنظمة اجتماعية الى اكتشافات علمية الى مضاربات فلسفية . ولهذا السبب فان المحامى أو الصحفى أو الطبيب أو النجار الذى لم يشتغل قط باللغة أو الأدب يعرف منهما أكثر مما يعرفه أولئك الذين عنوا بدرسهما من الكتب والمعاجم لان هذا قد مس بضاعته ناحية من نواحى الحياة وباشرها ونفذت بصيرته اليها أما هؤلاء فلم يعرفوا من اللغة والأدب سوى نوع من التحنيط المعنوى . ومما يزيد صدق مانقوله ونؤيد به قول مدير جامعة شيكاغو أنه ليس عند الانجليز مجمع أدبى كما عند الفرنسيين . وانما لهم مجمع علمى . ومع ذلك فان اللغة الانجليزية الآن أوسع من اللغة الفرنسية ألفاظاً والأدب الانجليزى أغزر مادة وأوفر مواضيع من الأدب الفرنسى. لان الانجليز بتعلقهم بالعلوم زادوا اتصالهم بالحياة فاتسع بذلك أدبهم أما الفرنسيون بادمانهم الكلام عن الأدب وأصوله وقواعده ابتعدوا قليلا عن الحياة ورفعوا من شأن الصنعة فصرنا نجد فى أدبهم لذة الموسيقى دون الهداية التى نهتدى بها فى الحياة . وخلاصة القول أنه كما يجب أن نجعل الموضوع وسيلة لدرس اللغة كذلك يجب أن نجعل الحياة وسيلة لدرس الأدب

فتش عن المرأة

يؤثر عن نابليون أنه كان كلما اعترضته دسيسة أو خلاف بين الضباط يقول : فتش عن المرأة. يعنى بذلك أن المرأة هى أصل المشاكل والشرور وأنها تثير بين الرجال من ضروب الغيرة والمنافسة والمباغضة ماينتهى أحياناً بالمأساة المفجعة

وليس شك فى صحة هذا القول ولكنه وان يكن حقاً فهو ليس كل الحق لأن المرأة كما هى أصل كبير لمعظم الشرور والفواجع فهى أيضاً كما يثبت علم النفس الحديث أصل كبير لمعظم مافى الحضارة من رقى ونزوع إلى السمو . فهى أصل الجنون كما هى أصل النبوغ وهى أصل الفواجع والشقاء كما هى أصل المسرات والسعادة . وهى كذلك لأن حياتنا نحن الرجال تشتبه بحياتها وعواطفنا تتعلق بعواطفها منذ أن نولد إلى أن نموت

فهى أول انسان نراه فى طفولتنا نحبه ونعلق مسراتنا على مرضاته . وهى التى تطبع فى ذهننا صورة الجمال نستعيره من وجهها حتى إذا شببنا وبدأنا نتطلع بما فى نفوسنا من هماهم الجنس

ووساوس الحب لم نستجمل من النساء سوى تلك التى تشبه هذه الأم التى رضعنا ثديها وتمرغنا على صدرها وارتسمت صورة وجهها فى أذهاننا

ثم هى أيضاً أصل الفنون الجميلة . وهذا واضح إذا ذكرنا الغناء والموسيقى وفى كليهما معنى الحب حين تلتفت النفس بالنغم واللحن إلى صبواتها الماضية أوحين تتشوف إلى لذائذها المستقبلة . ولكن التصوير وصنع التماثيل يتوقفان أيضا على مقدار ماعندنا من العواطف نحو المرأة بل الرسام الماهر إذا أراد أن يصور الصدق أو الحق أو العدالة لم يجد فى ذهنه مايمثل هذه المعانى سوى جسم المرأة ووجهها وجمالها وعينيها كأن هذه المعانى نفسها كامنة فى الأدب مضمرة فى الفنون الجميلة تبطن عقولنا وتتغشى نفوسنا

والمرأة أيضا هى محور العائلة وعمود البيت فهى التى تحركنا إلى الكسب والجهد للعيش وهى التى ترسم لنا طريق الاستقامة فى الحياة وتنزع بنا إلى الرقى الدائم فاذا فكر أحدنا فى الاثراء أو العمارة أو تربية الأولاد أو زيادة الجاه فانما يفكر فى ذلك ووراء ذهنه هذا السائق القديم سائق الحب والغرام بالمرأة أيام الشباب وسائق البنوة والانعطاف نحو الأم أيام الطفولة

ومن هنا نفهم لماذا يجن كثيرون من الناس إذا أخفقوا فى الحب ولم يصيبوا من المرأة المعشوقة سوى الاعراض والصدود . فان عاطفة الحب الجنسى تكاد تكون كما يقول فرود أصلا للرغبة فى الحياة وهى محور العائلة والأولاد والفنون الجميلة . فاذا تزعزع هذا المحور تداعى البناء كله وشعر الانسان انه قد أضاع غايته من الحياة وضل عن قصده فيتزعزع لذلك ذهنه وتختل غرائزه

وعبرتنا من هذا كله ان نعرف للمرأة هذا الاثر فنربيها على ان تكون جميلة ساحرة توحى الينا الرقى والسمو . حتى نقول كلما حططنا على أثر نفيس من الفنون أو علامة خير وبر فى المجتمع: فتش عن المرأة . ولكن بمعنى آخر يناقض المعنى الذى رمى اليه نابليون

فتربية المرأة يجب ان تكون من المهام الوطنية الخطيرة ويجب ان نرمى من هذه التربية إلى ترقية الفنون الجميلة وتدريب الامة على الاقتصاد وتقوية بناء العائلة أى يجب ان نربيها لكى تكون اماً تلهم الرضيع وتطبع فى ذهنه أروع صورة للجمال وان تكون زوجة ترسم لزوجها الغايات السامية حتى يتوجه بكليته نحو السعى الخالص لنفسه وأهله وأمته

وكلنا يعرف ان الحب يدفع الشاب إلى النظافة والاجتهاد والامانة والوفاء . وكل هذه فضائل يبتعثها فى النفس جمال المرأة . والتربية تزيد هذا الجمال قوة وتتجاوز الجسم إلى النفس . وبذلك يمكننا ان نجعل تربية الفتاة وسيلة إلى تربية الشاب بل إلى تربية الأمة كلها . وذلك لان المرأة إذا أحسنت تربيتها رفعت مستوى الفضائل عند الرجل ودفعته إلى السير نحو الرقى والعلاء

في الجمال

مما يعاب على الحضارة الحديثة ان غايتها المال بينما الحضارة الاغريقية القديمة لم يكن لها غاية يسعى لها الناس اكبر سعيهم سوى الجمال . فاذا قابلنا بين الغايتين الفينا حضارتنا دون حضارة الاغريق

وربما كان اهتمام الناس بالمال فى الاوقات الحاضرة عارضاً أكثر منه غاية لاننا نعيش فى طور ابتدائى من الصناعة يحتاج الى الجمع والامتلاك بحيث اذا نظمت الصناعة أمكننا ان نوجه سعينا توجيهاً سديداً نحو تحقيق الجمال بضروبه المختلفة . ومنذ الآن نرى تباشير هذه الحضارة الجديدة فى عناية المرأة بجمالها أكثر من قبل . ومما هو جدير بالذكر ان نظرنا الى الجمال يكاد يكون نظراً اغريقياً من حيث اننا نقرنه الى الرياضة والصحة . فلسنا نطلب الآن من المرأة ان تكون أنثى بالغة الانوثة كتلك التى كان ينشدها الشاعر العربى حين كان يصف المرأة المكسال ذات الارداف الثقال . وانما نحن ننشد فى المرأة شيئاً من الخفة والاسترجال حتى صار السمن فضيلة الاجيال الماضية عيباً فى الفتاة الحديثة تتوقاه وتبالغ أحيانا فى التخلص منه الى حد الاذى لنفسها

ومن ينظر الى التماثيل التى خلفها الاغريق يجد اننا نميل الآن نحو المعايير الاغريقية فى تقدير الجمال . فالجمال الاغريقى مقرون على الدوام الى الرياضة البدنية والقوة الجسدية . ومن ينظر الى فينوس ربة الجمال عندهم يكاد يعتقد ان وجهها وجه رجل لا وجه امرأة . والمرأة الحديثة مع عنايتها بجمالها قد عنيت أيضا بالرياضة حتى صار من النساء من يقطعن المانش سباحة وكذلك اتخذ المثل الاعلى للجمال عندها هيئة الرجال حتى صارت تقص شعرها وتضمر جسمها ولا تقصر همومها وجهودها على المنزل بل تخرج لمزاحمة الرجال فى أعمالهم

وانها لنزعة شريفة تلك التى تنزع بنا نحو العناية بالجمال ننشده فى الرجل والمرأة والمنزل والمدينة . لان غاية الجمال تحتاج لتحقيقها الى جملة وسائل كالنظافة والصحة والاعتدال وذلك لان اليد التى تنفق بسخاء على تطريتها يجب أيضاً أن تنظف . وجمال الوجه لايكون تاماً الا اذا كان القوام معتدلا بالرياضة . والرياش الثمين الجميل لاقيمة له ما لم يكن نظيفاً فى بيت نظيف ومهما جملنا المدينة وزيناها بالمبانى والتماثيل فلا قيمة لجمالها ما لم تكن نظيفة

وعلى ذلك يمكننا ان نقول ان الجمال كالحب أساس لجملة فضائل وباعث على ممارستها فهو يدعونا الى النظافة والى الرياضة والى الاعتدال فى تناول الطعام والى مراعاة الصحة وتنشئة الذوق والرغبة فى ارضاء الناس والعمل لسرورهم وهو بذلك يصح ان يكون أساساً لحضارة راقية فى زماننا هذا كما كان عند الاغريق

واذا نحن جعلنا الجمال غايتنا فاننا لن نخرج بذلك على الطبيعة فانه أيضاً غايتها . فليس من مجرد الصدفة والاتفاق أن يكون الانسان أجمل حيوان وان يكون فى الوقت نفسه الغاية التى بلغتها الطبيعة . وان يكون النخل فى استقامة عوده وجمال غصونه واتساقها دائرة متساوية الاطراف أجمل الاشجار هو أيضاً آخر ما نشأ منها فى سلم التطور

فنحن فى لباب أنفسنا نعشق الجمال ونتفق والطبيعة فى معناه ونراه يستتم أجزاءه كلما تقدم الحيوان أو النبات فى التطور . فأرقى أنواع الحيوان هى أيضاً أجملها وتكاد أنواع الحيوان الاولى كالاسفنج والمحار تكون شوهاء بالنسبة لما ظهر بعدها

واذا كانت الطبيعة قد زينت الزهر والطير بجميع ألوان الطيف الشمسى ، وجعلت أنثى النبات والحيوان تتبرج للذكر فمن التنطع البالغ ان نكر التجمل والزينة على الفتاة والفتى وننسبهما الى الخلاعة فى حين أن الواقع يثبت ان سعيهما للتجمل يدعوهما الى اكتساب جملة فضائل سامية لا يتم الجمال الذى ينشدانه الا بها . واذا كانت هناك نساء يستعملن الاصباغ لتجميل الوجنات والشفاة فانهن يعرفن ان الصبغة جمال مستعار وان الجمال الحقيق هو ما اقترن بالصحة وشف عن الدم الصحيح من وراء البشرة السليمة . وما الصبغة الا اعتذار عن الصحة واقرار لها بأنها خير وسائل الجمال

نحو المستقبل : الغايات الاربع

لقد حادثتك فى هذه الصفحة مدة السنتين الماضيتين وصافيتك الحديث وسنتان من الحديث تكفيان لان يتسامح كل منا مع الآخر . وأنا أحوج منك الى هذا التسامح فأنت ساكت وسكوتك من ذهب وأنا متكلم وقد يكون الكلام أحياناً من غبار وتراب . ولكنى لست من التواضع بحيث أقول أن حديثى معك كان كله أو معظمه من التراب . فانى قد حاولت أن أبث فى نفسك أربعة أشياء شائعة أرى أن ألخصها هنا حتى يزداد تفاهمنا فى المستقبل

وأول هذه الاشياء : هو ضرورة التسامح وتأكيد ذلك والعمل على الاخاء والدعاية الى كراهة التعصب للدين أو القومية أو المذهب . وذلك لأن العالم كله يسير نحو الاتحاد فى دولة واحدة . والآراء والمذاهب قد أصبحت شائعة بين جميع الناس وقد كانت الحرب فى الازمنة القديمة مجداً من الامجاد تؤلف فيه القصائد وهى الان يعتذر عنها اعتذاراً صريحاً واذا دبرت فتدبيرها فى السر كما يدبر السافل فضيحة من الفضائح . وذلك لأننا نشعر أننا جميعاً

تربطنا رباط الانسانية ليس بيننا مؤمن وكافر وصرنا نشعر أن العالم هو وطننا الاكبر الذى يجب أن نحقق فيه النعيم الذى تشوق اليه الانبياء والفلاسفة

والشىء الثانى : هو ترويج العلم والدعاية اليه وذلك لأن الحضارة الراهنة هى حضارة صناعية وهى تحتاج الى ثقافة علمية تنبتها وتهيىء لها البيئة الموافقة . فلكى لانتأخر عن الامم المتمدينة ولكى لانقع فى الفقر الذى هو مجلبة للمرض والشقاء والجهل والهوان يجب أن ننزع نزعة ونحاول أن نجعل معاهدنا القديمة كالأزهر ومدارسنا العليا وصحفنا السيارة تثبت العلم وتحض على الاكتشاف والاختراع . ويجب أن نعجب باسقف برمنجهام حين صرح للناس من منبر كنيسته بان ماذكرته الكتب عن قصه آدم يجب ألا يفهم بحرفه وأن لايتناقض مع مقررات العلم ونظرية التطور . وفى هذا الكلام بالطبع صدمة لعواطفنا ولكن التربية الصحيحة تقتضى ذلك منا

والشىء الثالث : الذى بثثته فى نفسك أيها القارىء هو الزراية بأدب الالفاظ والعبارات المبهرجة التى تشغف بها كتابنا والتى كانت أحد علل الانحطاط عند العرب . فهذا الادب لعب ولهو لايصح أن يكون سلوى للصبيان فضلا عن الرجال . ونحن فى حاجة الى أدب يشبه الدين وينبع من منبعه ويرمى الى الجد والرجولة والبر وصحة الروح والضمير . فان الروح تعتل كما يعتل الجسم والضمير يفسد وتسوء بصيرته اذا اعتل الادب أوفسد الدين ثم اذا كانت الحضارة القادمة هى حضارة صناعية فانه يجب علينا أن نجعل الادب بروح الدعاية للعلم ويهيىء أذهان الجمهور لهذه الحضارة الجديدة ويحثنا على التطور والتجدد . أما الادب الذى يجتر نفسه ويعيد علينا عبارات الجاحظ وابن الرومى فهو أدب راكد بل ميت ولو كان فيه شىء من الحيوية لأحيا الذين درسوه فى الالف السنة الماضية

بقى الشىء الرابع : وهو نتيجة لازمة لما ذكرناه آنفاً . وهو ضرورة النظر للمستقبل والسير مع الامم الراقية فى نزعتها العلمية والادبية واصطناع حضارتها . وذلك واجب حتم علينا فان هذه الحضارة الاوربية تغير على كل ماحولها ولاترضى بالحياد فاذا لم ندخل فى غمارها ونسير على شرائعها غمرتنا وقهرتنا فنكون من الاوربيين بمثابة العبيد من الاسياد . أما اذا تحضرنا بها فاننا ننزل منهم على قدم المساواة . وعندئذ نسدد نظرنا الى المستقبل وهو الان زائغ نحو الماضى . فبدلا من أن ندرس الخلاف بين الكوفيين والبصريين ندرس الخلاف بين العمال والممولين فى مصر ونطلب من أدبائنا وكتابنا أن يفكروا فى حل نستطيع به أن نرى عمالنا متعلمين وفلاحينا أصحاء الابدان والعقول يعيش كل منهم فى بيت له حمام ومكتبة كما هو الحال عند العامل الانجليزى . فان دم الفلاح المصرى ليس أقل شرفا من الدم الانجليزى فلماذا يهان

بين روث البهائم يأكل الغذاء الدون ويعيش العيشة الزرية ؟ هذه هي الاغراض التي حادثتك بشأنها في السنتين الماضيتين . وهي أغراض شاقة تحتاج من الكاتب والقارىء الى سعة من الصدر وتربص لنوازع الخير في الناس فتنتهز وتشجع نوازع الشر فتكبت وتقبر فيجب مثلا أن نمدح طلبة دار العلوم اذا نزعوا الى الحضارة في اللباس كما يجب أن نؤنب رجلا يسمى من لايدين بدينه كافراً . ويجب أن نمدح الدستور ونلطم الاستبداد حيثما كان . ويجب أن نحترم الصانع والعالم لأنهما من رجال المستقبل أكثر مما نحترم الاديب أو الزارع لأنهما من رجال الماضي . وخاصة ذلك الاديب الذي يلعب بالالفاظ أو ذلك الزارع الذي يزرع على طريقة الفراعنة

وخلاصة القول أنه يجب علينا أن نتطور وأن يكون همنا الاكبر هذا الانسان المصري كيف نعمل له لكي يكون ضخم الرأس ذكي العقل شريف العواطف متعلماً غنياً حتى يكون قوة من قوى الخير والرقي في العالم ولايكون عالة كما هو الآن تعوله أوربا بمخترعاتها ومصنوعاتها ويقنع هو بتقديم المواد الخام لها

التجديد في الحياة

الى الآن لم تثمر الدعوة الى التجديد في الادب شيئاً يذكر سوى القليل من النقد والهدم أما الابتكار والبناء فطور مايزال بعيدا عنا والعلة الاصلية لهذا النقص ترجع الى أن الادباء يبتغون تجديد الادب مع انهم هم أنفسهم لم يتجددوا . فهم أمام مكاتبهم وأقلامهم في أيديهم يدعون الى التجديد ولكنهم اذا تركوا المكتب عادوا الى طرق العيش المألوفة حولهم فارتضوها لانفسهم . والادب هو نقد الحياة والتسامي بها الى المثل العليا فاذا لم يمارس الاديب بنفسه حياة جديدة فان دفاعه عن الادب الجديد ودعوته اليه يكونان زائفين ولن يكون لكلامه حرارة المقتنع وحماسة الرجل الذي يدعو الى حق قد أحس به في لباب نفسه ومارسه في معيشته ورأى في نفسه وفي غيره البرهان المحسوس على صحة مايدعو اليه

ولنضرب لذلك مثلا واضحاً للتجديد . فهذا الطب مثلا قد تجدد في مصر فالطبيب المصري يمارس فيه فناً جديداً بآلات جديدة ويدرس فيه علماً جديداً ويتزيد كل يوم مما يجد فيه من المكتشفات ولا يقيد نفسه بما كان يقوله الاطباء من ألف سنة مضت . ولذلك فان جمهورنا يثق بالطبيب المصري بل الجمهور الاوربي في مصر يثق به أيضاً وهذا مثلا الدكتور على بك ابراهيم

أما الادب المصرى فما يزال كالزراعة المصرية يجرى على الطرق القديمة من العناية باللفظ وتزويق العبارة والسير على السنن المألوفة ولهذا السبب ليس فيه رجل يحترمه المصريون والاوربيون كما يحترمون الدكتور على بك ابراهيم مثلا

فعلى بك ابراهيم قد تجدد فى الطب ونال الاحترام اللائق بكل مجدد لانه هو نفسه لم يقل بالطب الجديد قولا فقط بل مارسه وعمل به وأما أدباؤنا فلا ينالون الاحترام الذى يطلبونه لانهم يقولون بالتجديد قولا فقط دون أن يمارسوه ويعملوا به . ولكى يكون الادب حياً يجب أن يكون ثمرة الحياة فاذا لم يكن الاديب نفسه متجدداً يطلب التجديد فى الحياة ويمارسه فانه لن يستطيع أن يجعل أدبه جديداً

وقد يقال هنا أن العلوم والفنون تتجدد وتتطور ولكن الادب خالد . وهذا هراء بليغ لايتسع المجال للرد عليه هنا

فلكى نكون أدباء بل ادباء عظماء يجب ان ننسى اننا أدباء ولا نكتب الا عن شئون الحياة وطرق العيش فلنبحث عن أمثل الطرق لكى يحيا الناس حياة صالحة وندرس الفقر درس الارقام والاحصاء لادرس البلاغة والفصاحة وندرس طرق الزواج فى العالم وأمثلها لنا وندرس الاديان والحكومات والملوكية والجمهورية والملابس والمساكن والسكر الذى يصنع من الخشب والحرير الذى يصنع من الخليود وكيفية اتقاء الحروكيف يمكن أن نجعل فلاحنا يعيش فى منزل به مرحاض وحمام ونحو ذلك مما يتصل بلب الحياة ويعمل للسعادة أو للشقاء

فاذا فعلنا ذلك وانتقدنا الحياة وطرق العيش لم نلبث أن نرى اننا قد ارتفعنا الى اسمى طراز من الادب لان الادب هو نقد الحياة فدرسه لايكون الا بدرس هذه الحياة أى بدرس كل مايتصل بها من مسكن ومأكل ومشرب وأجور للعمال وحكومة وقضاء ونحوها وعندئذ نرى أنفسنا اننا نجدد للناس طرقا من العيش كما اننا نحن نتجدد أيضاً وندخل بذلك فى طور الابتكار والبناء ويتلخص كلامنا هنا بأن نقول انه يجب أن نكون أدباء لكى نعيش ونحيا وليس يجب أن نحيا لكى نكون أدباء . فالحياة هى الاصل والادب وسيلة نرفع بها الحياة ونسمو بها الى أمثل مانفهمه من صورها ونرفه عن الناس مايجدونه فيها من مشقة . ولا يكون ذلك الا بأن نجعل موضوع الادب التجديد فى الحياة بدرسها فى أحوال البشر المختلفة وممارسة مانرومه من اصلاح فى أنفسنا بقدر ماتمكننا الظروف وعندئذ يصير أدبنا جديداً ويصير للاديب تلك الحرمة التى يستحقها باعتباره مرشداً فى الحياة

فلتكن صيحتنا : التجديد فى الحياة وليست التجديد فى الادب : واذا فعلنا ذلك لم نلبث ان نجد أننا نجدد فى الادب حتماً

أخلاق الشبان

اننا ممن يؤمنون بأن الشاب المصرى فى الجيل الحاضر أرقى من زميله فى الجيل الماضى على الرغم من جميع مايوصم به من نقائص . ففيه خصال الاستقلال فى الرأى والنزوع إلى الحرية والرغبة فى الثقافة . وفى لباسه ومشيته مايكشف عن نفسه فهو على وجه العموم يعنى بهندامه ويمشى مرتفع الرأس . وفى العناية بالملبس مايدل على الرغبة فى النجاح والشعور بالحاسة الاجتماعية وفى ارتفاع الرأس ماينبىء بالاستقلال والشعور بالقوة . وأذكر انى كنت أحادث استاذاً أميركياً زار روسيا الشيوعية وكان يعرفها أيام القيصر فلما قابل بين حالتيها فى العهد القديم والعهد الحديث أشار الى ان الشبان يمشون الآن مرتفعى الرءوس وكانوا أيام القيصر لايعرفونها وان هذا يدل على روح الاستقلال التى فشت فى صدورهم عقب الثورة

ومثل شباننا هؤلاء يفضلون آباءهم سنة ١٨٨٢ أولئك الذين ارتضوا الاحتلال وسكتوا على نفى الزعيم الكبير عرابى . ومن يراجع تاريخ السنوات العشر الماضية يعرف فضل شباننا فى مكافحة الحماية البريطانية وكيف وقفوا الى صف الزعماء فى الدفاع عن الوطن والنهوض به . ومثل هذا الكفاح السياسى ثم هذا النهوض كلاهما يدل على المتانة والقوة فى الأخلاق

ولكن هذه الميزات نفسها التى يمتاز بها شباننا قد رافقتها عيوب تحتاج إلى ارشاد حتى تستقيم الأخلاق . ويتجه النظر إلى المقاصد السامية دون انحراف . فهذا التمرد الذى انبث فى نفوس شبابنا منذ سنة ١٩١٩ قد رافقه أحياناً تمرد على الآباء والمعلمين حتى فقد هؤلاء سلطتهم فى القيادة وهى سلطة تقول بها الطبيعة ويقر بها العمران والطالب يحتاج بفطرته إلى من يرشده من والد أو معلم فاذا حمل لواء التمرد فى وجهيهما نشأ وكأنه الجندى بلا جيش . فنحن فى حاجة إلى ان ننبه شباننا وهم بعد فى طور التحصيل الى ان الآباء والمعلمين ليسوا من الانجليز ولا هم يمثلون القوة المحتلة الغاصبة فيجب طاعتهم والانتفاع بارشادهم . ويجب ان نوضح لهم ان المرء مفطور على ان يعمم فى نزعاته ولا يخصص . فنحن نسخط على الدنيا كلها اذا سخطنا على شىء خاص فى أعمالنا . وكذلك الطالب يتمرد على الانجليز فينساق بذلك الى التمرد على الآباء والمعلمين وغيرهم . ولكن شيئاً من التأمل والتفكير يعيد الى الشاب تلك الحرمة التى فقدها فى النظر الى من هم أكبر منه وأرشد

وثم نزعة أخرى شريفة هى نزعة الحرية قد رافقها عيب آخر فى الشبان نعنى به نوعاً من

المجانة حين لايكترث الشاب بما يقرأ أو بما يلهو . فتراه يقرأ بعض الصحف التي تعتمد في طلب الرواج على السب والقدح ولا يكاد يكون لها وسيلة أخرى للاعراب عن معنى من المعانى . ولكن الحقيقة يخطئها الشاب هنا ان الحرية ليست المجانة وانما هي الشعور باننا مسئولون واننا نتحمل التبعات . وحسبنا من الأمثلة على ذلك مثال الدستور الذى منحنا حريتنا جميعاً فى ان نحكم انفسنا كما نشاء فانه زاد بذلك تبعتنا فى تحمل اعباء الحكم

فالحرية هى المسئولية . ومن هنا كراهة معظم الناس لها وخوفهم منها . فاذا عرف الشاب ذلك بقى عليه ان يضع لنفسه دستوراً يتقيد به فى لهوه وقراءته . فلا يلهو بالتعرض لفتاة ولا يقرأ صحيفة ساقطة لكى يلهو بما فيها من شتائم . ولعل خير الطرق للقراءة ان نسأل انفسنا عقب الانتهاء من صحيفة أو كتاب : ماذا انتفعنا بقراءة هذه الصحيفة أو هذا الكتاب ؟

فمن هذا يتضح للقارىء ان عيوب الشاب الحديث ليست فى الحقيقة سوى لواحق بفضائله . فهو فى حاجة الى الارشاد حتى يطهر أخلاقه مما علق بها وحتى لايسىء فهم التمرد ولا يخطىء معنى الحرية . فنحن نتمرد على الانجليز ولكن ليس على آبائنا ولا معلمينا ونحن نحب الحرية ولكن لكى تزداد مسئوليتنا فى الرقابة على انفسنا حين نلتقى بفتاة أو نشترى صحيفة أو نقرأ كتاباً

والشاب الذى يسىء معنى الحرية والاستقلال هو كالفتاة التى تعتقد ان السفور هو التبرج وان الحياء ضعف لايتفق مع الاستقلال . فان الشاب والفتاة يستطيعان التمتع بالحرية والاستقلال دون ان يحتاجا الى التمرد على الآباء أو المعلمين ودون الحاجة الى أن يفقد الحياء

اسطورة هندية جميلة

من الاساطير الصغيرة التى يدبجها الشاعر الانجليزى كبلنغ ببراعته وكأنه يرسمها بريشته هذه الاسطورة الفريدة التى نقلها عن ديانة البراهمة . وقال :

حدث فى أحد الازمان أو عند ما كان الزمن مبتدئاً فى ميلاده وعند ما كانت الآلهة جديدة لم تعرف لها بعد أسماء وحين كان الانسان ما يزال جسمه ندياً بالطين الذى جبل منه ان هذا الانسان نفسه وقف وتصدى للآلهة وادعى انه هو أيضاً إله

ففحصت الآلهة ما قدمه من بينات ووزنتها فوجدت ان دعواه صادقة

ولكن هذه الآلهة بعد أن سلمت بدعوى الانسان تسللت اليه فى الخفاء واختلست منه هذه الالوهية وهى تنوى ان تخفيها عنه حتى لا يهتدى لها أبداً . ولكن هذا العمل لم يكن سهلا . فقد قالت الآلهة لنفسها انها اذا أخفتها فى أى مكان فى الارض فان الانسان لن يترك حجراً فى مكان

حتى يقلبه فى البحث عنها والاهتداء اليها . ثم هى اذا أخفتها عندها فانها تخشى ان يصعد الانسان اليها فى السماء ويقتنصها منها

وبينما الآلهة جميعها فى حيرة إذ تقدم اليها أعقلها وأحكمها وقال : « اتركوا لى هذه المسألة فانا أحلها »

ثم قبض بيده على هذه الشعاعة الصغيرة المضطربة التى تحتوى على ألوهية الانسان فلما صارت فى قبضته بسط كفه واذ بها قد طارت منه . وعندئذ قال : « هذا حسن . لقد أخفيتها حيث لايستطيع الانسان أن يحلم بمكانها . أجل . انى أخفيتها فى الانسان نفسه »

* * *

ومغزى هذه القصة أو الاسطورة الجميلة يدركه كل من قرأ تاريخ الصوفيين من قدماء العرب ومحدثى الاوربيين بل أيضاً من يقرأ الفلاسفة الجدد مثل جيمس أو برغسون

ففى نفس كل منا شعاعة صغيرة تضطرب هى هذه البصيرة القدسية التى ترفعنا أحياناً فوق عقولنا فنعرف منها من المواقف والمآزق الحرجة أننا أشرف مما كنا نظن وان فينا من السمو والعظمة ما لم يكن يخطر لنا فى بال

فهذا العقل الذى يسوقنا الى الانانية البشعة ويحضنا على التنافس والتحاسد ومغالبة الغير على مافى أيديهم والاستزادة من العقار والتقلص فى ثنايا الشح والتقتير بالمال والحياة ينهزم أحياناً أمام هذه البصيرة القدسية فترانا نضحى بأنفسنا فى سبيل البر والخير يتمتع بهما غيرنا حين نكون نحن أشلاء أو رماداً . فالعقل مادى وهو يطلب الاثرة ولكن هذه البصيرة التى أخفتها الآلهة فى أنفسنا كما تقول الاسطورة الهندية تغرينا بالايثار وتدفعنا اليه فنسمو ونرتفع فوق أنفسنا فنحقق بالدفاع عن الوطن أو الحرية ماتترك ثمرته لغيرنا بينما لاننال نحن منه سوى التضحية بانفسنا . فلو كنا انانيين نقنع من الدنيا بمصلحتنا الذاتية لما رضى واحد منا بأن يضحى بنفسه

فمن هذه التضحية ندرك أننا أشرف مما نظن وانا نضع مصلحة الناس والعالم فوق مصلحتنا الشخصية وان لنا بصيرة سامية تدرك مصلحة الكون وتتغلب فى الازمات على صوت العقل فتكشف لنا بذلك عن هذا السر الذى أودعته الآلهة قلوبنا خفية كما تقول الاسطورة أو عن ذلك القبس الذى يشع فى قلوبنا من ذلك العنصر الذى يبتعث الحياة فى الاجسام كما يقول برغسون

وليست التضحية بالبرهان الوحيد على اننا نسمو فوق عقولنا ونؤثر مصلحة الكل على مصلحتنا التى هى الجزء بل هناك مثلا ذلك النوع من البر الذى نقهر عليه قهراً ونعرف أن فيه تلفنا ولكننا مع ذلك نتشبث به . كما يحدث عندما ندعو الى مذهب نبغى تحقيقه أو مثل أعلى ننشده . فنشعر

عندئذ أن بصيرتنا بالحياة تتغلب على عقولنا وتسوقنا بل تسخرنا لأغراضها السامية ونحن راضون بما نلقاه من خسف ومشقة فى سبيل هذه الاغراض وربما كانت ميزة الاديب على العالم أن بصيرته تملك عليه عقله

وخلاصة القول ان فى نفوسنا شعاعة صغيرة من النور أخفتها الآلهة فعلينا أن نلتمسها لانها هى الصلة التى تربطنا بالكون وتصلنا بعنصر الحياة الشاملة لجميع الاحياء وهى البصيرة التى ترفعنا فوق العقل والانانية والمادية

أجمل الاشياء

الجمال كالسعادة اذا تحراه الانسان الفاه فى كل مكان لانه حالة فى النفس التى تنشده . وكما ان كل انسان ليس قادراً على السعادة الا بمقدار ما عنده من الاستعداد الذاتى لها كذلك ليس كل انسان قادراً على فهم الجمال وادراك معانيه الا بمقدار ما فى نفسه هو من عناصر الجمال . وذلك لاننا لانقر بأن هذا المخلوق الحى أو الجامد النبات أو الحيوان جميلا ما لم تكن العناصر التى يتألف منها جماله مغروسة فى أنفسنا قبل ان نراه

وبعبارة فلسفية نقول أن الجمال ذاتى عندى وليس شيئاً موضوعياً . ولكن هذا تقعر يبعدنا عن السهولة التى نتوخاها فى هذه المقالة . فالجمال مع انه أغلى الاشياء وأثمنها فانه أيضاً أشيع الاشياء وأقلها كلفة للاستمتاع به . ففى أنفاس الصباح العطرة جمال يدركه أولئك الذين ماتزال فطرتهم سليمة فلا يفسدونها بالسجاير يدخنونها لان فى نسيم الصباح عبقاً أعطر من عبق الدخان. ولقد كان الاديب الانجليزى رسكين يعجب من المدخنين كيف يدخنون ويحرمون أنفسهم من نسيم الصبح

وهذا يذكرنا بما يقوله غاندى ذلك الهندى العظيم الذى يدعو الى الفطرة ويخفف عنا بذلك شيئاً من تكاليف الحضارة والحاحها علينا فى ان نعيش عيشة صناعية حافلة بالمنبهات القوية والطعام الدسم والسهر المتوالى . فهو ينصح لنا أيضا مثل رسكين بان نتوخى الجمال فى رؤية الطبيعة وهى تستيقظ من رقدة الليل ونمشى حفاة الاقدام على التراب الندى فى وسط الحقول وبين العشب والزهر حين نفرد بالجسم ولكننا فى انفرادنا لا نشعر فيه بالوحشة لاننا نستأنس بالطبيعة التى تقربنا من الكون وخلائقه فتزيد الوشائج ويتأكد الاجتماع الروحى بيننا وبينها فيفعم الحب قلوبنا ونحس فى لحظات بذلك الطرب الذى يكشف لنا عن مصالح روحية أسمى وأبقى من هذه المصالح الصغيرة التى تستهلك وقتنا فى الحضارة

ان الاحساس بالجمال يسرى فى النفس بمقدار استعدادها للحب . ولذلك فان رجل الفن العظيم الذى ينشد الجمال فى قصيدة أو تمثال أو مقال أوقصة هوأيضاً رجل الحب العظيم . ولهذا السبب تجد للحب تلك المكانة العليا فى الادب ومحال ان تجد رجلا يغل صدره الحقد والانانية يمكن ان يكون أديباً سامياً

وأسمى الادباء وأخلدهم ذكراً هو دستوفسكى رجل الحب والجمال فقد كان يرى الجمال فى كل شىء ويحب كل شىء وينصح لنا بأن نحب العالم كله ونقبل التراب الذى ندوس عليه . ولذلك فان القارىء يقرأ قصصه وكأنه يقرأ صلاة سامية يخشع فيها له خشوع المحب لحبيبته الذى يجثو أمامها ويطرب للدموع تتساقط من عينيه والقبلات الحارة تنطبع على قدمى حبيبته

والجمال يشغل العالم كله ولكنه يتفاوت ولعل أجمل الاشياء هم أطفال الانسان والحيوان ففى مطفل الانسان عالم من الجمال قد انطوى فى جرم صغير كأنه العطر يجمع من حقل من الورد فى قنينة صغيرة . ففى جسم الصغير حكمة الآباء وتاريخ الملايين من السنين وفى نفسه تشوف الانسان الى المستقبل ورغبته فى السمو والنزوع الى التقدم بل يكاد الطفل يكون أحد الاصول فى بزوغ حاسة الجمال عندنا فان لفظة « لطيف » التى تعنى الآن الجميل لم تكن تعنى فى أصل وضعها سوى الصغير . وذلك لاننا نستجمل كل شىء وكل مخلوق صغير

بل طفل الحيوان نفسه لايقل جمالا عن أطفال الانسان فقلوبنا تطفر اليه حباً وحناناً فنرى حملا أو جرواً أوخنوصا حتى نحنو عليه ونمسحه ونتأمل تلك السذاجة فى وجهه وهذا الاستسلام البرىء لنا فى حركاته ونظراته فنعشقه ونحوطه بعنايتنا وخدمتنا ونحميه من كل ما يؤذيه

ولكن نعود فنقول ان الجمال ذاتى عندى فنحن لا نستحيل العالم وكائناته الا بمقدار ما فى نفوسنا من جمال . ولذلك فاجملنا نفسا هو اكثرنا استمتاعا وأكثرنا حبا وأبعدنا من الكراهة

واذا كان الاحساس بالجمال والاحساس بالحب طبيعتين فان التربية تزيدهما . كالرقص يعلمنا الرشاقة فى المشى أو كالخطابة تعلمنا اجادة الالقاء فيجب ان نربى أنفسنا على التفتيش عن الجمال ونقمعها عن الحقد والكراهة

حياة عظيم

يعيش الآن فى الولايات المتحدة رجل فى الحادية والثمانين من عمره هو المستر أديسون . ومع أنه فى هذه السن التى إذا بلغها أحدنا شرع يتهيأ للموت ويقف عقاراته على ورثته وأقاربه

وقفاً يتضمن ثمن الشجار الدائم بعد وفاته قد شرع يدرس علماً جديداً لم يدرسه قط فى حياته هو علم النبات . وغايته التى يرمى اليها من هذا الدرس هو استنبات شجرة تصلح لان يستخرج منها الكوتشوك

وقصة الكوتشوك من أعجب القصص التى تدل على النشاط والتبصر . فقد كانت هذه الشجرة التى تفرز هذه المادة تنبت فى برازيل فلما عرفها أحد الانجليز ووقف على فائدتها وبصر بمستقبلها فى الصناعة سرق كمية من البذور وحملها الى لندن حيث استنبتت هناك فى الاصص . وحملت هذه الاصص الى ممتلكات بريطانيا العظمى فى سنغافورة وغيرها وزرعت

وصارت النتيجة ان البريطانيين الآن يتحكمون فى أسواق الكوتشوك ويكادون يحتكرون تجارته دون الاميركيين الذين نبتت هذه الشجرة فى قارتهم . ولذلك فان الاميركيين يقلقون الآن أشد القلق كلما تذكروا أنهم هم أكبر المستنفدين لهذه المادة ومع ذلك فهى لاتنبت فى بلادهم . ولو قامت حرب بينهم وبين الانجليز لاستطاع هؤلاء ان يمنعوا ارسال الكوتشوك اليهم ويمنعوهم بذلك من صنع الاتومبيلات

ورأى أديسون بعد أن جاز الثمانين هذه الحال فشرع يدرس علم النبات لكى يستنبت شجرة يمكنها أن تعيش فى مناخ الولايات المتحدة ويمكنها أن تخرج هذه المادة . فكأنه يريد أن يخلق شجرة جديدة تتحمل مناخاً لم تعش فيه من قبل ومع مايتراءى لنا فى هذا العمل من الاستحالة فقد وفق اليه رجل أميركى آخر يدعى بور بانك استطاع ان ينبت نوعاً من الككتوس (أى التين الشوكى) ولكن ليس له شوك ويمكن الماشية أن ترعاه وتسيغه

والعبرة فى أديسون أنه يحاول درس علم جديد وهو فى هذه السن المتقدمة ولا يريد ان يقنع منه بالدرس بل يقصد منه إلى الاكتشاف والخلق

وحياة أديسون كلها عبر وخصوصاً لنا نحن . فان كثيرين منا يعزون عجزنا عن الاكتشاف والاختراع بأن المدارس لم تهيئنا لذلك ولم تعودنا البحث العلمى وان أساتذة الجامعات فى أوربا والعلماء فى العواصم الكبرى يتوفقون الى الاكتشاف بما عندهم من معامل ومختبرات ليس لنا مثلها

ولكن أديسون يكذب هذا الزعم . فهو نفسه لم يظفر فى حياته بأية تربية علمية ومع ذلك فله ٩٠٠ اختراع مسجل فى الولايات المتحدة كلنا يعرف منها المصباح الكهربائى والفنوغراف والسينما توغراف

ثم هو استطاع ان يخترع هذه الأشياء وهو دون الناس كفاية لانه أصم وهنا مكان العجب من رجل أصم يخترع الفنوغراف ويتحسس بخياله شيئاً لايمكنه أن يسمعه بأذنيه الا أضعف السمع

واشقه ثم ينجح فى النهاية . وهو فى هذا يشبه بتهوفن الموسيقى الاصم . وقد نشأ أديسون عصاميا يبيع الجرائد فى القطارات . وابتكر ذهنه الصغير فى ذلك الوقت أن يجمع بضعة حروف يؤلف منها جريدة للقطار فكان هـذا العمل باكورة لمخترعاته العديدة فيما بعد . ولسنا نضرب المثل بأديسون لكى نقول انه لافائدة من تعليم الجامعات وتوفير أدوات البحث فى المعامل والمختبرات بل بالعكس نحن نعتقد أنه لو كان أديسون قد ظفر بتعليم عال ونشأ على أصول العلم الصحيح لازدهرت قريحته أكبر ازدهار وكانت منفعته أعظم . فانه للآن يؤخذ عليه أنه لم يضع مبدأ جديداً فى العلم وليس شك فى ان نقص تربيته هو من الاسباب المهمة فى ذلك . ولكننا نضرب المثل بأديسون لأنه توفر على الاختراع دون ان يتأهل له بالتربية العلمية وأثبت بذلك ان النشاط والتربية والدأب صفات تعوض صاحبها من النقص مهما كان مبلغه . ثم نضرب به المثل أيضاً لأنه بعد ان جاز الثمانين شرع يدرس علماً لم يدرسه من قبل فكأن نفس هذا الشيخ الفانى مازال فتية بل صبية لم تفقد بعد روح التعجب من الخفايا ولا روح الدرس والشوق إلى زيادة المعرفة . فهذا الطالب الكبير الصغير الذى يرفض ان يعيش الآن فى دعة الشيخوخة يتسلى بمسبحته ويدمن التفكير فى الموت يجب ان تكون لنا فيه جملة عبر ننتفع بها فى حياتنا وأكبر هـذه العبر حبه للدرس وتجديد ذهنه حتى وهو فى الثمانين

فى التعليم

يقال أن الولايات المتحدة الأمريكية هى أغنى أقطار العالم الآن وأكثرها صناعة وأرقاها زراعة . وفيها من السكان مايقرب من ١٢٠ مليونا يعيشون فى رخاء ووفر . ومع ذلك فانه قلما يذكر أحد منا أن هذا القطر قد عاش قبل قدوم المهاجرين الاوربيين اليه آلاف السنين لايسمع بغناه أحد ولا يخرج منه اختراع . وربما كان سكانه لايزيدون على مليون نفس يعيشون باقتيات الأثمار الفجة وصيد الوحوش من الغابات

والأرض هى الارض لم تتبدل مناجمها ولا تغير مناخها . وانما الذى تبدل هو الناس . فقد كانوا قبلا جهلاء لايعرفون كيف يستغلون بلادهم فصاروا بعد ذلك علماء يستنبطون الذهب والبترول منها ويزرعون قحلها ويكشفون مخابىء ثروتها ويخترعون فيها شتى المصنوعات

فالفرق بين أميركا القديمة وأميركا الحديثة هو الفرق بين الجهل والعلم وعلى ذلك يجب أن نعد العلم أساساً خطيراً من أسس الثروة ويجب أيضاً أن نعرف أن مهما أنفقنا من المال على التعليم فاننا لن نتهم بالاسراف أو الشطط

وقد كان التعليم فى الازمنة القديمة زينة يتزين بها الرجال أو كان نوعا من التبرج الذهنى فكان المتعلم يدرس البلاغة والاشعار لكى يباهى بتأليف خطاب منمق أو قصيدة مزخرفة ولم تكن هذه حال الشرق فقط بل كانت أيضاً حال الغرب حين كان يتعلم أبناء الأغنياء للتثقف فقط. أما سائر الناس فكانوا يتعلمون صناعة « راقية » مثل درس الديانة أو الطب أو التعليم

وبقيت الحال على ذلك الى وقت قريب بل هى عندنا ماتزال كذلك ففى مدارسنا الكبرى لاتعلم عندنا سوى الصناعات الراقية التى يتوهم أبناء الأغنياء أنها تليق بهم دون سواها. فعندنا مدارس عليا لتخريج المحامين والاطباء والمهندسين والمعلمين وهى صناعات تتسم كلها بأن صاحبها يستطيع أن يعيش وهو نظيف اليد واللباس وقد ينال بها منصباً يقف فيه موقف المدير المسيطر

وقد خرجت أوربا وأميركا من هذا الطور ورفعت شأن الصناعة بجعلها جزءا من التعليم الجامعى. وقد اضطرت الى ذلك بتقدم الصناعة من جهة ولأنها رأت أن النظريات العلمية تزيد تقدمها

وكانت الصناعة الى عهد قريب من محتكرات العامة وكانت وضيعة يترفع عنها الخاصة ولكننا نعيش الآن فى عصر صناعى لايبلغ الرقى فيه من الامم سوى تلك التى مارست الصناعات واستخدمت العلم فى سبيلها ولذلك فان التعليم الصناعى قد ارتفع الى مكانة التعليم العالى وصار الدباغ الذى يشتغل بدبغ الجلود كيماوياً عظيما له حرمة الطبيب أو المحامى ويمتاز عليهما بالثروة ومما يدلك على قيمة الصناعة أن دول الحلفاء مدة الحرب الكبرى كانت ترسل جواسيسها لكى تسرق من ألمانيا سر صناعة الاصباغ فهى لم تحاول أن تسرق منها سر الفلسفة أو سر الآداب الالمانية وانما جهدت جهدها لكى تسرق منها سر الصناعة

وفى هذا كله عبرة لنا نحن المصريين فتعليمنا العالى يجب ألا يقتصر على الثقافة والآداب والعلوم النظرية بل يجب أن ينظر فيه الى ترقية الصناعات فنحن نريد متخرجين حاصلين على شهادات عليا تساوى شهادة الطب أو المحاماة فى القيمة والاعتبار ولكن صاحبها يستطيع أن يحترف بها حرفة صناعية فيدير مصنعاً كيماوياً أو ميكانيكياً أو يدير مزرعة يستطيع أن يستغلها استغلالا علمياً ويستنتج فيها السلالات الجديدة من النبات أو الحيوان

ولسنا بذلك ننتقص من قيمة الآداب أو الثقافة فى التعليم بل نريد أن نقول أن الاقتصار عليهما قد صار لايجدى نفعاً عظيما ولايجلب للأمة الثروة التى ترفعها الى مصاف الامم الراقية لأننا مهما تمحلنا من أسباب الرفعة للأمة فاننا لانستطيع أن نقول بأن الرقى ممكن فى أيامنا هذه مالم تدعمه ثروة ضخمة للأمة. وسبيل الثروة هى الصناعة

فيجب لذلك أن يتجه التعليم فى مصر نحو الصناعة ورفع شأنها حتى يقبل عليها الشاب ويرى وهو يمارسها أن كرامته محفوظة وأنه لاعار عليه فى أن يكون صاحب مخبز أو مصبغة أو ورشة

سعة الصدر وحاجتنا اليها

ربما كانت سعة الصدر من أهم علامات الرجل المهذب الذى تثقف بمختلف الآداب والعلوم كما هى أيضاً من أهم شروط الحضارة فالرجل الذى غذا نفسه وثقفها ووقف على آراء المتقدمين والمتأخرين لايسعه أن يتعصب لفكرة سوى الفكرة القائلة بحرية الرأى أى القائلة بعدم التعصب فهو يستطيع أن يتحمل كل نقد ويتسامح فيه لأنه لسعة ثقافته قد وقف على آراء الكثيرين المختلفين وقدر وجهات نظرهم وعرف حسناتها كما عرف سيئاتها . أما الرجل الجاهل فيتعصب لرأى أو فكرة ويحتد فى الدفاع عنها لأنه قاصر عن الوقوف على وجهات النظر التى تخالفه

وسعة الصدر أيضاً من الشروط اللازمة للحضارة . وهى هنا تسمى التسامح . فليست تقوم فى العالم حضارة بلا تسامح . وذلك لأن الأمة بطبيعتها تنقسم فى الآراء والمذاهب طوائف متباينة فاذا لم تسامح هذه الطوائف واذا لم ترض لغيرها بالوجود كما ترضى لنفسها به فان التعصب يدفعها الى التناحر الذى قد ينتهى بحرب أهلية فيها فناء الأمة وحضارتها . والتسامح هو الرضى بالآراء المخالفة ولو كان فى التصريح بها مايؤلمنا بعض الألم . فكل منا بطبيعته غيور على أن يرى آراءه الشخصية أو الطائفية فاشية حوله ولكن لايمكن أن تقوم حضارة حتى تتسع صدورنا لآراء الغير الشخصية والطائفية ولو كنا نشعر ببعض الألم أو قد يصيبنا قليل من الأذى لنشرها أى اننا يجب أن ننزل عن شىء من مصالحنا تسامحاً ومحافظة على الحرية الفكرية

وهذا يؤدى بنا الى القول بالتسامح فى النقد نتقبله دون احتداد أوشكاية مادامت النية حسنة والغاية المنشودة هى الخير . بل يجب علينا أن تتسع صدورنا للنقد ونعده عاملا من عوامل التقويم لأن الانسان مفطور على الزهو والغرور فاذا قرأ نقداً من أحد الخصوم رأى نفسه كما يراه غيره فينقشع عنه الزهو ويقيم من نفسه ماأعوج . وقد نتألم لهذا النقد ولكن النظر الصادق للمصلحة يجب أن يزيل هذا الألم

وهنا يجدر بنا أن نقول أن الأحرار أو الحريين الذين لاتخلو أمة من حزب لهم فى أوربا انما يقصدون من هذه اللفظة السخاء وسعة الصدر كما يقصدون منها الحرية . فحزب الأحرار هو

حزب الاسخياء الذين يقولون بعدم الضن بالاصلاح على الطبقات الفقيرة . فالرجل الحر ليس هو الذى يطلب الحرية لنفسه فقط بل هو أيضاً ذلك الذى يحس بالاريحة وسخاء النفس وسعة الصدر ومثل هذا الرجل ضرورى لكل هيئة اجتماعية راقية

وقد انتهى الناس من التعصب الدينى وعرفوا أن التسامح فى العقيدة الدينية هو خير ضمان للسلم والامن بعد ان قضوا مئات السنين فى الحروب الدينية التى لم ترد أحداً عن عقيدته ولكنها بللت الارض بالدماء وزادت الاحقاد والضغائن وأخرت الامم ودمرت الحضارة . وصار الناس الآن تتسع صدورهم للاختلاف فى المذاهب الدينية وباتت الحرية الدينية أساساً من أسس الحضارة

ولكن الاختلاف فى المذاهب السياسية قد أوشك أن يأخذ المكان القديم الذى كان للاختلاف فى المذاهب الدينية فامتلأت النفوس احناً وضغائن كثيراً ما بعثت الأيدى المجرمة على ارتكاب الجرائم وصار هناك نوع من الهوس السياسى يشبه ذلك الهوس الدينى القديم حين كان يشعر كل انسان أنه على حق بل يحتكر الحق وان غيره من الخصوم على باطل لا يعرف سوى الباطل وليس هذا الهوس أو التعصب الا دليلا على ضيق الصدر وقلة الثقافة لان الجاهل لجهله مناحى الفكر الاخرى يتعصب لفكرته أما العالم المثقف فلعلمه بها وتوسعه فى الدرس يرى فى نفسه من التسامح وسعة الصدر ما يمنعه من التعصب . والرأى السياسى عند العالم المثقف لا يعدو ان يكون رأياً يقبل التنقيح والابدال ولكنه عند الجاهل عقيدة راسخة لا تقوم على عقل وروية . فلتكن دعوتنا الى التسامح وسعة الصدر للنقد . ولتكن أدواتنا التى نتوسل بها الى ذلك زيادة المعرفة ونشر الثقافة بين الناس حتى لا يقتصروا على وجهة واحدة من الرأى تتجمد فى نفوسهم فتصير عقيدة راسخة بل نعمل على أضعاف روح التعصب بزيادة الثقافة بينهم حتى لا يرون ما للشىء أو للشخص فقط بل يرون ما عليه أيضاً

البذرة

(فلتكن تلك البذرة الحسنة أو القدوة الفاضلة للجيل القادم)

عند الالمان أمثولة تقصها الأم على ابنها ويرويها الكبير للصغير لكى تكون غرساً صالحاً يلذهن يوجه قوى الناس للخير والبر يسمعها الصبى فتنطبع بذهنه وتختلط بدمه وتتأصل فى عناصره فاذا شب عمل بها واتجه نحو الغاية المقصودة منها . والمثل الشائع بين الأمة كما ان الأمثولة التى تقص على الصغار للعظة والعبرة وكلاهما يدل على عقلية هذه الأمة وما تتشوف اليه بل يمكن معرفة طبائع الأمم وأخلاقها من أمثالها

يقول الالمان فى أمثولتهم : ان سائحين كانا قد نزلا فى قرية فبينما هما قاعدين فى خان إذا بنار قد شبت فى القرية

فقال أحدهما : ليس هذا شأنى

ولكن الآخر نهض وعدا نحو النار فانقذ بعض الناس وكثيراً من الأثاث . فلما عاد الى رفيقه سأله هذا : ومن أمرك بان تخاطر بنفسك لمصالح غيرك ؟

فقال الرجل الشهم : ان الذى أمرنى بهذا هو الذى أمرنى بأن أدفن البذرة لكى تنبت وتكثر

فقال الآخر : ولكن لو كنت أنت قد دفنت فى هذه النار ؟ فأجابه الثانى : إذن كنت اكون هذه البذرة

فهذه أمثولة جميلة لو ان أحد شعرائنا وضعها فى مقطوعة يحفظها الصغار لكانت من خير المحفوظات التى تقوم الأخلاق وتغرس فى نفس الناشىء روح البذل والتضحية . ففيها معنى الايثار وبذل النفس لمصلحة الغير ثم فيها هذا المعنى الخطير وهو ان كل كلمة نتفوه بها أو عمل نعمله هو بمثابة البذرة التى تنبت وتثمر آلاف البذور

وهذا يبعثنا إلى ان نحاسب أنفسنا فلا نزرع من البذور الا أصلحها . فكلمة السباب التى ننطق بها أو نكتبها هى بذرة سوء ستنبت كالشوك بين الجيل الجديد الذى ينشأ على تعلمها والتلفظ بها . وخواطر الحقد والحسد والجبن والاثرة التى نتفوه بها أو نكتبها ستجد صدى فى نفوس الذين يسمعونها أو يقرءونها فينشئون عليها نشأة سيئة

فكل منا زارع وما من عمل يأتيه أو كلمة يتفوه بها إلا وهى بمثابة البذرة تنمو وتربو وتثمر الثمرة الصالحة أو السيئة . وذلك لاننا نعيش بين الناس فهم قدوة لنا ونحن قدوة لهم وهم يتأثرون بأعمالنا وأقوالنا كما نتأثر نحن بهم . وأكبر عامل فى الأخلاق بل يكاد يكون العامل الوحيد فيها هو القدوة فنحن ننشأ على غرار من حولنا من الناس الذين نعاشرهم أو نلابسهم فى معاملة أو زمالة أو نحو ذلك . ومرجع هذه القوة التى نراها فى القدوة هو ما فطرنا عليه من المحاكاة لغيرنا . فنحن نحاكى الناس فى حركاتهم وكلامهم وأعمالهم على غير وعى منا بحيث أننا نحب ونكره الناس والأشياء أو نعجب بهم فى أكثر الأحيان ان لم نقل فيها كلها تقليداً ومحاكاة وليس عن سبيل التفكير والاختيار . فاذا كان هؤلاء الناس يبذرون البذرة الصالحة فى القول والعمل نشأنا مثلهم وإذا كانوا عكس ذلك ينطقون بهجر القول ولا يستحيون من فاسد أعمالهم فاننا نقتدى بهم ونسير سيرة السوء التى يسيرون عليها . ومن هنا نفوذ الكاتب أو الزعيم أو

أى انسان آخر له وجاهة المال أو الحسب او المركز فانه يستطيع بالقول أو العمل ان يكون قوة للخير أو الشر وان يكون بذرة تنبت للجيل الذى يليه فينتفع أو يستضر بها فى أخلاقه. ويجب لهذا السبب ان تكون فينا روح ذلك الالمانى الذى يرمى بنفسه فى النار لكى ينقذ بعض الناس أو الاشياء راضياً بأن يكون كالبذرة تدفن فى التراب لكى ينتفع بها أبناء الجيل القادم إذا لم ينفع أبناء الجيل الحاضر. وإذا كنا نؤمن بأن الوسط يؤثر فى الانسان فاننا يجب ألا ننسى اننا أنفسنا أحد أجزاء هذا الوسط الذى يتألف منه الكل. وكما ان الوسط السىء يجعل اللص الكبير رئيس المنسر والعاهر السكير والمبذر من الأبطال الشهام فكذلك الوسط الحسن لا يقر بالبطولة والشهامة الا للرجل الطاهر الذى يسعى للخدمة فيعمل لتأسيس مدرسة أو مستشفى أو اصلاح أحوال العمال أو نحو ذلك مما هو فى نسق الرقى الحديث وشهامة القرن العشرين. فيجب ان نكون نحن تلك البذرة الحسنة والقدوة الفاضلة للجيل القادم

من أحلام اليقظة

.... ثم رأيت الريف المصرى وقد تبادل عما كنا نعرفه ولبس ثوباً زاهياً من النضرة فى الحقول والنظافة فى القرى فكانت القرية بعيدة كل البعد عما كنا نألفه من تلك المنازلة المبنية بالطين والطوب المجفف فى الشمس تلك التى كنا نراها فى أيامنا كامدة اللون كثيرة الغبار والتراب بل كانت القرى الجديدة أشبه شىء بالمدن الصغيرة فكانت البيوت مشيدة بالحجر كل بيت يتألف من طابقين والأنابيب تحمل المياه اليها وهناك أنابيب أخرى تحمل الغاز للاضاءة والطبخ. وكانت الشوارع مفروشة بالأسفلت ووراء كل بيت حديقة صغيرة للزهر وشجيرات الزينة

وتأملت الفلاحين أنفسهم فألفيتهم يلبسون ملابسنا نحن الأفندية. ولم يكن أحد منهم فى أيامنا يعرف الجورب المصباغ أو القميص الذى يغلى فى الماء حتى كأنه يسلق فيخرج أبيض ناصعاً فكنت أرى الفلاحين فى هيئة الأفندية المتأنقين فاتساءل: من أين جاءتهم هذه الثروة وكيف يعملون فى الحقول وهم بهذه الملابس الفاخرة؟

وشرعت أدرس أحوالهم فاتضح لى بعد قليل أنهم تركوا الطرق الزراعية التى كنا نتبعها فقد كان كل فلاح فى أيامنا مهما تراوح عقاره من بضعة قراريط الى بضعة أفدنة يعمل لنفسه فيشترى لنفسه آلات للرى وأخرى للحرث ويشترى الماشية لخدمة أرضه وكان فقيراً مريضاً

ينزل الى خصره فى الماء الآسن فتعلق به ديدان البلهارسيا وتصيب جسمه آفات كثيرة ولكن هؤلاء الفلاحين رأوا أن التعاون خير من الانفراد . فجعلوا القرية أشبه شىء بالشركة المساهمة والفوا هذه الشركة لرى الارض وزرعها وجلبوا لها المهندسين والزارعين الذين كانوا ينظرون الى القرية والارض التابعة لها كأنها مزرعة يملكها رجل واحد فاشتروا لها الآلات القوية لرفع المياة وحرث الارض . فقد كان فى القرية نحو الف ساقية وتابوت وطنبور للرى يعمل فيها نحو الف رجل فمحى كل ذلك وصار للقرية كلها آلة واحدة قوية تبلغ قوتها الف حصان يديرها رجل مهندس اذا جاء ميعاد الرى روى جميع الارض المحتاجة الى المياه . وصار مثل ذلك فى الزراعة . ولما كان الزارعون المشرفون عل الزراعة خبراء متعلمين فانهم وجهوا أكبر نشاطهم وهمهم الى زراعة الخضراوات والفاكهة فكانت غلة الفدان لاتقل عن ٧٠ أو ٨٠ جنيهاً وكانت مصر تصدر الفاكهة والبقول الى جميع أرجاء العالم . ولم يكن الفلاح يزرع أرضه بنفسه وانما كانت شركة التعاون تقوم بالرى والزرع والحصاد وتعطيه فى آخر السنة قيمة حصته بحسب مايملك فى زمام القرية . فكان لصاحب الفدان سهم بينما كان لصاحب العشرة الأفدنة أسهم وهلم جراً

وفى الوقت نفسه لما وجد الفلاحون أنفسهم بلا عمل وأن الحديد والنار بأشراف المهندسين والخبراء يقوم مقام عضلاتهم فى الماضى عمدوا الى الصناعة فأسسوا مصانع للغزل والنسج والجبن والاحذية والاثاث والورق . ورأيت القطن يجنى من الحقل فيوضع فى طرف من المصنع فيحلج ثم يغزل ثم ينسج ويخرج قماشاً جميلا من الطرف الآخر وكان للصناعة شركة تعاون أيضاً تقسم الربح آخر العام بالمساهمة بين الذين اشتركوا فى خدمتها والعمل فى مصانعها وأثرى الفلاحون من ذلك أثراء فاحشاً فزالت أمراضهم وكادت تمحى جرائمهم وصاروا يتأنقون فى ملابسهم ومساكنهم ويشتركون أحياناً فى بناء مدرسة أو مسرح حتى لقد رأيت منهم أجواقا تمثل هامليت وروميو وجوليت وصارت لهم أندية يمضون فيها وقت الفراغ . وكان بعض القرى يميل الى تأسيس المكاتب وبعضها ينفق النفقات الباهظة فى انشاء المدارس وبعضها يتباهى بتأليف الجوقات الموسيقية أو التمثيلية

وكما توافر لديهم المال كذلك توافر لديهم الوقت فلم يكونوا يضطرون الى استخدام أبنائهم فى الحقول بل كانوا يرسلونهم الى المدارس فلا يخرجون منها الاحوالى العشرين فيستخدمون بعد ذلك بأجور عالية فى شركة التعاون التى تدير الزراعة أو تلك الشركة الاخرى التى تدير الصناعة وفشت الحضارة والثقافة بين الفلاحين فصارت القرية تجذب سكان المدن وكان هذا حلماً من أحلام اليقظه

العلم والعمل

من الكتب الفريدة التى ظهرت هذا العام كتاب « العلم والعمران » الذى أصدرته ادارة المقتطف وهو مجموعة من الخطب العلمية التى ألقاها أساطين العلوم فى مجمع تقدم العلوم البريطانى فى الثلاثين سنة الماضية . ولغتنا أحوج لغات العالم الى مثل هذه الخطب التى تبث الروح العلمية فى نفوس القراء

ولغتنا بطبيعتها لغة أدبية تؤاتى الكاتب على الزخرف ولكنها لاتؤاتيه على الدقة العلمية ولذلك فان مثل هذا الكتاب من النوادر التى يجب أن نقتنيها ونعممها لأنها تعمل على تقدم لغتنا وجعلها لغة علم وتدقيق

ونحن الآن نعيش فى عصر الصناعة وأساس الصناعة هو العلم . فايما أمة عنيت بالعلم وارتقت بذلك فى الصناعة فلها السيادة على سائر العالم . ولكن العلم ليس نظريات تحفظ فى المدارس وتجاز بها الامتحانات لانه لايثمر الا اذا كان نزعة فى النفس ينشأ عليها الصغير ويتربى عليها الصبيان حتى اذا شبوا نظروا للاشياء نظرة النقد وفكروا تفكير المخترع والمكتشف

والقراء يعرفون أن أعظم ماغاظ الانجليز من الالمان تقدم هؤلاء فى الصناعة وانهم شرعوا عقب الحرب الكبرى ينقلون عن ألمانيا طرق التربية العلمية . بل هم كانوا يقولون بذلك قبل الحرب بسنوات كما يرى القارىء من خطبة الاستاذ ديور سنة ١٩٠٢ فقد ذكر معمل بير الذى يصنع الطيوب والاصباغ من الفحم وذكر أن فيه ٥٠٠٠ عامل و١٦٠٠ كيمياوياً و٢٦٠ مهندساً ميكانيكياً و٦٨٠ كاتباً ثم ذكر تفوق الالمان على الانجليز وقال فى ذلك (نقلا عن كتاب العلم والعمران)

« ولايظنن أحد انانقدر أن نرد مافات ونسد هذا النقص بما عندنا من المدارس ووسائل التعليم لأن الميول العلمية توجد فى النفس قبل المدارس الصناعية . فيجب علينا أن نربى أبناءنا فى صباهم تربية عقلية حتى يزنوا الامور بميزان العقل ويحلو المشكلات بعين الروية لا بما يحفظونه من القواعد العلمية فانه يخرج من مدارسنا كل سنة كثيرون من المتعلمين فن الكيمياء ولكن لايصلح أحد منهم لمعمل بير الالمانى المشار اليه آنفا فان عقولهم مفعمة بما استظهروه من القواعد العلمية ولكن اذا عرضت لهم مسألة عويصة ليست فى كتبهم عجز علمهم عن حلها لانه لم يصر جزءا من عقولهم ولذلك يوحلون كلما عرضت لهم مسألة جديدة . والذين يسهل عليهم حل المشاكل هم الذين اعتادوا التفكير والتدبير قبلما دخلوا المدارس الجامعة . فالأمر المهم ليس هو أن الالمانيين أخذوا من يدنا هذه الصناعة أو تلك بل أنهم سبقونا فى التربية العقلية العمومية حتى لانستطيع أن نلحق بهم فى أقل من ستين عاما هذا اذا بذلنا أقصى الجهد »

فاذا كان الاستاذ ديور يقول هذا القول عن الانجليز والكتب العلمية فاشية بينهم ولغتهم تطاوع العالم على التعبير والوسط الذى ينشأ فيه الصبيان صناعى يبعث على التفكير العلمى فما هو حالنا نحن أمام هذا الرقى العلمى ؟ واذا كان الانجليز الذين يستعمرون بلادنا بالصناعة والسياسة يحتاجون الى ستين سنه لكى تتعود أذهانهم الاسلوب العلمى فى التفكير فكم سنة نحتاج نحن اليها لكى نبلغ مبلغ المانيا ؟

حقاً اننا عندما نفكر فى حالنا من حيث العلم والصناعة نواجه معضلات عدة أقلها هذه اللغة التى يأبى علينا بعض علمائها ان نغذوها بالالفاظ العلمية الغربية وأ دبرها بث الروح العلمية فى الصبيان حتى يصير العلم كما يقول الاستاذ ديور « جزءاً من عقولهم » فان طريقة التعليم الفاشية بين صبياننا الآن تعودهم الاستظهار وسرد القواعد فينشئون على ان العلم لاعلاقة له بالحياة ويعيشون عيشة غير علمية لايفكر أحدهم فى اختراع أو اكتشاف

اننا يجب أن نرسم لنا غاية نتجه ونرتقى اليها وهذه الغاية هى أن نرمى الى أن تكون لنا فى المستقبل حضارة صناعية نتهيأ لها بالعلم . وهذا التهيؤ يحتاج الى بث الروح العلميـة بين الصبيان والشبان هذه الروح التى تعمل للبحث العلمى والتى تجعلنا نملك ناحية الطبيعة ونعيش عيشة علمية

زراعة الجو

كلنا يسمع الآن عن عجائب العلم من الطيارات التى تقتحم الجو وتركب السحاب وتعبر المحيط ومن الغازات الخانقة التى توشك ان تلغى الحروب خوفا من الحروب ومن انتصارات العلم الكثيرة فى الطب والجراحة . ولكن أعجب الاشياء فى العلم الحديث هو اقتدارنا على زراعة الجو

وتفصيل ذلك أن أهم العناصر التى تقوم بها الحياة هو عنصر النتروجين وهذا العنصر لايمكن الحيوان أن يحصل عليه الا من النبات ولا يمكن النبات ان يحصل عليه الا من الارض . وذلك مع ان الجو مملوء به حتى يمكن ان يقال ان كل قدم من الارض يقوم فوقه نحو طن من النتروجين ولكنه مع كثرته هذه لا يمكننا نحن ولا النبات ان ننتفع به لان النبات يحتاج اليه مركبا وهو فى الهواء بسيط .فالنبات يمكنه أن يتغذى بالكربون الذى فى الهواء ولكنه لا يمكنه ان يتغذى بالنتروجين الا اذا كان فى هيئة أملاح تذوب فى التربة وتمتصها الجذور

وحوالى سنة ١٩٢ تمكن السير كروكس من ان يجعل غاز النتروجين يحترق فى مجرى كهربائى بين قطبين ويتولد منه مركب يمكن ان يوضع للنبات فيمصه كما يمتص سائر الاسمدة . والآن يستخرج من الجو كل عام نحو مليون طن من سماد النتروجين . وهو يباع فى مصر للمزارعين

باسم النترات فيسمدون به الذرة والقمح . وقد هم استعمال هذا السماد فى جميع الاقطار الزراعية فاذا نحن فرضنا ان كل طن قد زاد غلة القمح بنحو ٢٠ أردباً فاننا بهذا التقدير نكون قد اكتسبنا من الجو نحو ٣٠ مليون أردب من القمح

وهذا هو مانقصد بقولنا اننا الآن نزرع الجو . فنحن نربح من الجو كل عام هذا المقدار من القمح . وهذا المقدار نفسه سيزداد بتقدم السنين فيزداد عدد السكان فى العالم من ان يكفى القطر الزراعى عشرة ملايين سيكفى ٢٠ أو ٣٠ مليوناً ويقل الخوف من القحط . كذلك يجب ألا ننسى ان هذا السماد نفسه المستخرج من الجو يستعمل فى تسميد النباتات الاخرى التى تنبت القطن والكتان والفواكه ونحوها

لقد اهتدى جدودنا المصريون القدماء الى زراعة اليابسة ففتحوا فتحاً عظيما للانسان وزاد بذلك سكان العالم أكثر من مائة ضعف . ونحن نسمع الآن عن زراعة البحار والانهار والبحيرات يجلب اليها بيض السمك من البحار البعيدة ويربى فيها كما تربى بذور النبات على اليابسة ولكن اغرب من هذا وذاك زراعة الجو واستخراج ملح النترات منه

وهكذا يسير العلم الى الامام فيقف الكيمياوى فى معمله يجرب ويختبر فى بضع زجاجات وكأنه يلعب ولكنه يخرج بنتائج خطيرة كهذه النتيجة المهمة التى تضاعف غلات العالم وتوشك ان تضاعف سكانه

والآن يلعب العلماء باستخراج السكر من الخشب . ويلعبون بصنع البترول من الفحم . وقد مضى عهد اللعب بصنع الحرير من الخشب وصار هذا النسيج يباع فى الاسواق ويزحم الحرير الطبيعى ويطرده من الاسواق . وما يلعبون به الآن سيكون له شأن عظيم فى رقى الامم فى المستقبل

واذا أنت نظرت الى الامم الراقية ألفيتها تلك التى تعتمد على العلم وباعتمادها على العلم قد صارت أمما صناعية لان العلم هو الاساس الذى تبنى عليه الصناعة . وهذه الامم تسود العالم بقوة علمها وارتقاء صناعاتها

ولكن لنا عبرة أخرى من اكتشافات العلماء وهى أن المستقبل كفيل بان يظهرنا على معجزات عجيبة ويفتح لنا فتوحاً جديدة ويجعلنا نستغل الجو والبحر واليابسة باكثر جداً مما نستغلها الآن . فلن نستغرب منذ الآن نجاح أحد العلماء فى صنع اللبن من النبات فيغنينا بذلك عن المشاق التى نعانيها الآن فى تربية البقر وحلبه واتقاء الامراض التى يحملها اللبن الى أطفالنا . ولن نستغرب فى المستقبل ان تطبخ ملابسنا طبخاً بدلا من ان تغزل وتنسج

وهكذا يسير العلم ويرفع الامم التى تمارسه ويجعل لها السيادة على الامم التى تهمله

الفقر

كلنا الآن حكومة وأمة وجماعات وأفراداً مشغول البال بمسألة اصلاح الاحوال التى يعيش فيها عمالنا وخصوصاً الفلاحين منهم . فالحكومة تواصل العمل جادة فى زيادة ثروتهم بتوزيع الارض التى تملكها عليهم . ومصلحة الصحة تدرس المشروعات الخاصة بايصال الماء المقطر الى القرى وانشاء المستشفيات العديدة بينهم . وقد سنقانون خاص ببناء العزب أحيط به الفلاح برعاية لم يكن يحلم بها من قبل . فهذه كلها مقدمات تبعثنا على التفاؤل بالمستقبل . وان اليوم الذى نرى فيه قرانا نظيفة جميلة وفلاحنا صحيح الجسم راغدالعيش ليس بعيداً . والواقع الآن انه ليس شىء يجرح كرامتنا القومية ويقذى العين بمنظره مثل هذه القرى التى ترقد بين الحقول النضرة كأنها القروح المتقيحة فى الجسم الجميل . فبينا الطبيعة تزين أرضنا بنضارة الحياة وزهوتها اذا بنا نقيم فى وسطها أكواخا متراكمة من الطين ليس فيها شىء من جمال الهندسة أو النظام . ومع ان الريف فى جميع الاقطار مكان التنزه والراحة والنسيم الذى يحمل أرج الزهر فانه فى قطرنا خلو من كل مايجذب اليه النفس بل فيه الشىء الكثير مما يصد ويبعث على الاشمئزاز . ولكن العلة الأصلية التى ترجع اليها الأمراض التى يشكو منها الفلاحون وسائر العمال وكذلك علة القذارة التى يعيشون فيها أحياناً هى الفقر . فاذا نحن أردنا ان نجعل ريفنا جميلا وقرانا نظيفة تشاكل بنظافتها نصاعة الطبيعة التى تحوطها واذا أردنا ان نرى العامل المصرى فى بزة حسنة يعيش فى منزل له هيئة المنازل فسبيل ذلك هو محو الفقر أو مكافحته حتى يمحى

وقد تدفعنا الانانية أحياناً الى ألا نبالى بالفقر مادمنا بعيدين عنه ولكن الفقر أبو الرذائل التى تنتقل من الفقير الى الغنى وتصيب أفراد الأمة على السواء من أمرائها الى صعاليكها . فجميع الاوبئة الوافدة تفد أولا على الفقير وتعيش وتتربى فى بيئة القذارة التى تحوطه ثم تنتقل منه الى الغنى فتصيبه كما تصيب الفقير ولولا هذه البيئة القذرة الاولى لما وجدت الامراض الوافدة التربة الصالحة لنموها وتفشيها . فاذا أراد الغنى ان يتقى الامراض ويصون صحته من الضعف فأوكد السبل الى ذلك ان يكافحها بين الفقراء أنفسهم ولا يكون ذلك الا بمكافحة الفقر . ونحن نعرف الآن ان كثيراً من الامراض تنقلها الحشرات . فالبراغيث تنقل الطاعون والقمل ينقل التيفوس والذباب ينقل التيفوئيد وهذه الحشرات كلها لاتعيش الا فى الوسط القذر حيث يحول الفقر دون النظافة . وكلنا عرضة لهذه الحشرات التى تدب على أرجلها . فقد يقعد أحدنا مرة

واحدة فى الترام أو القهوة فيقوم وقد علقت بملابسه قملة تنقل اليه حمى التيفوس وتقضى عليه .
وقد يشرب أحدنا قليلا من اللبن قد لمسته ذبابة تحمل فى أرجلها ميكروبات التيفوئيد فتقتله بعد
آلام مضنية . والفأر الذى يسكن بيوت الأغنياء كما يسكن بيوت الفقراء يحمل على جسمه البراغيث
التى تصيبنا من وقت لآخر بالطاعون

ونحن نلابس الفقر فى كل مكان مهما تخيلنا اننا بعيدون عنه . فنحن نستخدم الفقير فى بيوتنا
يطهى لنا طعامنا ويحمل أولادنا الذين يتعلمون منه لغته ويتلبسون بشىء غير قليل من أخلاقه
ويحفظون ألفاظه بل أولادنا يعاشرون الخدم أكثر مما يعاشروننا فيجنون من ثمار الفقر شيئاً
غير قليل يلازمهم طول حياتهم

والفقر يؤذى الأغنياء لانه يخلق من الفقراء مجرمين يعتدون عليهم . ويحدث أحياناً ان
تحترف الفتاة الفقيرة حرفة البغاء فتنشر الامراض الوبيلة بين الاغنياء

فمن ذلك كله نرى ان الفقر يعدى الغنى ويحمله شيئاً من جرائره ونرى أيضا ان واجبنا جميعاً
ان نمحو الفقر ان لم يكن حبا بالفقراء فحبا بأنفسنا وصيانة لها من الامراض والرذائل

فالانانية تقضى علينا بأن نحب غيرنا كما نحب أنفسنا وان نعمل لاصلاح الاحوال التى يعيش
فيها عمالنا كما نعمل لاصلاح أنفسنا وليس ذلك شاقا علينا فهذا طور قد قطعته أوربا فكل ما علينا
أن ننقل منها ونحذو حذوها

العادة

يحدث أحياناً اننا نرى رجلا قد أسن بعد أن قضى حياة طويلة فى الرذيلة التى جلبت عليه
الفقر وأضاعت أمواله وحطت من كرامته ثم نراه بعد ذلك ممعنا فى الرذيلة لا يكف عنها
ولا يبالى بعواقبها على طول خبرته بها فتعجب لهذه التجارب كيف تمر به وهو لا ينتفع بها .
فكلنا يعرف ان الرجل المجرب خير من الغرير الساذج لان خبرته أوسع ومعرفته أوفى ولكن
الامعان فى الرذيلة لاتزيد التجارب صاحبها حكمة بل تزيده أغلالا هى أغلال العادة

وذلك أن شارب الخمر أخبر بها وأكثر تجارب لها وأعرف بعواقبها وما تجلبه من مرض
وشقاء على مدمنيها من ذلك المتعفف عنها الذى لم يذقها قط فى حياته . ولكنه مع معرفته وتعدد
تجاربه لها يعجز عن الكف عنها ولو رغب فى ذلك أشد الرغبة لان الخمر قد تملكت جسمه
وأعصابه وصار لها عليه سلطان العادة

والعادة هي من القوة بحيث قد وصفت بأنها الطبيعة الثانية . وهي في كثير من الناس علة شقائهم وفقرهم ولكنها عند الآخرين سبب السعادة والرقي . فهذا يشقى لانه اعتاد الاكباب على الشراب أو تناول المخدرات أو الاسراف في المعيشة . وهذا يسعد لانه اعتاد الاقتصاد والصحو والاعتدال في معيشته

وهذه أمثلة واضحة لا يشق على أحدنا أن يراها ويرى عواقبها فيمن يصادقهم أو يعرفهم. ولكن للعادة أحياناً مسارب الى النفس وطرقا الى الذهن أدق وأخفى من ان تتضح لنا فنحن نرى آثارها دون أن نراها . وذلك أن كل مانعمله في حياتنا يجرى منا مجرى العادة . فنحن نصف أحد الناس مثلا بأنه خفيف الروح نكاد نعد مجالسته لنا فضلا منه علينا فاذا دققنا النظر فيما تنطوى عليه وتتألف منه خفةروحه الفيناهافي بضع عادات صغيرة قدتعودها : في تلك الابتسامة التي تجعل وجهه بشوشاً يهش الى أصدقائه ، وفي قوام نحيف اعتاده الجسم من الاعتدال في الطعام وفي فكاهة ظريفة ينطق بها كأنها . . . كأنها عادة

فنحن ننشط الى الحركة والكلام والعمل والسعي بطبيعتنا ولكن العادة تصقل هذه الطبيعة فاننا نكتسب الرشاقة في الحركة والكلام بما نتعوده من العادات الصغيرة كالطفل ينشأ وبه الدافع الطبيعي الى الحركة والكلام ولكنه يتعود طريقة خاصة فيهما تلازمه مدى حياته

ويمكن أن يقال مثل ذلك أيضاً عن طريقة التفكير التي نفكر بها في الشئون الخصوصية أو العمومية وعن الآمال التي نؤملها ونضعها نصب أعيننا في الحياة فانها كلها عادات نتعودها وقلما نستطيع الخلاص منها . واذا كان مدمن الخمر يشق عليه أن يكف عن تناولها وقد يؤثر الموت وارتكاب أية جريمة على ذلك فان ذلك الرجل الذى اعتاد طريقة خاصة في التفكير والنظر للحياة يشق عليه جداً أن يبدل هذه الطريقة أوهذا النظر . ولهذا يشق على الغربي أن ينظر الى الحياة نظرة الشرقي أو يعيش عيشته كما يشق على الشرقي عكس ذلك أيضا وكلاهما في الحالتين خاضع لسلطان العادة هذا السلطان القوى الذى هو أصل سعادتنا وشقائنا

ولذلك يجب علينا اذا كنا صغارا ألا نتعود الامايفعنا من العادات واذا كنا كباراً يجب أن نلزم عاداتنا الحسنة ونكافح عاداتنا السيئة بما يجانسها ويقاربها من العادات الحسنة ثم يجب أن نذكر انه مامن سيئة أو حسنة نأتيها الا وفيها بذرة العادة ومامن خاطر يمر برؤوسنا الا وهو يطبعنا بطابع خفيف ولكنه سرعان مايغور ويتعمق اذا تكرر وصارت له قوة العادة ولنذكر أن العادة طبيعة ثانية بل هي احيانا أشد من الطبيعة فان من يتعاطى المخدرات يرضى بالجوع ويقهر بذلك طبيعته ولكنه لا يرضى بالنزول من عادته في تناول المخدر

ماهو التمدن

من الناس من لا يهمهم من التمدن الا أن يعرفوا هل هو التمدن أو التمدين . أما أنا وأنت فلا نبالى بذلك بحقيقته وماهيته

ونحن نبالى بذلك لأننا نرغب كلنا فى أن نكون متمدنين وأن نبلغ من التمدن أعلى درجاته ولذلك يجب علينا أن نعرف ماهو التمدن

لقد سأل أحد الكتاب الانجليز وهو المستر بل هذا واجاب عليه بكتاب ضخم استقرى فيه أحوال الامم المتمدنة فى العصور القديمة والحديثة لكى يعرف منها تلك السمات التى تتسم بها وتشترك فيها الحضارات مهما اختلفت أزمانها أو أقاليمها . ولكنه قبل أن يشرع فى بحث هذه المحاضرات ومقابلتها الواحدة بالاخرى عمد الى الاوساط المتبربرة حيث لاتكون الحضارة فوجد فيها جملة صفات هى فى الواقع أساس الحضارة ولكنها ليست بها كما نفهم نحن الآن من مدلول هذه الكلمة

ففى الاوساط المتبربرة نجد احترام الامتلاك فى العقار والايمان باله ما وبالحياة الاخرى ثم احترام المرأة والصدق والنظافة والطهارة والدفاع عن الوطن . فهذه صفات توجد عند المتمدنين وغير المتمدنين وهى قد تعد أساساً للحضارة ولكنها ليست الحضارة كما نفهمها الآن فاننا نطلب من الرجل المتمدن أو المتحضر أشياء أدق وأخص من هذه العموميات

وليس من الحكمة أن نبحث عن الحضارة فيما نتخيله من صفات نميل اليها بمزاجها الذهنى أو بحكم صناعتنا أو الظروف الوقتية التى نعيش فيها وانما علينا أن نعمد الى الامم التى اشتهرت بالعصور الذهبية وقت ارتقاء حضارتها ثم نفتش فيها عن الصفات البارزة التى تشترك فيها وتعد هذه الصفات شرطاً للحضارة أو التمدن الراقى . وهذا هو مافعله المستر بل . فانه بحث حضارة الاغريق القدماء فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد ثم بحث عصر النهضة فى ايطاليا ثم العصر السابق للثورة الفرنسية فى فرنسا ووجد بالمقابلة أن هذه العصور الثلاثة تشترك فى جملة صفات هى مانعنى نحن الآن بالحضارة الراقية . وهذه الصفات هى سيطرة العقل وتسويده على جميع المناحى التى ينحو اليها نشاط الامة . وهذه السيطرة التى للعقل تورث الامة ذوقا خاصا يحترم الحق والجمال ويبعث على التسامح وشرف الذهن والتأنق والمجاملة والاستطاع وادراك

معنى الفكاهة وكراهة الاسفاف والقسوة والمبالغة والخرافات والحياء الكاذب والتجرؤ على التمتع بالحياة والرغبة فى الحصول على تربية حرة والقدرة على الاعراب عما فى النفس

وهذه هى صفات الحضارة الراقية كما يراها المستر بل فى أحسن العصور الذهبية لثلاث أمم من أعظم الأمم فى تاريخ العالم . وهى مقياس يمكننا أن نقيس به الدرجة التى بلغناها فى معارج الرقى . وأول ما نتساءل عنه هو : هل نحن نجعل للعقل السيطرة التامة فى شؤوننا العامة؟ ثم هل نحترم الجمال والتسامح ونكره القسوة والمبالغة ؟

أن المتتبع للغة الصحف فى الشهرين الماضيين لايتمالك من الاسف لما بلغته من الاسفاف فى وصف خصومها والمبالغة فى هذا الوصف حتى لقد ذكر أحد الكتاب حزبا من الاحزاب بأن أعضاءه عواهر ولم يقنع بهذه اللفظة العامية المعبرة عنها

أن فى سمات الحضارة الراقية التى ذكرها المستر بل أشياء جديرة بالنظر والدرس . ولكن نحن فى ظروفنا الحاضرة نرى أن شروط المجاملة والتسامح وكراهة المبالغة والاسفاف قد غابت من الصحف فى الشهرين الماضيين وصار الكاتب يصف خصومه السياسيين بالجنون والخيانة والعهر وسائر مترادفات هذه الالفاظ وهو لايبالى بما يقول . فعلينا جميعا أن نذكر أمثال هذا الكاتب بشروط الحضارة الراقية ونسأله : هل أنت متمدن ؟

فى التقدم

تتقدم الامم وترتقى بجملة وسائل منها التسلط على الطبيعة وذلك باختراع الآلات التى توفر على الانسان مشقة العمل وتزيد بذلك حريته ورفاهيته . ومنها الارتقاء فى الاخلاق وليس هذا الارتقاء سوى الرضى بالتعاون بدلا من التنازع والنزول عن الاثرة من أجل الايثار . ومنها رفع المستوى فى التعليم حتى يفوز كل انسان بحقه فى الثقافة العالمية

هذه بعض الوسائل التى تتقدم بها الامم . فاما من حيث التسلط على الطبيعة واستغلالها لمصلحة الانسان فهذا واضح من الآلات الكثيرة التى لاتجعلنا نركب الهواء فقط بل نزرعه كما نزرع الارض ونستخرج منه النتروجين ، وكذلك تقدم الصناعة بالكيمياء التى جعلتنا أو بالاحرى جعلت من هم أعلم منا وأثقف يصنعون الحرير من الكرنب والموز والحطب وربما قضوا على زراعة القطن عندنا يوماً ما

ولكن الى جانب هذا التقدم الصناعى نجد تقدماً فى الاخلاق فالرق قد الغى منذ القرن الماضى وكان الغاؤه لحافز انسانى لان الاديان لم تحرمه قط . وكانت المرأة الى وقت قريب فى

معظم أرجاء العالم تعيش كالامة التى لا رأى لها فى شأن ما أمام زوجها ولكن الرجل نزل عن حقوقه راضياً ورفعها الى مستواه فصار لها رأى فى البرلمانات وسائر المجالس النيابية . وقد كان من الحوادث الجميلة فى عصرنا الحديث ان نرى أمة كبيرة تبلغ نحو ١٢٠ مليوناً من السكان نعنى بها الولايات المتحدة . ينزل فيها الرجال عن حقهم فى شرب الخمور ويحرمونها على أنفسهم بشرعة خاصة وفى الوقت نفسه يمنحون المرأة حق التصويت للهيئات النيابية اسوة بهم . أليس هذا ارتقاء فى الاخلاق

ومن الظواهر التى تدل على التقدم فى الاخلاق تلك الغاية التى نراها لمصلحة العمال وتعليمهم واسكانهم فى مساكن نظيفة وتحديد ساعات العمل لهم ومنحهم المعاشات عندما يبلغون سن الشيخوخة . فهذه العناية قد قام بها الاغنياء لمعاونة الفقراء وكان الدافع اليها تلك الاريحية التى يشعر بها الرجل المهذب فتسخو نفسه بالاصلاح ولو كان فيه بعض الخسارة أو المشقة عليه . وقد قامت أحزاب الاحرار فى أوربا وأميركا بضروب من الاصلاح لم تتحقق للآن فى روسيا نفسها . بل الواقع ان فى انجلترا من الاشتراكية أكثر مما فى روسيا . وليس ذلك الا لان فى انجلترا طبقة من الاغنياء المهذبين نزلوا عن كثير من حقوقهم راضين للعمال . ولم يكن لهم من باعث سوى سمو أخلاقهم

وثم وسيلة ثالثة نراها فى التعليم وارتقائه بين الامم المتمدينة . فمعظم الامم الراقية الآن لا تقنع بالتعليم الابتدائى الاجبارى بل تتجاوزه الى جعل التعليم الثانوى أو بعضه اجبارياً . ولم يعد التعليم يجرى على التقاليد القديمة بل هو يماشى حاجات الثقافة الحديثة . ففى المانيا يتعلم التلاميذ فى احدى المدارس الابتدائية كيف يصنعون الطيارات ويركبونها . وفى معظم المدارس الالمانية أيضاً يتعلم الصبى صناعة التصوير بالفتوغرافية

هذه الامثلة الثلاثة للتقدم أى التقدم فى الصناعة والاخلاق والتعليم تدل على رقى محسوس لا يمكن أحداً منا انكاره . وقد يمكننا ان نذكر بعد ذلك تقدم العالم فى الصحة وفى العلاقات الاممية كما يدل على ذلك ميثاق كيلوج وعصبة الامم ومحكمة الهاى وكلها ترمى الى محو الحروب فلا نشك بعد ذلك فى ان العالم يتقدم

الاجتهاد

يستعمل علماء الشريعة الاسلامية السمحاء لفظة « الاجتهاد » لمعنى آخر غير المعنى اللغوى الذى هو استفراغ الجهد فى تحصيل أمر من الامور . فالمجتهد فى حدود الشريعة واصطلاح

الاصوليين هو ضد المقلد أو هو الذى يستنبط الاحكام بذهنه ومنطقه حين يجد ان التقيد بالتقليد لا يعود بالمصلحة المنشودة للامة

وما أحرانا نحن بأن نكون « مجتهدين » ايضاً فلا نقلد فى الادب أو الفن أو العلم أو الحياة ذاتها وانما « نجتهد » فى استنباط الاساليب المثلى للمعيشة فنلبس ونأكل ونسكن كما تلهمنا عقولنا وكما يثبت لنا الاختبار والتجربة أن هذا الاسلوب أو ذاك هو خير مايضمن لنا الراحة والصحة والسلام والطمأنينة . فليس علينا أن نقلد آباءنا واسلافنا بلا روية ونعيش كما كانوا يعيشون نلبس ملابسهم ونلزم أخلاقهم ونبنى منازلنا على طرائقهم وانما علينا أن « نجتهد » ونستنبط ونصطنع امثل الطرق التى تضمن لنا الفوز والراحة فى هذه الدنيا . فتسير حياتنا فى تجدد مستمر ولا تركد ذلك الركود الآسن الذى يرى الآن فى الامم الميتة

والتجديد فى الحياة يرمى الى وضع العقل فوق النقل والى العناية بالحاضر اكثر من الماضى والى رعاية الخلف القادم اكثر من السلف البائد . وهو دليل على ان الاحياء ينبضون قوة ونشاطاً ويمرحون من حرية الحياة فى ميدان فسيح لا تحوطه الاسوار ولا تقيدهم الاغلال

وما أحرانا بأن « نجتهد » فى الادب فنستنبط فيه الوسائل التى تلائم حياتنا الجديدة وتجعله صورة لهذه الحياة يعمل فى نقدها وبسطها والتوسع فيها غير قانعين منه بالتقليد ولزوم الطرق القديمة

أجل اننا فى حاجة الى « المجتهدين » فى الادب والى المجتهدين فى الاخلاق ولكن أساس ذلك كله يجب ان يكون « الاجتهاد » فى الحياة وان يكون ذلك الا بأن نعمل عقولنا فى طرق العيش الشائعة فنصلح ونستبدل منها غيرها ولا نرضى بشىء مما خلفه لنا السلف الا ما يتفق والمنطق والعقل والمصلحة

ان العلوم لم تتقدم الا عندما خرج العلماء من النقل الى العقل اى من التقليد الى الاجتهاد فبعد ان كانت الجامعات تعاقب الطالب اذا اخطأ فى شىء نص عليه ارسطو طاليس صارت تكافئه اذا استطاع أن يقع على غلط لهذا المعلم الاول . ومما يروى بهذه المناسبة أن طالباً وجه نظر أستاذه عند بدء استعمال التلسكوب الى ان على الشمس بقعاً . فكتب اليه الاستاذ يقول : « لا يمكن ان يكون على الشمس بقع لانى قرأت كتاب ارسطوطاليس مرتين من أوله الى آخره وهو قد قال انه لا بقع على الشمس فنظف منظارك فاذا لم تكن البقع عليه فهى على عينيك »

ولكن الطالب لم يقلد مثل استاذه بل صدق عينيه . ونحن نعرف أن الطالب كان محقاً وارسطوطاليس مخطئاً

وبمثل هذا الطالب تقدمت العلوم هذا الحد العظيم حتى تنا أحياناً نخشاها ونرى اننا لانستطيع اللحاق بها لان سرعة تقدمها تفوق وتعدو حدود النظم الاجتماعية الراهنة التى مهما تطورت فانها دون التقدم العلمى وابطأ منه

فنحن فى حاجة الى مثل هذا النظر فى الادب حتى نعمل كما عمل هذا الطالب فى اعتماده على العقل دون النقل بحيث لا نخشى أن نقول أن ذلك الشاعر أو الكاتب كان مخطئاً وأن ذلك الاسلوب البليغ فى عرف القدماء هو فى نظرنا معقد عويص بلاداع الى تعقيد أو تعويص. كذلك نستطيع أن نجهر بأن تلك الاخلاق القديمة لم تعد توافقنا فنحن فى حاجة الى « الاجتهاد » فيها والخروج من التقليد

وبعبارة اخرى يجب ان نتجدد فى اخلاقنا وادبنا وشرائعنا وان ننزل هذه الاشياء كلها منزلة العلم الذى لم يتقدم الا بالخروج على السنين القديمة والتقاليد العتيقة

وقد يخشى بعض الناس ان الافراط فى ترك التقاليد يؤدى الى الفوضى . ولكنهم ينسون ان الانسان بطبيعة الوسط الذى يعيش فيه محافظ يكره التبديل ويرى فيه ما يجهد ذهنه وأعصابه . فاللغة التى نتكلمها هى لغة الوف السنين الماضية وهى تطبعنا بالرغم منا بطابع السلف وعاداتنا وادياننا ومعظم أحوالنا المعيشية هى عادات الاباء التى لانستطيع الخروج منها الا قليلا مهما « اجتهدنا » ولكن على هذا القليل يتوقف تقدم الناس ورقيهم وتفوقهم

ثورة الشباب

كثيراً مانسمع هذه الأيام أن فتيان الجيل الحاضر وفتياته قد استسلموا لاهوائهم وخرجوا عن الحشمة التى كان يتسم بها آباؤهم وجدودهم وتفشى بينهم الزهو والخلاعة وان أخلاقهم قد ضعفت فاخذ منهم النزق مكان الحزم وانهم صاروا من العصيان بحيث لايحترمون وصايا الاديان أو نصائح الشيوخ

وقديما ذكر التاريخ هذه العيوب التى تعاب على الشباب حتى يقال انه كشف فى «طروادة» حجر قد نقش عليه كلام بهذا المعنى يرجع الى الف سنة قبل المسيح . وقلما يقعد الانسان أمام جدة قد أوفت على الثمانين الا ويسمع مثل هذا الكلام أيضاً

وكلنا يسمع الآن عن الفتاة النزقة التى تقص شعرها وتقصر ثيابها وتسترجل فى أخلاقها فتمشى مشية الرجال وتستقل الترام وحدها وتؤدى أعمال الرجل . وقد نال هذه الفتاة لوم كثير

هذه البدع الجديدة عند أول ظهورها ولكننا الآن نرى السيدات المسنات والجدات العجائز يعتدن هذه البدع ويكففن عن لومهن السابق

ونسمع عن الشبان الذين يدخنون ويشربون ولايحبسون عواطفهم فنتهمهم لأول وهلة بالنزق ولكننا اذا دققنا النظر فى أحوالهم ومعيشتهم الفيناهم أصدق نظراً للحياة من جدودهم وفيهم من الرجولة والمروءة مانعجز عن وجود مثله عند اسلافهم ونحن الآن نعرف أن حبس العواطف والتشدد فى الوقار الى التزمت يفعل فى النفس فعل البخار المحبوس لايكاد يجد منفذا حتى ينفجر منه . بل نحن نعرف ذلك الكلب الذى يقيد طول النهار ثم يطلق فى الليل فيعود وحشا لأن عواطفه المحتبسة فى النهار تنفجر عند انطلاقه فى الليل فهو يؤذى كل من يلقاه . فاذا كان الشاب يكره المبالغة فى الوقار الى حد التزمت ويفرج عن نفسه من آن لآخر بالملذات البريئة فهو يحسن فعلا ويكون بهذا التفريج أقل ضررا لنفسه ولغيره مما لو حبس عواطفه وتحرج من المسرات

وهناك من يعيب على الشبان عنايتهم بالجمال وينسبهم الى الاستئناث كما ينسب الفتاة الى الاسترجال لقص شعرها وقصر ثيابها الى الركب . ولكننا نعرف الآن أن العناية بالجمال فضيلة يجب أن يمارسها الرجل كما تمارسها المرأة . ووسامة الوجه واعتدال القامة وصحة الجسم غايات يجب أن ننشدها جميعاً بالتعليم والرياضة وهى أخطر عند الامة السديدة النظر فى الثروة والثقافة

والشباب فى العالم كله فى ثورة على النظم القديمة فهو ثائر على الحرب التى يدبرها الشيوخ من الساسة ويصطلى بنارها الشبان . وهو ثائر على الاستعمار الذى لايختلف عن الرق القديم الا فى الاسم بل ربما زاد الضرر منه على الرق وهو ثائر على النظام الاقتصادى الذى يجلب الفقر لطبقة كبيرة من الناس . وهو ثائر أيضا على نظام الحكم سواء أكان ديمقراطيا أم استبداديا وهو ينظر بعين النقد والتمييز الى الاديان ولكنه مع ذلك ليس ماديا فى نظره فان فيه من الشجاعة وسخاء النفس وروح البذل مانعرفه جميعا

فالحروب والاستعمار والنظم الاقتصادية الجائرة و نظم الحكومة الناقصة كلها أشياء يرثها الجيل الحاضر عن الأجيال الماضية ويسعى لاصلاحها ويثور عليها بحق . وهو فى كل ذلك جدير بالثناء لايستحق لوما واذا كان فى ثورته هذه لايلزم الوقار السابق الذى توارثه من السلف القديم فان مايعالجه من هذه المسائل أكبر وأخطر من أن يعتد فيه بالوقار

ونحن نعيش فى زمن صار للشك فيه المقام الأول فى البحث فمن حق الشباب وهو يرى الدنيا تتخبط فى نظم العيش والاخلاق أن يشق لنفسه طريقا صالحا فليست الحكمة من محتكرات

الأقدمين وان لم تكن أيضا من امتيازات الحاضرين ولكن اذا كان « زواج العشرة » الذي يقول به القاضي الاميركي بدعة سخيفة تعزى سخافتها الى تهور أبناء الجيل الحاضر فان الحرب الكبرى التي قتلت أكثر من عشرة ملايين نفس هي احدى العادات الفظيعة التي ورثناها عن الاجيال الماضية

وعلى كل حال لانتمالك من الاعتراف بان ثورة الشبان فيها من الابتداع مالانجده في جمود الشيوخ . والابتداع على الدوام خير من الجمود والنقد النير النزيه خير من التسليم الاعمى . ونحن نحمل من الاجيال الماضية أعباء ثقيلة خير لنا شبانا وشيوخا أن نتخلص منها لانه لايمكننا أن نقول مع الشيوخ انه ليس في الامكان أصلح مما كان . فان على هذا القول طابع الجمود الذي نأباه والدنيا في حاجة الى الاصلاح والثورة كحاجة الجسم الى الهواء

درس للعقل والقلب

قد نختلف جميعنا من حيث القيمة الفعلية لمقترح اسماعيل صدقي باشا في حجب موميات الفراعنة عن أنظار الجمهور ولكن لايمكننا أن نختلف من حيث أن هذا العمل دليل على أنه قد صار للفراعنة كرامة في نفوسنا وحرمة في قلوبنا كادت القصص التاريخية التي ألفها أعداؤهم أن تزيلهما منا . فقد نشأنا على ان الفراعنة كانوا طغاة عتاة لايعرفون للعدالة معنى حتى انه لما أخذ الاوربيون ينتبهون الى القيمة التاريخية التي لمصر وصاروا يطلبون منا آثار آبائنا لم نعارضهم بل كنا نبذل لهم ونسخو في البذل حتى صارت متاحف أوربا بل ميادين المدن فيها تزدان بآثار الفراعنة

وقد حجب ملوكنا الاقدمون عن أنظار الجمهور في المتحف المصري ولكن كثيراً من آثارهم ماتزال مبعثرة في جميع أرجاء العالم . واذا كان من الكرامة أن نحجبهم ونرى فيهم حرمة الملوكية ووقار الموت فانه مما لايقل كرامة عن ذلك أن يقوم بيننا سياسي آخر مثل اسماعيل صدقي باشا يكمل عمله ويسعى في استرجاع آثارهم إلى مصر وجمعها من متاحف العالم . ولن نكون في مثل هذا العمل أنانيين كما يتوهم القارىء . فان كل رجل مثقف الآن كائناً ما كان وطنه ومولده على هذه الكرة الارضية يشعر ان له وطنين الاول هو ذلك الذي ولد ونشأ فيه والثاني هو مصر

فقد ثبت الآن ثبوتا لم يعد ثم سبيل الى نقضه ان ثقافة العالم الاولى أو البذرة التي نبتت إلى الحضارة إنما نبتت في مصر وحدها . فمصر هي التي خرجت بالنوع البشري من العصر الحجري إلى الزراعة وهي التي علمت الناس التقويم الشمسي وهي التي تركت الاحجار وصنعت الآلات

من النحاس وهى التى عرفت قيمة الذهب وهى التى ابتكرت الدولة والملوكية وعلمت الناس الدين وخلقت الآلهة وابتدأت عهداً للفنون بصنع التماثيل والاصنام . وأينما سار الانسان فى احدى القارات الخمس فى أوربا أو استراليا أو أميركا ولا اقول آسيا أو افريقية يجد آثار مصر فى الاهرام والمومياءات والتقاليد المصرية القديمة

بل ماذا أقول ؟ ان البحوث الجديدة التى يقوم بها الآن أمثال برى واليوت سمث تثبت ان ملوك العالم الحاضرين والغابرين يمتون بصلة النسب ورباط السلالة إلى فراعنة مصر القدماء . وان الاشراف الحاضرين والغابرين أيضا هم أبناء أولئك الاشراف الذين كانوا يعيشون فى هليوبوليس حول المسلة القائمة الآن قبل ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ سنة . فاى شىء فى العالم بل أى خيال أغرب من هذه الحقيقة حين تعرف أن ملك الانجليز هو مثل « ميكادو » اليابان من نسل الفراعنة المصريين الذين مازلنا نرى مومياءاتهم والذين مازالت لغتهم حية فى كنائس الاقباط ؟

فمصر هى وطن الثقافة الاولى للانسان وهى لذلك وطن جميع الناس منها خرج الامراء والاشراف وأسسوا الحضارة بين الشعوب التى كانت قانعة بان تعيش فى حال همجية تقتلع الجذور وتلتقط الاثمار ولا تعرف الزراعة أو استنباط المعادن . وهؤلاء الامراء كانوا من أعضاء الاسرة المالكة وكان يرافقهم فى خروجهم بعض الاشراف المحيطين بهم فى العاصمة المصرية وكانت غايتهم البحث عن المعادن واستنباط الذهب فكانوا يؤسسون الدول وينشئون المعابد حول المناجم ويحنطون أجسام موتاهم ويعلمون الناس الزراعة والتقويم الشمسى والكتابة ثم مازالوا يوالون الاكتشاف وارتياد الاقطار حتى افشوا الحضارة فى العالم كله تقريباً

ومن هنا معنى الاتصال فى المؤسسات القائمة فى أقطار العالم بمؤسسات من القديمة واتصال ثقافتها الاولى بثقافة مصر . فمصر هى المسرح الاول الذى مثل عليه الانسان أول فصل من هذه الدرامة الشائقة الحافلة بالحروب والاكتشافات والخرافات والعلوم والآداب . ولا يمكن أحداً ان يدرس الحضارة ونمو الذهن البشرى دون أن يدرس مصر ويعرف المحاولات الاولى التى حاولتها لاخراج الناس من العصر الحجرى إلى عصر الزراعة والحضارة

وإذا كان هذا الدرس يغذو عقل الانجليزى أو الالمانى أو اليابانى وينير ذهنه ويفتح له أبواب الثقافة القديمة فانه لايغذو عقولنا نحن المصريين فقط بل يغذو قلوبنا أيضاً وليس ذلك لانه يملأنا كبرياء وطنياً قد يدعو إلى الغرور والصلف بل لانه يحثنا على ان نكون خير من يحمل مصابيح الثقافة والحضارة فى الوقت الحاضر فقد بدأنا السلسلة فعلينا ألا نخليها بل علينا أن نحملها ونتابع السير فى الرقى كما كان دأب أسلافنا . وعلينا ان نستأنف درس الفراعنة فندرسهم عن حب وتعلق لاعن كراهة واحتقار ونرى فيهم أساتذة العالم الاولين

فدرس الفراعنة الآن هو واجب كل رجل متعلم يبغى معرفة الاصول لحضارة بلاده سواء اكان فى استراليا أم أفريقية أم أوربا أم أميركا لان هذه الاصول كلها مصرية وإذا كنا نطلب استرجاع الآثار المصرية إلى مصر فليس ذلك لفائدتنا نحن فقط بل لفائدة العالم كله واجتماع الآثار فى بقعتها الاصلية أدعى الى اتقان درسها ومعرفة العوامل التى أثرت فيها مما لو كانت مشتتة فى عواصم العالم

الحرية : اباحة أم مسئولية

كثر الكلام هذه الايام عن حرية الرأى بمناسبة الغاء بعض الصحف أو تعطيلها . وليس يشك أحد فى أن تقدم الامم يرافقه على الدوام زيادة الحريه من جميع أنواعها

فقديما كان الرق فاشيا بين الناس يستعبد الانسان الانسان يبيعه ويشتريه كما يشترى الحيوان فألغى الرق وصار العبيد أحراراً وبذلك تمتع الزنوج بهذه الحرية الابتدائية حرية الرواح والغدو والتصرف وكان هذا تقدما أفاد الاسياد كما أفاد العبيد لأن السيد الذى يعيش بين العبيد يربونه وهو كبير ينشأ ضعيفا ليس فيه تلك الصلابة التى يبعثها الاستقلال فى الشخص حين يضطر أن يعتمد على نفسه

وقديما كان الناس يقيدون بدين من الأديان بل بعقيدة من العقائد يلزمون سنتها ويجرون على شعائرها فاذا خالفوها عوقبوا بالتعذيب والقتل وقصة محكمة التفتيش من القصص العجيبة فى تاريخ الحرية الدينية . ولكن جاء وقت ألغيت فيه هذه المحكمة وعرف الناس قيمة الحرية الدينية وانتفعوا بهذه الحرية التى تجعلهم أصدق ايمانا من قبل . فقد كانوا أيام التقييدات السابقة يسلمون تسليما أعمى بما يملى عليهم فكان ايمانهم عن خوف . ولم يكن البحث فى العقائد مشروعا أو مأمون العاقبة ولكن الآن يعيش الناس فى الحرية الدينية وتباح لهم المناقشة فى العقائد وقد انتفعوا من هذه الحرية لأنها زادتهم ايمانا بمقدار مازادتهم نوراً يبعثه البحث والمناقشة

وقد كانت هناك أنواع أخرى من الرق مثل الولاية التى كانت تقضى فى أوربا على العامل بأن يلزم أرضه يزرعها لمولاه ولايستطيع مبارحتها . وقد كان فى مصر شيء يشبه هذا ايام المماليك فكانت الزراعة فى أسوأ حال يتهارب العمال منها . ولكن عند ماسادت الحرية ارتقت أحوال الزراعة لأن كل عامل عرف أن يعمل لنفسه

وكذلك حال المرأة التى برحت منذ التقدم تذل للرجل يتزوجها وكأنه يتسراها فلم تكن

رفيقته بل أمته . ولـكن الناس عرفوا أن الأمة لاتنجب الرجال فنحوا المرأة جميع حقوق الرجال المدنية ورفعوها إلى مستواهم فارتفعت . وهانحن أولاء نرى العالم مشطوراً شطرين أولئك الذين عملوا لتحرير المرأة فصاروا فى المقدمة ، وأولئك الذين لم يعملوا لهذا التحرير فصاروا فى مؤخرة الامم

ففى كل هذه الحالات نرى أن تقدم الأمة منوط بزيادة الحرية والغاء أنواع الرق الثقيل أو الخفيف . فالناس يرتقون بحرية الرأى والدين وتحرير المرأة والغاء الرق والولاية

ولـكن فى الوقت نفسه يجب أن نفهم معنى هذه الحرية : أهى أباحة أم مسئولية ؟ وخير مثال يوضح لنا معنى الحرية هو أقربها الينا نعنى نزعة الحرية التى نزعتها المرأة الأوربية حديثاً فكلنا يعرف أن المرأة فى أوربا تنزع نزوعا شديداً الى الحرية حتى أن كثيراً من الكنائس اضطرت أن تحذف من صلاة الزواج شرط الطاعة التى كان يجب على المرأة أن تعترف بها لزوجها

ولـكن تحرير المرأة فى أوربا كما نتبعه من أخبارها قد اتخذ شكلا خاصاً يدلنا على معنى الحرية وهو زيادة المسئولية فالمرأة تطلب الحرية لكى تتحمل مسئولية الحكم بالتصويت والانتخاب والتوظف والاشتغال بالأعمال الحرة . فهى بهذه الحرية الجديدة قد زادت مسئوليتها . وكلنا يعرف أن الرجل المتمدن أوسع حرية من الرجل الذى يعيش فى أمة متأخرة ولـكنه فى الوقت نفسه أكثر مسئولية . ففى أوربا يعاقب الأب اذا أهمل تعليم ابنه كما نعاقب نحن اذا أهملنا تطعيم الطفل بلقاح الجدرى . وصاحب المصنع فى أوربا يرى أن مسئولياته ازاء عماله من الـكثرة بحيث يؤمن على نفسه منها عند شركات التأمين . فحريته فى استخدام العمال محوطة بعدة مسئوليات خاصة بصحتهم ونظام عملهم وهندسة المصنع وتعويضهم ومعالجتهم الخ

فالحرية فى أوربا هى المسئولية ولم يفهمها أحد يوما ما بمعنى الاباحة . فاذا كان الصحفى المصرى ينشد حريته التى ضيقتها الحـكومة فعليه أن يزكى هذه الحرية بما يرافقها من مسئولية يأخذها على عاتقه

كيف نرفع اسم مصر

تنفق حكومتنا كل عام مبلغا غير قليل من المال للاعلان عن مناخ بلادنا الطيب وآثارها الجميلة لـكى تجلب اليها السائحين . وحكومتنا تقصد من هذا الاعلان الفائدة المحسوسة من ازدياد

السائحين وانفاقهم أموالهم فى أسواقنا وان كان ثم فائدة معنوية أخرى هى الاشادة بفضل جدودنا وما يستتبعه هذا من رفع اسمنا

وليست تنفرد حكومتنا بهذا الاعلان . فان جميع حكومات العالم المتمدينة لاتبخل بتأليف الكتب عن آثارها والاعلان عنها بكل مايسعها من مجهود . وهى لاترمى بذلك الى جلب السائحين فقط بل أيضاً الى رفع اسمنا وزيادة كرامتها فى عيون الامم الاخرى

والواقع ان العالم الآن رقيب على كل أمة فيه . ولا يمكن أمة مهما بلغت قوتها أن تتغاضى عن آراء الامم الاخرى فيها اذ هى تشعر أنها فى حاجة الى عطف العالم ورضاه واعجابه . ولهذا الرضا أو الاعجاب أثر محسوس فى حياة كل أمة

وأبرز الامثلة على ذلك أمة اليونان التى لايعزى استقلالها الا لاعجاب أوربا بتاريخها القديم . فقد نالت استقلالها قبل نحو مائة سنة لان بيرون الشاعر الانجليزى هجر بلاده اليها وجعل يؤلف القصائد الخالدة يتغنى بها بمجد اليونان القديم ويستثير نخوة أوربا لكى تحرر اليونانيين من النير التركى ويذكرها بالثقافة القديمة التى انتفع بها أبناؤها واستناروا بنورها . ومنبت هذه الثقافة هو أثينا التى ترسف فى اغلال السلطنة التركية . فاستجابت أوربا لهذا النداء وقاتلت الاتراك وأخرجتهم من اليونان

ونحن أيضاً فى حاجة لان يرتفع اسمنا وتزداد كرامتنا فى أعين الاوربيين حتى اذا ضغطنا الاستعمار البريطانى واستجرنا بالعالم المتمدن وجدنا منه تلبية واستجابة وعطفا . فان هذا العالم يجهلنا ويتخيلنا أمة شرقية خاملة تؤمن بالاساطير وتحبس النساء وتكره العلوم الحديثة ونحو ذلك من الاعتقادات التى تؤذينا وتجعل الرأى العام مع خصومنا علينا

وقد حدثت ثلاث حوادث فى هذا العالم جديرة بأن ترفع من اسمنا وتكبر من شان وطننا كأنها الاعلان عن حضارتنا ورقينا . فمنها عبور اسحق حلمى للمانش اذ يمثل بهذا العمل قوة الشباب المصرى وصحته . ومنها زواج فتاة قبطية لامير من الأسرة الملوكية الفرنسية . ثم زواج فتاة اخرى يهودية مصرية من أسرة لورد انجليزى . وفى هذين الزواجين مايقشع عن أذهان الاوربيين ذلك الوهم القديم بأن المصريين افريقيون سود البشرة يتسمون بقبح الوجوه . ثم هذه المؤتمرات التى تعقد بالقاهرة جديرة أيضاً برفع اسمنا لانها تجمع الخاصة المثقفة من كل أمة يتبادلون الخطب والاحاديث مع خاصتنا ويقفون منها على أحسن ماعندنا من صفات العلم والاخلاق

ولكن أكبر اعلان يعلن عنا وينشر فضلنا فى العالم ويجلب لنا عطفه وحبه هو هذه الآثار المصرية القديمة أو ثقافة اسلافنا التى تثبت البحوث الآن انها اخرجت البشر من العصر الحجرى

الى عصر الزراعة والحضارة انها الاصل فى علوم الامم وأديانها وآدابها . وعلينا أن نستغل هذه النظرية الجديدة التى تجعل مصر أماً لجميع الامم . وحضارتها أساً لكل الحضارات . واذا كانت اليونان الحديثة قد نالت استقلالها بفضل اسلافها الأقدمين واشادة الشعراء بفنونهم وفلسفاتهم فاننا نحن أيضاً يجب أن يكون لنا من اسلافنا مايعلن عن فضلنا فى الرقى البشرى فلا ينظر الينا العالم كلما شكونا من خصومنا نظرة الجمود ، بل نستثيره فى هذه النظرة ذكرى اسلافنا القدماء فيعطف علينا ويكون رأيه معنا لاعلينا . ولذلك علينا واجب جديد هو درس الفراعنة والكشف عن آثارهم

وللفراعنة فى نفوس المتمدينين مقام كبير لايقل عن مقام فلاسفة الاغريق حتى أنه عند ماتولى الملك فؤاد اقترحت احدى الصحف الاميركية أن يسمى فرعون مصر وليس كبيراً على الاقدار أن تهيء لنا شاعراً آخر مثل بيرون يشيد بفضل الفراعنة مؤسسى الحضارة كما أشاد هذا بفضل الاغريق القدماء ويكون لنا من ذلك تحقيق استقلالنا كما تحقق الاستقلال اليونانى

فى نهضة الشرق

قلما يكون الخوف رائد خير وباعثاً للرقى . ولكن من يتأمل أحوال الشرق والغرب الآن لايسعه الاعتراف بفائدة الخوف أحياناً

ففى الغرب نهضة اصلاحية يبعثها الخوف من الشيوعية وتفشيها بين العمال . وجميع الحكومات الغربية تعنى الآن بالعامل العناية القصوى من بناء المساكن له وزيادة رفاهيته بالتعليم والاجور العالية ومعاش الشيخوخة والمساعدة وقت البطالة ونحو ذلك . والعامل اذا رأى هذه العناية من حكومته انصرف عن الآراء الشيوعية وقنع بهذه الاصلاحات

وفى الشرق نهضة اصلاحية يبعثها الخوف أيضاً . ولكنه ليس الخوف من الشيوعية بل هو الخوف من الاستعمار الغربى . فهذا الانقلاب العظيم فى تركيا وهذا السيل الجارف الذى يكتسح كل ما امامه فى أفغانستان وفارس فى سبيل الاصلاح لايرجع فى الواقع الا الى الخوف من أوربا فهذه الامم تريد ان تتحضر بالحضارة الاوربية خوفا من الحضارة الاوربية . وذلك لأن طبيعة هذه الحضارة أن تطغى على ماتخالفها من الحضارات العتيقة وتتغلب عليها فالامة التى لاتتسلح بها تقع فريسة لها

وهذا هو ما وجدته تركيا بعد مئات من السنين . فقد أغارت عليها أوربا المرة بعد المرة وصارت تقتطع منها اقاليمها الغربية حتى كادت تطردها الى آسيا . ولعلها كانت تنوى القضاء عليها

حتى فى آسيا . وهنا وقف مصطفى كمال يدير عينه فى تاريخ أمته ويتأمل احوال بلاده فلم يجد علاجا يعمل للنجاة الا أن يتسلح بالحضارة الغربية نفسها ويحارب الغربيين بها . وهذا هو ما وجده الامير الذكى ملك الافغان وما تجده فارس أيضاً

ولعلك أيها القارىء تعترض بانه كان لمصطفى كمال مندوحة عن هذا الانقلاب الكلى بان يقنع منه بما هو خاص بالجيش والحرب فينقله عن أوربا ويبقى مع ذلك محتفظا بتقاليده حامياً لوطنه من غارات الغرب . ولكن هذا وهم كبير فالحضارة كتلة متماسكة متراكبة لا يمكننا ان نأخذ جزءاً منها دون الآخر . ولا يمكن أمة أن تفوز فى الحرب على الطريقة الاوربية الا اذا نزعت النزعة الاوربية وقت السلم . وذلك لأن الحروب تقوم الآن على الصناعة الآلية من مدافع وبارود وطيارات وغازات واساطيل . فاذا لم تكن الامة صناعية وقت السلم لها المصانع الكبيرة العديدة فانها لن تتمكن من التهيؤ للحرب والوقوف موقف الند لمن تعارضها من الدول الاوربية . لانها بهذه المصانع التى تصنع ادوات السلم تستطيع ان تصنع ادوات الحرب

والفرق الاساسى بين الشرق والغرب الآن ان الاول يعتمد على الصناعة . وهذا الفرق هو أصل سائر الفروق من فقر الاول وغنى الثانى وقوة الغرب ورفاهية المعيشة فيه وسعة الثقافة عنده وضعف الشرق والجهل المتفشى بين سواد السكان فيه . ومنا من يضحك عند ما يرى الحاح الزعماء فى الشرق فى اتخاذ القبعة وحلق اللحية وتحرير المرأة ونحو ذلك ويعتقد ان هذه ظواهر لا قيمة لها . ولكن الواقع ان لهذه الظواهر أثراً فى النفس ينتهى بأن يجعل الشخص يتوهم انه غربى فينزع النزعة الغربية فيطمع فى الثروة ويقبل ناشطاً على الاعمال الصناعية والتجارية

فالنهضة الشرقية الراهنة فى افغانستان وفارس وتركيا تعود الى عامل الخوف من اوربا التى تطغى بطبيعة حضارتنا على سائر العالم . وأحيانا يتسرب الاستعمار الاوربى الى قلب الامة فيهدم كيانها الاقتصادى والاجتماعى دون ان يحتاج الى سلاح أو حرب كما هو واضح عندنا فى مصر حيث يسير احدنا فى الشارع وليس على جسمه من أم رأسه الى اخمص قدميه شىء من مصنوعات بلاده حتى النقود التى فى جيبه مسكوكة فى أوربا . وما أشد حاجتنا نحن أيضاً فى ان ننهض وننزع النزعة الاوربية فى ترقية المرأة واتخاذ الصناعة أساساً لثروة البلاد بدلا من الزراعة . ولكن هذا لايكون ابداً ما لم ننزل على الآراء الغربية والاساليب الغربية اتقاء لشرور الاستعمار

ماهية الحضارة الاوربيه

يكثر الكلام جداً هذه الأيام عن حضارة الشرق وحضارة الغرب وهل نحن أمة أوربية أو شرقية . وهل أخطأ الاتراك والافغان والفرس فى اصطناعهم القبعة أولم يخطئوا اونحو ذلك

من البحوث التى نختلف أو نتفق فى الرأى عنها . وقد كانت هذه الصفحة مجالا لمثل هذه البحوث. ولذلك نظن انه من حق القارىء أن يعرف الصفات البارزة للحضارة الأوربية تمييزاً لها مما نسميه بالحضارة الشرقية : فأول مميزات الحضارة الغربية انها تجنح الى الصناعة دون الزراعة والعلم دون الادب أو الفلسفة . وهى من هذه الوجهة مادية لانها تثمر المخترعات والمكتشفات أما حضارة الشرق فليست مادية لان الادب أو الفلسفة لايمكن ان يكون نتاجهما محسوساً فى آلة مخترعة أو شىء جديد يكتشف . فالعلم الاوربى عملى مادى أما الأدب والثقافة الشرقية فنظرية تعمل فى عالم العقل وحده وتثمر عقائد دينية ومذاهب فلسفية لها شأن فى ترقية الانسان وتهذيب النفس . وبعبارة أخرى نقول ان العــلم فى أوربا يستخدم العقل واليد فيثمر الصناعة والمخترعات أما الادب أو الفلسفة فى الشرق فلا يستخدمان سوى العقل ، ولذلك فان نظرياتهما لايمكن تطبيقها على الاعمال . ومن هنا انفصال الثقافة فى الشرق عن الحيـاة اليومية . بل العالم الشرقى أشبه الناس بالناسك يعتزل ويعتكف ويجتر نظرياته وحـده . أما العالم الغربى فدائم الاتصال بالحياة اليومية يعمل بيده فى الاختراع والاكتشاف ويتصل بالصناعة

ولسنا نعنى ان العـلم فى الغرب يتسلط على كل شىء وانما نعنى انه نزعة جديدة قد تغلبت بعض التغلب . وهو يعمـل للصراحة والوضوح ويحاول ان يتغلب على روح السياسة القديمة سياسة الاثرة والخداع والمواربة . فروح العـلم فى أوربا هى روح عصبة الامم والمؤتمرات الاقتصادية والصحية أى روح النظام التى تحاول ان تتغلب على روح السياسة العتيقة التى تعقد المعاهدات فى الظلام وتتكلم بلغة الادب الفصيحة عن الوطنية والمجد الحربى والامبراطورية

وروح الحضارة الاوربية على وجه العموم هى روح الاعتدال فى كل شىء . فنحن نحب من الزينة كل مابولغ فى زخرفته مما يتوهج ويتلألأ . ولـكنهم فى أوربا يقنعون بالقليل من الزينة وهذا واضح فى أثاث المنازل عندنا وعندهم . ونحن نـكثر من توبلة الطعـام وفلفلته وهم يقنعون بالـكلام القليل فى الوصف ونحن نأتى بالمترادفات . وقلما تسمع أحداً فى أوربا تدفعه المبالغة إلى اليمين بينا نحن نسمع الايمان المحرجة كل يوم من صبياننا ومن شيوخنا على السواء . وهم يقنعون من احترام السادة بالكلام المعتدل . فرئيس الوزارة فى انجلترا ليس « صاحب دولة » بل هو مستر مثل غيره من أبناء الامة

ومن شأن هذا الاعتدال الذى نجده حتى فى الموسيق والاغانى والشراب ان يمسح على الامة تلك المسحة الديمقراطية التى تعمل للتيسير فى المعاملة . لان الافراط أو المبالغة فى احترام السادة يكسبهم من السيادة أكثر مما يتفق والروح الديمقراطية والحكومة النيابية

وروح الحضارة الاوربية أيضاً هى روح الحرية والصراحة . وهـذا واضح من معاملة

الاوربيين للمرأة وفصل الدين عن الدولة . فالشرقى والغربى كلاهما يحترم المرأة ولكن الغربى يحترمها بعد أن ينزلها منه منزلة المساواة ويأذن لها بمجاراته ومباراته فى الاعمال العمومية . والشرقى يحترمها وهى فى حدود منزلها فقط أو وهى محجبة . والشرقى والغربى كلاهما له دينه أو صوفيته ولكن دين الشرقى يلابس معاملاته وأعماله اليومية أما دين الغربى فمقصور على ضميره

والخلاصة أن حضارة الشرق تميل الى درس النظريات والادبيات بينما حضارة الغرب تعمل للماديات . وواضح اننا نرى التفوق فى زماننا الحاضر للماديات فعلى الشرق . لكى يثبت أمام الغرب ويفوز فى جهاد الحياة وتنازع البقاء أن يعمد الى العلم والصناعة فيجعلهما أداة رقيه وفوزه وذلك دون أن يهمل ثقافته القديمة

السعادة الحقيقية والسعادة الصناعية

كلنا ينشد السعادة ويتوسل اليها بما يستطيعه من وسائل . ولكننا نختلف من حيث اختيار هذه الوسائل . فهناك الوسائل الزائلة التى تهذب بذهاب اللحظات ، وهناك الوسائل الباقية التى تدوم مدى حياتنا

هناك السعادة الصناعية التى نجلبها بالخمر والمخدرات فنشعر بالهناء واللذة بضع لحظات أو بضع ساعات . وهى ساعة كاذبة تقوم على الوهم بل هى أشبه شىء بذلك الجمال الكاذب الذى تجلبه المرأة بالتطرية والتبرج والمساحيق والاصباغ

ولكن كما أن الجمال الحقيقى الباقى يجب أن ينبع من الداخل أى من الدم النقى والصحة التامة والنفس السليمة كذلك السعادة الحقيقية الباقية يجب أن تنبع من نفوسنا فلا نشتريها ببضع كؤوس من الخمر كما تشترى المرأة العليلة جمالها الكاذب بالأصباغ والمساحيق

والصحة طبيعية فى معظم الناس ولكن أغلبها يحتاج الى رياضة وتمارين لكى يحتفظ بها وكذلك السعادة طبيعية فى كثير من الناس أيضا ولكنها تحتاج أحيانا الى أن يمارس لها الانسان فنا يتوخى به تحقيقها ويحقق به اسمى صنوفها . لأن السعادة أنواع ودرجات فنها السعادة التى ترضى البهائم ولكنها لايطيقها الانسان الراقى . فقد يكون الضفدع أسعد من الأسد وأهدأ بالا ولكننا نحن الناس لانطيق سعادة الضفدع بل نؤثر عليها بؤس الاسد وشقاءه وذلك لأننا مفطورون على الشرف والسمو فما نحسبه سعادة عندما نتوهم الراحة والدعة والأمن نراه عند التحقيق شقاء لانطيقه اذا وقعنا فيه

ولذلك يجب ألا نختار أيسر الطرق الى السعادة . فكما أنه لا يليق بنا أن نرضى بسعادة اللحظات والساعات التى تجلبها الخمر والمخدرات كذلك لايليق بنا أن ننشد سعادة الحيوان . واذا كان للصحة فنون نجلبها بالرياضة واختيار الغذاء فانه ينبغى أن يكون للسعادة فنون نجلبها ونحافظ عليها

واسمى صنوف السعادة التى يجب أن ننشدها هى تلك السعادة الدينية أو الصوفية حين يستقر فى قلوبنا الحب لهذا العالم والرغبة فى الاتصال به وارادة الخدمة له ، ويكون لنا من هذا الشعور باعث يبعثنا على الدوام الى الرقى فنرقى بأنفسنا وبغيرنا ونسير فى هذه الحياة وكأن العالم كله يتطور بنا ويرقى

ولكن لكى نحقق هذه السعادة يجب أن نتوسل اليها بالصحة والمال والجمال والثقافة . على اننا يجب ألا ننخدع بهذه الاشياء لانها هى فى ذاتها ليست السعادة المنشودة وانما هى الوسيلة الى السعادة اذا كانت تؤدى بنا الى الرقى المتواصل والبر بهذا العالم

فالصحة وسيلة الى السعادة لان المرض يعوق صاحبه عن العمل وقد يضطره الى لزوم الفراش فيعيش عيشة النبات بلا حركة ولا جهد فيستشعر من عجزه بما فى حياته من عقم وعبث فيحس لذلك بشقائه العظيم

والجمال شرط آخر للسعادة وليس يجب أن ننشده فى أثاث بيوتنا وملابسنا فحسب بل فى أنفسنا حتى ينطبع فى مزاجنا فلا نختار عند الزواج الا أجمل الفتيات نفساً وجسما ولا نشترى القبح والدمامة مهما رجونا من ورائهما من المال وعلقنا عليهما من الآمال . ونحن نعيش فى عصر يحتم علينا ان نستند بالمال بل أحيانا لا يمكننا ان نحقق الصحة أو الثقافة أو الجمال الا بالمال ولذلك يجب ألا نحتقره أو نهمله . ولكن علينا أيضا أن نتزيد من الثقافة حتى يتربى فى أنفسنا ذلك المزاج الذى يعمل للرقى والحب . لان السعادة هى قبل كل شىء مزاج فى النفس قبل أن تكون مالا أو جمالا أو صحة . وما هذه الاشياء الا وسيلة الى تربية هذا المزاج . وبالثقافة يزداد عرفاننا بالعالم واتصالنا بالخليقة وحبنا للطبيعة فننتهى الى الشعور بالرقى المتواصل والرغبة فى ارتقاء البشر جميعهم وهذا هو البر والخير أو هو النظر الصوفى أو الدينى للدنيا . وخلاصة القول اننا ينبغى ان ننشد السعادة الباقية فلا نخدع أنفسنا بنشوة الخمر الزائلة . ولذلك يجب ألا نقنع من السعادة بأدونها ، سعادة الحيوان والحواس ، بل يجب أن نجهد أنفسنا لكى نكون سعداء

الاخلاق الصريحة

كلنا يحب الصراحة والسذاجة وأن يكون الانسان فى كلامه وعمله وأخلاقه عفو نفسه لا يرائى ولا يداجى كما اننا نكره النفاق وان يحاكى الانسان غيره ويستعير منه كلامه أو أخلاقه

فليس أثقل علينا من العجوز التى تتصابى فتلبس ملابس الفتاة وتتكلم بلهجتها وتصطنع حركاتها ورشاقتها فاننا نرى فى هذه الاخلاق محاكاة كاذبة وخروجا على الطبيعة نستسمجها جميعاً فنحن نحب من العجوز ألا تكذبنا فى سنها أو أخلاقها كما اننا نستسمج من الفتاة وقار الشيخة وتعاقل الطاعنات فى السن وفى كلتا الحالتين يعود استسماجنا الا أننا لا نرى الشيخة أو الفتاة على حقيقتهما

ثم هناك الفقير يحاكى الغنى فى معيشته وبذخه يريد أن يجلب احترامنا وتقديرنا فلا ينال منا سوى الاحتقار لانه لا يبدو الينا على حقيقته كما يسمح له بها دخله وانما يكذب علينا وعلى نفسه ويكلف نفسه عنتا فى سبيل هذه المحاكاة التى تدل على صغار فى النفس حين لا تجد الكرامة من طبيعتها وسجيتها فيحاول أن يصطنعها اصطناعا بمحاكاة من هم أغنى منه ثروة وكرامة . وهذا كله نقص فى الاخلاق الصريحة لان لكل منا شخصية عليه أن يبدو بها للناس حية فاعلة مستقلة وهذه صفات تقتضى الصراحة لانه اذا وجد الانسان فى نفسه الكرامة وفى شخصيته الاستقلال لم يعد فى حاجة الى أن يحاكى غيره من الناس أو ينزل على آرائهم فى العقائد أو الملابس أو المعيشة والنزول على رأى الغير هو أكثر أنواع الصغار والهوان تفشيا بين الناس

فيجب علينا جميعا أن نكون أنفسنا فنعيش فى صراحة واستقلال ونصون شخصيتنا من عبس المحاكاة فكل فرد منا هو فى الحقيقة الطبعة الاولى من نوعه فى الوجود لم يخلق قبله ولن يخلق بعده أحد مثله ومن الصغار والهوان أن يكون النسخة الثانية لشخص آخر نمحو شخصيتنا أمامه ونتقمص شخصيته ومن أعظم ما يرفع قيمة الانسان هو استقلاله فى الرأى . ولن يكون هذا الاستقلال حقيقيا كاملا حتى يشمل المعيشة كلها ويجب أن نتذكر انه مهما حاولنا من تحقيق الاستقلال الشخصى ومهما اجتهدنا فى مصارحة الناس بلباب آرائنا الشخصية فاننا لن نبلغ منها الا القليل لاننا بحكم معيشتنا والبيئة التى تكتنفنا واللغة التى نتفاهم بها والثقافة التى ورثناها نتلبس بآراء غيرنا ونجرى على انماطهم فى المعيشة والتفكير فلن نبلغ من هذا الاستقلال الذى ننشده وتلك الصراحة التى نتوخاها سوى القليل : ولكن هذا القليل يبدو جميلا كاملا فى تكوين شخصيتنا

وهذه الشخصية شىء غامض تسمع الناس ينسبونها لاحد الرجال وينكرونها على غيرهم .

فاذا دققنا النظر الفيناها لا تخرج عن الاخلاق الصريحة والاستقلال فى الرأى والمعيشة . وربما كان أعظم الناس شخصية هو ديوجينس الفيلسوف الاغريقى الذى بعثه الاستقلال فى الرأى الى ان يهجر الناس ويعيش فى برميل : فاذا كان لديوجينس كرامة وهو فى برميله فيجب أن يكون لكل منا كرامة فلا يحاكى أحدنا الآخر . وليس معنى كلامنا ان نفعل فعل ديوجينس فانه هو له رأيه فى الكرامة والشخصية والاستقلال ، فيجب أن يكون لنا رأينا الخاص فى هذه الصفات أيضا فلا نحاكيه فيها لأننا ننقض بذلك نظريتنا

والعالم كله يتحرك ويتقدم بالشخصيات المستقلة والاخلاق الصريحة وهو يسكن ويركد بالمحاكاة والقدوة والجرى على آراء الغير ولزوم عقائدهم . وكثيراً ما نجد فى كتب الادب من التنويه بحياة أحد المؤلفين والاسهاب فى ذكر التفاصيل الصغيرة لاحواله وأحاديثه ومعيشته ما نراه يفوق ويتجاوز مانعرفه من مؤلفاته حتى لندرك من ذلك انه عاش أكثر مما الف .وكانت حياته الفن الاول الذى يمارسه وأدبه الفن الثانى . وبعبارة أخرى نقول انه كان يربى شخصيته ويصنع منها ما يشبه التمثال الجميل . فهذا مثلا هو مانراه فى غيته الالمانى وجونسون الانجليزى. وعلينا نحن جميعا ان نربى شخصيتنا بالصراحة فى القول والاستقلال فى المعيشة

تجميل بلادنا

تعنى الحكومة والامة فى انجلترا بتجميل الريف . فقد تأسست الجمعيات التى تحض الناس على وقايته من الاعلانات التى يقيمها التجار فتشوه جماله وتخفى وجه الطبيعة عن أعين المتنزهين الذين يتركون المدن لكى يتفرجوا بهواء الريف وخضرته بضع ساعات

وللريف فى أوربا جمال لانعرفه نحن فى مصر وليس لأن الطبيعة تختلف هنا عما هى هناك اذ هى واحدة فى الاثنتين تكسو وجه الارض بالخضرة النضرة التى يحمل النسيم نفحات أزهارها ولكن الاختلاف يرجع الى السكان فهم هناك يبنون المنازل والطرق المبلطة التى تتفق وجمال الطبيعة ونحن هنا نشوه جمال الطبيعة بمنازل جافية كابية ولنا طرق من التراب يطير غبارها فى الوجوه فاذا كان السير بين الحقول فى أوربا متعة تلذ للحواس والذهن فهو عندنا ألم مرهق يؤذى العين والانف والاذن

واذا كان على كل أسرة ان تزين بيتها الذى تعيش فيه وتؤثثه بأجمل الرياش وتقتنى الصور والتحف فعلينا كلنا باعتبارنا أمة أن ننظر لوطننا كأنه بيتنا الكبير الذى يجب أن نزخرفه فلا

نسمح بأن يقام فيه منزل قبيح أو يشق فيه طريق غير مبلط بالاسفلت . وعلينا ان نقيم التماثيل فى شوارعنا كما علينا ان نزين مدننا بالمتنزهات الكثيرة التى تغذو العين بجمالها الطبيعى كما تغذو الرئة بهوائها النقى

وكلنا يعرف الآن التربية الحقة لاتقوم بالنصائح والتعليم وانما تقوم بالقدوة والنشأة الاولى الصالحة بل هناك من العلماء من يشك فى ان الاصول الاولى للتربية تمكن غرسها فى النفس بعد السنة الرابعة من عمر الطفل . وذلك لأن أخلاقنا هى مجموعة الاستجابات التى نستجيب بها للوسط الذى يحوطنا . وهذه الاستجابات تثبت فى انفسنا ونحن دون الرابعة . فنحن ننشأ على أن نستجيب لما يحدث حولنا بالخوف أو بالشجاعة وبالصراحة أو بالمراوغة ونبقى على ذلك مدى حياتنا لانكاد نتبدل . وهنا معنى الفائدة من الوسط الجميل . فاذا نشأ الطفل على أن يرى الجمال ممثلا حوله فى التماثيل والصور والاثاث الحسن والمدينة النظيفة المنظمة والريف الجميل فانه ينمو الى الشباب وهو ينشد الجمال ويلح فى تحقيقه سواء أكان ذلك فى طعامه أم لباسه أم مسكنه بل فى أخلاقه أيضا . ويكون له من هذه التربية هذا الذوق الرفيع الذى يحضه على الدوام بألا يقنع من الحياة بالدون الرذل بل يطلب اطايبها ويبذل جهده فى ألا ينحط من المستوى الذى يفرضه لنفسه لكى يكون اقرب الى الكمال

وجميع الذين زاروا الاقصر قد راعهم منظر الشارع المؤدى الى معبد الكرنك تقوم على حافتيه تماثيل الا سفنكس التى تسمى الكباش . فهذه التماثيل التى كانت تزين الطرق بين هيا كل المعبد المختلفة تدل على عناية آبائنا بالجمال واجتهادهم فى مزج الفنون الجميلة بالدين والعبادة . وقد نتساءل نحن : لماذا لا نعنى بشوارعنا ونقيم عليها التماثيل استدراجاً للنفس الى الجمال وتربية للذوق كما كان يفعل آبائنا ؟

أن لبلادنا حظاً غير قليل من الجمال الطبيعى فى صحو سمائها وخضرة حقولها فيجب أن يكون لها حظ آخر من الجمال الفنى فى بناء المنازل الحسنة واقامة التماثيل الرائعة ورصف شطوط النيل وقنواته الكبرى وتشييد المبانى العمومية والعناية بالطرق الزراعية بحيث تكسى بالاسفلت وتضاء فى الليل . وكذلك العناية بمنازل الفلاحين حتى تكون قصوراً صغيرة تزين الطبيعة وتزيدها جمالا

واذا كانت طبيعة بلادنا تجذب اليها السياح يشتشفون بهوائها ويتمتعون بدفئها فى الشتاء واذا كانت آثار أسلافنا الفراعنة العظام تجلب اليناعلماء الامم وأغنيائها لكى يدرسوها ويعتبروا بعبرها ودرسها فان علينا أيضاً ألا نكون دون الطبيعة ودون الاسلاف فى تزيين مدننا بالفنون

الجميلة . فهذه السويس مثلا يجب أن يكون ميناء القاهرة ويكون بينهما طريق مبلط ويخرج اليه المتنزه ويحس فيه بهواء الصحراء وخلوة البيداء . وهذه القاهرة علينا أن نجعلها عاصمة أفريقية لا من حيث الجسامة بل أيضاً من حيث الجمال

الصناعات الكلامية والصناعات اليدوية

تنقسم طائفة العاملين فى كل أمة إلى قسمين : أحدهما يعمل بلسانه فى الصناعات الكلامية كالمحاماة والتحرير وكتابة حسابات الحكومة أو المخازن أو البنوك أو نحو ذلك . وهذا القسم يسمى الآن فى انجلترا وأميركا قسم ذوى الملابس السوداء من العمال

والقسم الآخر هو الذى يعمل بيديه فى الصناعات الميكانيكية وهو القسم الذى نطلق عليه اسم العمال عموماً . أما القسم الاول فاننا كثيراً ما نرفعه عن درجة العمال لاننا نعتقد ان الصناعات الكلامية أشرف من الصناعات اليدوية وانها أدعى الى استعمال الذهن . ولا بد ان هذا الاعتقاد قد انحدر الينا من الازمنة السالفة حين كان صاحب الصناعة الكلامية هو الحاكم الذى يستبد ويطغى كما يشاء . وسائر الامة تتألف من عمال الزراعة الذين يعيشون فى جهل وذل

ومثل هذا الاحتقار نجده فى بعض الكتاب القدماء مثل الغزالى فانه ينصح لقرائه بألا يتناولوا من الصناعات ماخس منها . وقد ضرب مثلا لهذه الصناعات الخسيسة بالحلاقة فان قراءه يجب أن يربأوا بأنفسهم من ان يكونوا حلاقين

ولكننا نعيش فى زمن قد تطورت فيه أحوال العيش والارتزاق وأصبح الشأن الأول فيها للصناعة اليدوية . واذا أردنا أن نميز بين صناعات الكلام وصناعات اليد من حيث الربح العائد على المشتغل باحداهما . أو من حيث مقدار الذكاء الذى يحتاج اليه لقلنا ان صناعات اليد فى مجملها احوج الى استعمال الذهن وأعود على صاحبها بالربح من صناعات الكلام . فمعظم أعمال الكاتب مقصورة على ان يجرى على أوضاع واصطلاحات يتقيد بها ولا يحيد عنها ولا يشغل ذهنه بها حتى يشبه عمله اليوم عمله فى الامس والغد . أما العامل الميكانيكى فانه تعترضه مسائل عويصة تكد ذهنه حتى لتضطره الى ان يكون مخترعاً . ونحن نعرف جميعاً أن ميدان الاختراع الآن هو ميدان الصناعة اليدوية وليس ميدان الصناعات الكلامية . وعظماء العالم الافذاذ مثل فورد واديسون ينتسبون الى طبقة الصانع اليدوى ولا يعرفون شيئاً من صناعات الكلام . ونحن فى مصر نرى أنفسنا بازاء مسألة بل مشكلة اجتماعية هى بقاء آلاف الشبان الذين تعلموا الصناعات الكلامية فى بطالة قد طالت حتى لتكاد تكون دائمة . وذلك بينا نرى جميع أصحاب

الصناعات اليدوية فى رواج من الاعمال ليس فيهم عاطل . وأحوال الجاليات الاوربية بيننا جديرة بأن تفتح أعيننا . فانهم أيسر حالا منا يعيشون فى رغد يربحون الكثير وينفقون الكثير من المال لانهم يشتغلون بالصناعات اليدوية أو أن معظمهم يفعل ذلك . فهم لا يستحيون من تأسيس الفنادق والمطاعم والقهوات ودور السينما توغراف ولا يرون أية خسة أو ضعة فى ان يفتح الانسان دكاناً للحلاقة أو الخياطة أو فى أن يعمل بيديه فى النجارة أو ترميم الآلات والعدد. فهذه كلها صناعات يدوية تدر الربح الجزيل على من يعمل فيها وتحتاج الى كد الذهن أكثر مما تحتاج اليه الكتابة فى دفاتر الحسابات أو التحرير فى الصحف

وما اجدرنا نحن المصريين بأن نقشع عن أنفسنا أوهام القرون الماضية ونعرف أن كل عمل يحتاج اليه الناس هو عمل شريف فنقبل على الصناعات اليدوية ونربى أولادنا على أن ينشأوا عليها ويشتغلوا بها حتى اذا بلغوا سن الرجولة استطاعوا أن ينتفعوا بتجاربهم ويرتقوا من طبقة العمال الى طبقة المالكين

فعلينا أن نواجه حقائق الدنيا ونكف عن أوهامنا القديمة . فمن هذه الاوهام ان الوظيفة الحكومية هى خير مايناله المرء فى حياته وهذا الوهم يرجع الى ان صاحب هذه الوظيفة فى الازمنة السابقة كان حاكما بأمره يستطيع أن يستبد ويطغى ويرتشى كما يشاء ولكنه ليس الآن كذلك لانه محدود بل أحياناً محروم السلطة قليل الأجر . وهؤلاء الاجانب بيننا لا يشتغلون بالوظائف الحكومية ولكنهم مع ذلك أغنى منا وأروج أعمالا وذلك لانهم يقبلون على الصناعة والتجارة ولا يستحيون من تناول العمل الصغير يبقى فى أيديهم إلى أن يكبر . فهذا الحياء الكاذب الذى يمنعنا الآن من الاعمال الحرة هو من أكبر أسباب فقرنا . ومن العظات التى يجب أن نعتبر بها أنه ليس فى لبنان كله فندق كبير أو مطعم كبير يديره رجل غير لبنانى . بينا الحال عكس ذلك فى القاهرة والاسكندرية حيث لا يوجد فندق أو مطعم كبير يديره رجل مصرى

حقاً أننا بازاء ذلك يجب أن نلوم كل عاطل وخصوصاً أولئك الذين مازالوا يعتقدون شرف الصناعات الكلامية على الصناعات اليدوية

قيمة الظاهر

يحكى عن رجل انجليزى أن حكومته أرسلته حاكماً لأحد الأقطار النائية فى الامبراطورية حيث كان جميع السكان زنوجا مايزالون فى طور الهمجية . فكان اذا جاء ميعاد العشاء لبس ملابس السهرة الانجليزية كأنه يستعد لدخول الاوبرا . وهو لم يكن يفعل ذلك انسياقا مع العادة السابقة

التى ألفها فى لندن بل لأنه كان يعرف الطبيعة البشرية التى تنحرف نحو التراخى عند اسقاط التكاليف . فكان يقول : «اذا أنا أهملت هذا العرف الذى توجبه الحضارة فانى لابد واجد نفسى يوماً ماقد أسقطت التكاليف الاخرى الخاصة بالاجتماع والاخلاق فأنزل الى مستوى هؤلاء الزنوج . ولذلك اعتقد أن ملابس السهرة ضرورة هنا أكثر مما هى فى لندن »

وقد رويت عن ستانلى الرحالة المشهور مثل هذه القصة . فانه رحل الى افريقية لكى يبحث عن لفنجستون الذى كان قد انقطعت أخباره فقضى الشهور بل السنين وهو يجتاز بالغابات والانهار وينام فى الخيام ويأكل الجشب من الطعام . ولكنه مع كل ذلك لم يكن يهمل حلاقة لحيته كل صباح كما كان شأنه فى بلدته بين المتمدنين

ولم يكن ستانلى يفعل ذلك لكى يؤثر فى الزنوج الذين يرافقونه بل لكى يؤثر فى نفسه فان هذه التكاليف الحسية التى كان يكلف نفسه بها كانت تعاونه على أن يكلف نفسه تكاليف معنوية أخرى فى الاخلاق ، لانه مادام يحكم نفسه فى اليسير من الحلاقة فانه يحكمها أيضاً فى الجلد على المكاره التى يلاقيها فى سبيل البحث عن لفنجستون . ولم يكن هذا البحث هيناً لانه لم يضل فى قرية أو مدينة أو قطر بل فى قارة

وما احرانا جميعاً بان ننعم النظر فى هذين المثالين ونفهم العبرة منهما فان للرجل المتمدن تكاليف مادية محسوسة هى دعامة التكاليف التى يكلفها نفسه فى الاخلاق . فهو يقعد الى المائدة مع أولاده وقد لبس ملابسه تامة كانه فى مطعم لايرضى بان يلتهم الطعام التهاماً أو يتناوله بيده مهما شق عليه الجوع . وذلك لأنه يعرف أنه اذا تراخى فى هذا العرف الذى اصطلح عليه المتمدنون تراخى أيضاً فى عرف الاخلاق فهو يروض نفسه بهذه المظاهر فى اللباس والهندام لكى يستطيع أن يروضها على الاخلاق الحسنة والطريق المستقيم تلزمهما دون انحراف . وليس شك فى أن لمظهر الانسان تأثيراً فيمن حوله من الناس بل نحن جميعاً نحترم الناس لأول رؤيتهم بمقدار ما نعرف من جودة لباسهم وحسن هندامهم . ولكن ليس هذا غرضنا من هذا المقال لاننا انما نرمى الى أن للباس تأثيراً فى صاحبه لانه أشبه شىء بالرياضة له على الصيانة والارتفاع من الدنايا وذلك أنه مادامت النفس قد ارتضت مشقة التكاليف فى الملابس والهندام فانها لابد راضية بتحمل عبء التكاليف الاخرى فى الاخلاق

وهذا الذى نقوله فى الملابس يصح أيضاً قوله على أثاث المنزل . فاعضاء الأسرة الذين يتشددون فى نظام منزلهم ونظافة أثاثهم واعتيادهم العادات الحسنة فى الطعام والنوم يتشددون أيضاً فى اختيار الالفاظ التى يستعملونها فى الكلام وفى لزوم الاخلاق الحسنة والفضائل السامية . أما حيث يكون

التراخي والاهمال فى نظافة المنزل وترتيب أثاثه حين ترتجل مائدة الطعام ارتجالا فى غرفة النوم وحين يستقبل الضيف على البديهة فى أية غرفة من غرف المنزل ويقابله أعضاء الأسرة وبعضهم أشبه بالرجل على وشك الاستحمام . فهنا يكون التراخي فى الاخلاق أيضاً والتهاون فى ارتكاب الرذيلة لان مثل هؤلاء الناس الذين لايطيقون هذه التكاليف المادية الصغيرة لايطيقون أيضا تكاليف الاخلاق ولاتنضبط لهم معامله ولايعرفون شيئا عن محاسبة أنفسهم هذا الحساب الدقيق الذى يعرفه الرجل المتمدن

أننا جميعا لاننكر قيمة المظاهر فى التأثير فى الناس ولكن يجب الا ننسى تأثيرها فى أنفسنا التى يجب أن نستدرجها الى ممارسة الفضائل بممارسة هذه المظاهر ونعلها التكاليف الصغيرة لكى تسلس لنا وتقوى على التكاليف الكبيرة ومن ذلك نفهم اننا اذا عشنا عيشة المتمدينين واتخذنا عاداتهم استطعنا أيضا أن نقوى على ممارسة فضائلهم فى النشاط والدأب فى بلوغ الغاية المنشودة والدرس والهمة التى تنتصب للجليل من الأعمال . فظاهرنا هى دعامة أخلاقنا ومن هنا يجب أن نحترم ستانلي حين يحلق لنفسه كل صباح فى وسط الهمج والوحوش لانه كان يعرف ان التراخي فى الحلاقة قد ينتهى بالتراخي فى الاخلاق

فى مدح الخطأ

كلما تأملنا الطفل وهو يحاول أن يدرك هذا العالم بمختلف التجارب التى يجربها لكى يزداد علماً به ، ونرى أمه تكفه وتزجره حنواً منها وخشية عليه من الخطأ شعرنا نحو الطفل بالعطف وأن اعترفنا بحق الأم فى تأديب صغيرها

ونشعر بالعطف على الطفل لأننا نعرف أنه بهذه التجارب يريد أن يتعلم فهو يقفز من الكرسى الى الأرض ويمس النار بيده ويضع نفسه فى مآزق خطرة ينبئنا عنها صراحة . ويخرج الى الشارع باحثاً مكتشفاً ويخرج علينا الشتائم التى سمعها من الخدم لكى يرى وقعها فى أنفسنا ويسير فى ذلك بنية حسنة هى نية التعلم ويكابد فى كل ذلك آلام المرض والجرح والضرب من والدته ، ولكن نفسه الصغيرة مقتحمة مقدامة فسرعان مايمسح دموعه ويعود الى درس الدنيا بهذه الطريقة الحاسمة طريقة التجربة والاختبار

ولهذا السبب نقول أننا اذا اعترفنا بحق الام فى تأديبه وحياطته من الخطأ فاننا لايسعنا إلا العطف عليه . فان خير طرق التعلم هى طريقة الخطأ . وللطفل حقه فى أن يخطىء ويتعلم . وهو أسعد حالا بجروحه وآلامه عند مايخطىء من أن تصونه أمه وتحوطه كأنه جوهرة مكنونه يتفرج برؤيتها الناس

وقد كان نيتشه يقول: «كل ما لا يقتلني يقويني» يعني بذلك أن الخطب اذا نزل بنا أو الخطأ إذا ارتكبناه يفيدنا تجربة واختباراً فى هذه الدنيا فيزيدنا حكمة، وهذا بالطبع اذا لم يكن من الفداحة بحيث يقتلنا. ويبدو لنا أنه لايؤمن بقول نيتشه هذا سوى الاطفال الذين يودون لو يجربون كل شيء فى هذه الدنيا. أما نحن الكبار فقد تولانا شيء من الجبن والخوف بهما نتقي التجارب

وليس شك فى أن العلم والمعرفة يقومان بعض الشيء مقام التجربة، ولكن فى الدنيا أشياء وحالات لايكفى فيها العلم والمعرفة، بل فى حياة الطفل نفسه مايضطرنا الى أن نعرضه للاختبارات والتجارب. لأننا نجد أن العلم لايكسبه تلك الاخلاق التى يكسبها بالاختبار، فهو هنا يمس الدنيا مباشرة ويعالج المادة بنفسه كأنه مخترع أو مكتشف. أما العلوم والمعارف فليست سوى اختبارات الآخرين وتجاربهم ننقلها عنهم أو نقترضها منهم، فليس لها قوة الاختبار نمارسه بأنفسنا

ولكن فى الدنيا كما قلنا أشياء لاينفع فيها سوى الاختبار. فالعلم أو المعرفة نفهمهما بأذهاننا فقط. أما الاختبار فاننا نفهمه بأذهاننا وحواسنا الخمس. فالرجل الغنى الذى يسمع عن الفاقة وآلام الفقر والحرمان يمكنه أن يدرك بذهنه فقط معنى هذه الاشياء، ولكنه لايفهمها تماماً كذلك الذى اصطلى الفقر وأحست حواسه الخمس بمعنى ذلك الحرمان حين قرقر بطنه من الجوع وأحس بوخز الابر للملابس الممزقة يمشى بها أمام أصدقائه أو رأى أولاده لايشبعون بالطعام أو رأى زوجته تنكر عليه آلامها بينا تعترف بها عيناها. فهذا الرجل أدرى بالفاقة وأحكم فى الدنيا من هذه الناحية من الغنى الذى سمع وعلم دون أن يعاين ويحس

ولكن ليس كلامنا هذا دعوة الى التجربة فان علينا من التبعات مايجعلنا نتقيها ولكن هو دفاع عنها فقط اذا وقعنا فيها على الرغم منا أو انما نحن هنا ندافع عن الخطأ نرتكبه فنزداد حكمة وعلماً بالدنيا وأن كان الثمن أحياناً يبهظنا. فالخطأ الذى يجر علينا الافلاس والحرمان يعلمنا الادخار. وقلما يعرف أحد ميزة التسامح والوفاق حتى يصلى بنار الخلاف والنزاع. وكلنا تقريبا قد ارتكب من الاخطاء ونزل به من المحن مايذكره بالسرور لأنه استطاع أن يتقى بها ماهو أسوأ منها. فهذه قضية مثلا قد خرجنا منها خاسرين، ولكننا اتقينا بها صنفاً من الناس نعرفه يحب المشاكسة والمضايقة. وهذا أحد الناس قد تسامحنا معه واسقطنا بعض التكاليف فاذا به يستطيل علينا فتوقينا به بعد ذلك هذا المزاح الذى يجلب علينا مايحط بكرامتنا. بل كثير مايحدث أن الخطأ فى الصحة وهجوم أحد الامراض يرشداننا بعد ذلك مدى حياتنا الى أن نعيش تلك المعيشة الصحية بما فيها من قيود وحدود نلزمها دون أن نشعر بمضايقتها

وخلاصة قولنا أن المصائب والاخطاء تقوى الاخلاق وكما ان الجروح والرضوض فى الرياضة البدنية برهان على الحماسة فى اللعب ينظر اليها صاحبها كأنها أوسمة المجد فى مضمار المنافسة.
كذلك يجب ان نعد الاخطاء ثروة قد ادخرناها لنكتسب منها حكمة واخلاقا
وبعد فما نكسبه فى هذه الدنيا من الربح الباقى الذى لايزايلنا انما هو التجارب

الدنيا التى نصنعها

كلنا يعيش على هذه الكرة الارضية وكلنا يستوى فى رؤية نورها والتنفس بهوائها والسير على سطحها ، ولكن لكل منا دنيا خاصة يصنعها لنفسه ويرتبها لكى توافق مزاجه وذهنه حتى يرتاح اليها كما يرتاح المتعب الى فراشه

وهذه الدنيا الخاصة هى مجموعة أمانينا ومعارفنا وعلاقاتنا مع أسرتنا وأفراد أمتنا وسائر ما نهتم به من هموم خاصة بالمعاش أو غير المعاش . فكلنا يختلف عن الآخر فى هذه الدنيا التى ننشرها حول أنفسنا ونعيش فيها كما يعيش العنكبوت فى نسيجه ، وهى تقرر لنا السعادة أو الشقاء والعمر الطويل أو القصير والصحة أو المرض

فالدنيا التى يعيش فيها الرجل الجاهل تختلف عن الدنيا التى يعيش فيها العالم . فللأول هموم تقلقه عن الاساطير وتجهد نفسه وجسمه وله من الامانى والاحلام ما يعده الثانى سخافات لايأبه لها ، بينما هو الآخر له هموم أخرى يشتغل بها لكى يرقى ذهنه أو يرفع وسطه ، وللرجل المتمدن هموم تختلف عن الهموم التى يهتم لها الرجل المتوحش . وكل من هؤلاء يخترع لنفسه دنيا يعيش فيها باحلامه وأمانيه ويرسم لنفسه من الغايات ما يسعى الى تحقيقها ومن الخطط ما يسير عليها مدى حياته . وهذه الدنيا الخاصة التى يصنعها كل منا لنفسه جديرة كما قلنا بأن تسعدنا أو تسيئنا فعلينا أن نعنى باختيارها فلا ننسج مثلا حول أنفسنا من الامانى ما نشقى بالرغبة فى تحقيقه طول حياتنا وهو لا يتحقق فنبقى فى جهد متواصل يضنى أجسامنا ويفنى قوانا ، ثم هذا الجهد نفسه يجعلنا أشبه شىء بالعبد لايعرف سوى العمل المكلف بتأديته فيعمى عن سائر مسرات الحياة . وكثيراً ما نرى أمثال هؤلاء العبيد فى الرجل الذى يبغى الثروة يرصد كل قواه الى جمعها حتى لايدخر لنفسه من الوقت أو المال ما يمكنه من التمتع بمسرات هذه الدنيا سواء أكانت مسرات الثقافة أم مسرات الطبيعة

فهذا الرجل قد صنع من أمانيه دنيا خاصة قد وضع نفسه فى أسرها فهو يعيش مدى حياته

وقد تقيد بقيودها . نراه يكب على عمله من الصباح الى المساء ويخرج فى ختام اليوم وهو مضنى لا يكاد ينطرح على فراشه حتى تذهب نفسه فى غيبوبة النوم لفرط التعب والاعياء . ومثله ذلك الرجل الآخر الذى يصنع لنفسه من عاداته دنيا أخرى يعيش فى أسرها كهذا الذى اعتاد الشراب أو غيره من المخدرات فلا ترتاح نفسه الا وهو غائب عن وعيه

فهؤلاء وأمثالهم قد صنعوا لأنفسهم عالماً خاصاً من العادات والاعمال والامانى يعيشون فيه وهم يتألمون ولكنهم لا يطيقون الخروج منه . فمثل هؤلاء ينبغى لنا أن نتوقى ما وقعوا فيه ونعنى العناية الكبرى بان نرسم لانفسنا خطة نسير عليها دون أن تجهدنا كما نرسم لانفسنا من الامانى ما يمكننا تحقيقه دون أن تستعبدنا هذه الامانى . فنحن فى حاجة الى أن نقنع فى أمانينا ونرضى بحدود معقولة لجهودنا ، ولكننا لا نعنى قناعة العاجز الراضى بكل شىء الذى يؤثر الركود على النشاط ويتوقى الخطر والخطأ ، فاننا نعيش فى عالم كله أخطاء وأخطار فيجب ألا نخشاه فنحجم وننكل فى حين تقتضى الظروف الاقدام والمخاطرة . ولكن ليجعل كل منا دنياه الخاصة بحيث تضمن له الراحة مدى حياته فلا يتعود من العادات الا ما تكون الفائدة فيه واضحة ولا يجهد نفسه ويضنيها بالامانى التى تتجاوز الممكن من طاقته أو من الظروف

واذا كانت دنيا الجاهل ضيقة بحدود جهله ودنيا العالم واسعة برحابة علمه فيجب أن نجعل من الثقافة دنيا نعيش فيها ونتجاوز بها حدود الواقع من مكان وزمان . فلكل منا من ثقافته ميدان واسع يتسع للخيال والعمل ويتقلد به صاحبه تلك المقاليد السحرية التى تفتح له الماضى وتوقفه على تاريخ الانسان كما تفتح بصيرته لرؤية المستقبل . وهذه الدنيا الخاصة التى نصنعها لانفسنا بما نتثقف به من مختلف العلوم والآداب كثيراً ما يغنينا عن العادات السيئة الاخرى التى تستعبد أصحابها . ثم هذه الثقافة تنزل بامانينا الى حدود الاعتدال . فلا نشتط فيها اشتطاطاً يجلب علينا المتاعب والمكاره

وخلاصة القول اننا يجب أن نعنى بالدنيا الخاصة التى نصنعها لانفسنا ونعيش فيها بأعمالنا وعاداتنا وأمانينا فنتوقى منها ما يستعبدنا . ثم علينا ألا ننسى أن الثقافة العامة التى نتثقف بها هى أخص دنيانا الينا وهى اكبر ما يعمل لأن نعيش العيشة الحكيمة فى الحياة

الخوف عقبة النجاح

اذا أردنا أن ننجح وجب علينا ان نسأل الذين نجحوا كيف نجحوا ؟

والمستر فورد واحد من هؤلاء الناجحين . وهو يعزو الفشل الى جملة اسباب أهمها فى ظنه الخوف من الخطأ

فهو يقول ان الناس يخشون الخطأ فيتجنبون التجارب . والنجاح يحتاج الى تجارب عدة . ومن البديهى أن الانسان عند مايكرر تجاربه يقع على أخطاء مختلفة يحررها كلما زاد تجربة واختباراً وينتهى منها الى الصواب

وللمستر فورد طريقة فى اختيار المهندسين الذين يعملون فى مصانعه فهو لايختارهم من العلماء البارعين لانه يقول ان هؤلاء يعرفون ببراعتهم وعلمهم طرقا عدة للخطأ ، فهم لذلك كلما خطر لهم ابتكار طريقة جديدة تخيلوا مافيها من اخطاء وأخطار فلا يتجرأوا على تنفيذها . فهو يختار المهندسين المتوسطين الذين يجرئهم جهلهم بعض الجرأة فيبتكرون ويخترعون واذا خاب حسابهم وظهر الخطأ بعد ذلك فانهم يعالجونه بعد ان يتحسسوه بأيديهم ويدركوه بأذهانهم

وهذه حكمة رجل يصنع فى اليوم ٥٠٠٠ اتومبيل ويعيش ملء حياته نشاطاً وتفكيراً وتمتعاً . وهو رجل يحترف الاختراع بل يحترف النجاح . فهو ينصح لنا ألا نخشى الخطأ ونجعله عائقاً يمنعنا من ابتكار الطرق الجديدة ، بل هو يذهب الى أبعد من ذلك حين ينصح لنا بألا نتمادى فى التفكير بالاخطاء المنتظرة ويصرح بأن الجاهل بعض الجهل إذا تجرأ وجرب واختبر خير من العالم الذى يتوقع الخطر والخطأ من كل ناحية فيتجنب التجارب والاختبارات

والعالم كله محفوف بالاخطار وحياة كل منا تبدأ بايقاع أكبر الاخطار بأمهاتنا . فانه من المعروف أن أكبر ماتتعرض له الأم من الخطر انما يكون فى ولادتها وهو يوم ايجاد حياة جديدة فى العالم . والاخطار تنتابنا من كل ناحية حين نمشى فى الشارع أو حين نركب القطار أو حين نشرب الدواء أو حتى حين نقيم فى منازلنا . واذا كان كل انسان يحسب للاخطار ويدقق فى الحساب فانه لن ينشط الى عمل . فهو لن يبنى مثلا منزلا خوفاً من الزلزال ، ولن يعبر شارعاً خوفاً من الاتومبيل الداهم ، ولن يركب قطاراً خوفاً من المصادمة . وليس فى العالم طبيب يمكنه ان يؤكد لامرأة حامل انها لن تموت فى ولادتها . ومع ذلك فالنساء لايخشين الحمل والولادة . ولو ان من يتعلم سياقة الاتومبيل يحسب حساباً دقيقاً لما يتعرض له من الاخطار لما تجرأ على ان يسوقه ساعة واحدة

وعلى هذا القياس يجب أن نفرض وجود الاخطار حولنا ولا نبالغ فى الوقاية منها ، لان هذه المبالغة تعوقنا عن ابتكار الطرق الجديدة وتجعلنا نجمد بالخوف فلا نتطور أبداً ولا نخترع أبداً . والامم كالافراد فى ذلك

وذلك انه كلما ارتقت الحياة ازداد تعرضها للخطر وكلما تقدمت المدنية ازداد المتمتعون بها تعرضاً للأخطار بمقدار تمتعهم بها . فمن يسكن مدينة كالقاهرة يتمتع فيها بما لايتمتع به ساكن

الريف من أنوار كهربائية ومساكن صحية ووسائل للنقل سريعة وغير ذلك ، ولكنه فى الوقت نفسه عرضة لأن يموت فى أى وقت بهذه الاشياء نفسها التى لا يتمتع بها رجل الريف ولا يخشاها. فنحن نشترى مسراتنا وما نتمتع به من عيش أو نظام بما يرافقه من أخطار ، بل نحن نحب أحياناً هذه الاخطار ونجد فيها من اللذة مثلما يجد أحدنا فى ركوب الطيارة . وقد حكى عن رجل بلغ المائة فسئل كيف أمكنه ذلك ؟

فاجاب : « انى عشت عمرى لاأسيح ولا ادخن ولا اشرب ولم أتزوج »

فأجاب سائله : « فلماذا تعيش اذن ؟ »

لقد عاش هذا الرجل عيشة الشجر يبغى السلامة بالسكون وتوقى الاخطار ولكن هذه العيشة لاتليق بانسان شريف . فالاخطار والاخطاء تتوبل حياتنا فنسيغ لذاتها . وخير من مائة سنة تقضى فى السكون والسلامة سنة واحدة نعيشها فى الاخطار كما عاشها بيرد الذى طار الى مركز القطب الشمالى وعبر الاوقيانوس الاطلنطى وهو الآن فى القطب الجنوبى تحفه جبال من الثلوج

واذا كان فورد ينصح لنا بالأخطاء ويتعمد اختيار المهندس الجاهل حتى يتجرأ بجهله على أن يخطىء فعلينا نحن أفراداً وأمة ألا نخشى الاخطاء والاخطار بل علينا ان نجرب ونختبر ونتطور ، لان النجاح لايتحقق إلا باتخاذ الطرق الجديدة . فلقد ورثنا عوائد وأخلاقاً لايتحقق لنا النجاح الا بتبديلها أو تنقيحها

تنمية الفكر

اذا كانت الحضارة الحديثة تزيد الناس رخاء وهناء بمختلف مافيها من مخترعات ومكتشفات فان الفضل فى كل ذلك يرجع الى الفكر . فما من اختراع نتمتع الآن به الاوقد شغل واحد أو اكثر رءوسهم بالتفكير فيه وعانوا مشقاته وعالجوا مصاعبه بأيديهم ورءوسهم حتى استوى لهم كما تخيلوه وحقق الغاية التى أرادوها . وبذلك تم للناس طائفة من المخترعات تجعلهم يركبون السحاب أو يغوصون تحت الماء أو يصنعون الحرير من الخشب أو يبنون المنازل من الحديد

وكل هذا لم يتم الا لان كثيرين قعدوا يفكرون وخلوا الى أنفسهم فى مكاتبهم أو مصانعهم يبتدعون الابتداع وايجاد شىء جديد فى العالم فتخيلوا ودرسوا وما فتئوا ينفردون ويعتزلون مجالس المسامرة واللهو وفى أذهانهم فكرة جديدة يجترونها كما يجتر الحيوان طعامه حتى نضجت بترديدها

فى الذهن فاستعانوا باليد على تجسيمها . ومازال الذهن واليد يتعاونان وكل منهما يصلح نقص الآخر حتى استوى للناس اختراع جديد

ونحن كلنا نتمتع بالمخترعات الجديدة دون أن يكون لنا فيها حظ الاختراع فالحضارة الحديثة تكاد تكون كلها عارية قد استعرنا من أوربا . وذلك لاننا لم نتعود التفكير البكر والاستقلال فى النظر والرغبة فى ترقية الأشياء وجعلها بحيث تكون أقرب الى الكمال الذى ننشده

ولكى نخترع نحتاج الى شيئين . هما النزعة . والطريقة فيجب أولا وقبل كل شىء أن ننزع الى الاختراع ونسلط أذهاننا على كل ماحولنا من أشياء محسوسة أومعنوية فنطلب فيها التحسين ولانقنع بالدون أوالوسط مادام من الممكن أن نتخيل ماهو أفضل منهما بل يجب علينا أن نعد المستحيلات ممكنة أوهى اذا لم تكن كلها كذلك فمعظمها يدخل فى باب الممكنات . فنحن الآن مثلا نرى من المخترعات ما كان يظنه اسلافنا مستحيلا كهذا البرق الذى كان يتألق لهم بين السحاب قد صرنا نحن نومضه فى زجاجات ونستضىء به فى الليل كما نرى فى المصابيح الكهربائية أو كهذه الاشعة التى اخترعها رونتجن لتخترق أجسامنا وتظهرنا على ماخفى من أحشائنا . فهذان اختراعان لولم يتحققا لظنناهما من المستحيلات . ولذلك نحن فى حاجة الى مزاج جديد أونزعة جديدة تهيئنا لان ننتقد الحاضر الراهن ولانسلم بشىء تسليما أعمى بل نرغب على الدوام فى التحسين والترقية وترجيح الامكان على الاستحالة

يبقى علينا ثانيا أن ننظر فى الطريقة . كيف نفكر التفكير الحسن هذا التفكير المثمر الذى يفتح لنا باب الاكتشاف والاختراع . والواقع أن حياتنا الراهنة لاتتيح لنا هذا النوع من التفكير . فنحن نجتمع باصدقائنا ومعارفنا أكثر من اللازم لصحة اذهاننا ونقضى وقتا طويلا فى مسامرتهم أو ملاعبتهم على القهوات والاندية ونكاد نطرد عن أنفسنا التفكير باحتساء القهوة والتدخين المستمر . وذلك مع أن التفكير يحتاج الى خلوة النفس والجسم وتسليط الذهن على الموضوع فى هدوء وصمت فى وقت معين ثم ترك الخواطر تختمر عفوا فى العقل الباطن حتى يستوى منها رأى

ثم التفكير لايكون الا اذا سبقه درس وبحث واهتمام حتى لتنشأ فى النفس عاطفة فيها قوة الاشتهاء وألم العطش ويقظة الذهن ومعظم الناس اذا سألتهم وجدتهم لايفكرون ولايهتمون وذلك لانهم لم يدرسوا . والدرس يحشد الذهن بموضوعات مختلفة تحتاج الى زيادة الدرس والرغبة فى الحل ومن هنا يأتى الابتكار والاختراع ونحس بتلك النزعة التى ننزع بها الى النقد

يجب الا ننتظر الفرص فننتهزها اذا عرضت بل علينا أن نخلقها خلقاً . فلنتعمد درس الاشياء ونقدها . وكل ماحولنا جدير بالدرس والفهم اذا سلطنا عليه أذهاننا لانلبث أن نرى فيه من النقص

ماقد نهتدى نحن الى سبيل الكمال فيه. وعندئذ ندخل فى تلك الزمرة الشريفة زمرة المخترعين والمكتشفين ونعول العالم كما عالنا ومازال يعولنا

وأغلى مافى الانسان وأشرف مافيه هو الفكر . فلا يصح أن يبقى راكداً يتطاير مع دخان السجاير أو يذهب هباء فى الحديث الفارغ واللعب العقيم وقضاء الوقت بل قتله على القهوات وكل عمل أو واجب يحتاج فى أوله الى رياضة وتكليف ثم يأتيه الانسان عفوا بحكم العادة والمران فعلينا أن نكلف أنفسنا الدرس والانفراد حتى يصير كل منهما طبعا لانقسر أنفسنا عليه وانما يلذ لنا أن نجرى عليه

الكتاب والمصنع

كانت المدارس والجامعات وطن الثقافة والتعليم تحتكرهما تقريباً ولا يمكن الانسان أن يترقى الا اذا دخلها وقضى فيها السنين . أما الآن فلها مزاحم بل مزاحمان . هما : المصنع، والكتاب

ومن يتامل أحوال الامم الصناعية الكبرى يشك فى ان الجامعات تؤدى من نشر الثقافة وترقية العلم مقدار مايؤديه المصنع والكتاب . فى الولايات المتحدة مثلا خمسمائة معهد علمى لم تنشئها الجامعات وانما انشأتها المصانع أى أن لكل مصنع كبير معهداً يعمل فيه العلماء للبحث العلمى فى الكيمياء والهندسة والمعادن وما إلى ذلك . وفى هذه المعاهد يترقى العلماء على البحث ويرتقى العلماء . وغاية المصانع من هذه المعاهد ليست البر بالعلم بل بالرغبة فى الربح فهى تنشد الطرق التى توفر عليها الوقت أو تهديها الى مخترعات ومكتشفات جديدة تربح منها المال . فهذه المصانع تزاحم الجامعات فى تأدية مهمتها وتؤديها احياناً بأحسن ماتؤديها الجامعة . ولكن للجامعة مزاحماً آخر هو الكتاب

والكتب الآن فى أوربا وأميركا لاتؤلف فقط وانما تحرر أيضاً كما يحرر الصحفى صحيفته يجلب اليها أحسن الكتاب ويستكتب فيها أحسن الادباء والعلماء . ولا أعنى بالكتب تلك الموسوعات التى تحتوى فى مجلداتها العشرة أو العشرين أو الثلاثين خلاصة الثقافة الانسانية من علوم وفنون وصناعة وآداب . فان المعقول فى مثل هذه الموسوعات ان يقوم بكتابتها عشرات المؤلفين ان لم أقل مئاتهم لانه لايحيط بمواد الموسوعة العمومية رجل واحد . ولكنى أعنى تلك الكتب الاخرى التى كان يؤلفها المؤلف الواحد قديماً فصار الآن يحررها كاتب من الكتاب المعروفين ويقوم بتأليفها عشرات من المؤلفين

اذكر من هذه الكتب « التاريخ الجديد » الذى نشرته احدى الشركات الانجليزية ويرأس تحريره المستر هامرتون . فان عدد المؤلفين الذين كتبوا مواده لايقلون عن مائتين . وهو تاريخ ضخم قد يبلغ ٧٠٠٠ أو ٨٠٠٠ صفحة كبيرة . ولكن التحرير ليس مقصوراً الآن على الكتب الضخمة فانى اقرأ الآن كتاباً عن « مستقبل الانسان » يحرره المستر بيرد وقد قام بتأليف مواد ١٦ كاتباً معروفا والكتاب كله مع ذلك ٤٠٨ صفحات

فالكتب الكبرى أو المهمة تنتقل الآن من التأليف إلى التحرير وبدلا من أن يقوم بها الفرد تقوم بها الجماعة . ولا عبرة بأن يناقض أحد المؤلفين الآخر فى مجلد واحد فان غاية الكتاب الآن ليست الاقناع والاغراء بل التنبيه والايقاظ

وقد أصبح الطبع والنشر فى أيدى شركات كبيرة تؤلف الآن السلاسل من الكتب بحيث يمكن المبتدىء أو المتوسط ان يجد السلسلة التى تروقه فيقرأ الموضوع الذى يهواه وينتقل من الاسهل الى السهل ثم يرتقى الى ماهو ادسم مادة ومايزال كذلك حتى يحذق الموضوع الذى أراد درسه

وهذا هو الذى يجعلنا نقول الآن أن المدرسة والجامعة تجدان مزاحمين عظيمين لهما فى المصانع والكتب . بل يمكن أن نقول ان العلم لايموت فى أمة مثل الولايات المتحدة لو زالت الجامعات لان المصانع الآن تقوم مقامها فى البحث العلمى كما ان الصحف والكتب تنشر هذه البحوث على الناس

ولكن غايتنا من هذا الذى ذكرناه ان نثبت للقارىء انه يمكن الانسان المجتهد الآن أن يتعلم ولو لم يدخل جامعة ولولم يظفر بشهادة . وكل مايطلب منه أن يدأب فى التحصيل . فاننا نعيش فى زمن قد أصبحت فيه العلوم والفنون والصناعات ديمقراطية فى متناول جميع الناس تقريباً يمكنهم تحصيلها من الكتب والصحف الراقية بل يمكن الصانع النشيط ان يجعل مصنعه مختبراً يختبر فيه ويكتشف ويخترع

ولست أبالغ فى هذا القول وأمامى مثالان عظيمان من رجلين استطاع كل منهما أن يربى نفسه ويبلغ من هذه التربية ذلك النبوغ الذى يغبط عليه . وأحدهما هو هذا المستر جارفن الانجليزى الذى يرأس تحرير أكبر موسوعة عرفت فى العالم ، وهى الموسوعة البريطانية التى لاتقل صفحاتها عن ٣٠٠٠٠ صفحة وتتناول شتى العلوم والآداب والتواريخ والصناعات مع أنه هو نفسه لم يدخل جامعة بل لم ينل من التربية المدرسية العادية مانال غيره ولكنه بالتحصيل من الكتب والدأب فى الدرس قد استطاع أن يثقف نفسه وان يشرف على أكبر كتاب يضم فى مجلداته مختلف الثقافات الانسانية

والمثال الآخر هو هذا المستر اديسون المخترع الاميركى المشهور فهذا الرجل لم يعرف الجامعات

بل أكاد أقول أنه لم يعرف المدارس ولكنه احترف الاختراع احترافا حتى نبغ فيه وحتى يقال أن له أكثر من مائة اختراع مسجل فى الولايات المتحدة

وعبرة ذلك لنا أن نفهم أن وسائل التربية والتعليم لاتقتصر الآن على الجامعة والمدرسة وانما هى تتجاوزهما الى المصانع والكتب والصحف . وعلينا أن نطالب مؤلفينا بان يعلمونا وأن تكافئهم الحكومة اذا أخلصوا فى التعليم اذا لم يستطع الجمهور مكافأتهم وفى الوقت نفسه يجب الا نغتفر لاحد جهله اذا اعتذر عن ذلك بأنه لم ينل من التربية المدرسية أو الجامعية ماينير ذهنه و يثقفه

يوم الوفاة

للأمريكيين بدع مفيدة يبتدعونها لزيادة المسرات فى الحياة .ولكن واحداً منهم هو المستر بابسون يبتدع بدعة جديدة للموت يجدر بنا أن ندرسها جميعاً لأن الموت كأس حلوة أو مرة سنشربها يوماً ما ، إذ ليس شىء فى العالم يستوى فيه الناس مثل الموت

فهو يقول أنه يجب على الراحلين الذين عاشوا فى لذة العيش أو ألمه واختبروا الحياة أن يتركوا للجيل الجديد أو لطائفة الاحياء التى تحضر الجنازة وتشهد الجثة قبل ايداعها القبر وصية يذكرون فيها اختبارهم ورأيهم عن الحياة

ثم هو يقول أننا نحضر الآن الجنازات جرياً على العرف واطراداً مع العادة ونبقى متبرمين بالتأخير نريد أن نسرع فى تأدية هذا الواجب ونسمع ثناء الكاهن على الميت ونعرف منه أنه يكذب علينا وأنه انما يتبرع أو يتصدق بهذا الثناء فقط وأن مايذكره من الخصال الحميدة التى كانت للميت نعرف نحن ضدها . ونخرج ونحن غير متعظين بهذا الميت الذى يسدل ستار النسيان على حياته

فهو لذلك يقترح على كل انسان قد بلغ الشيخوخة وترشح للموت أن يكتب وصية يبين فيها مجمل مايعرفه عن الحياة التى عاشها وما انتفع به من التجارب وما استخلص ،كما يذكر آراءه فى السعادة والحب ونحو ذلك . فاذا مات وصار جثمانه بحيث يحيط به أصدقاؤه وقف الكاهن ولكن بدلا من أن يثنى عليه وينسب اليه صفات لم تكن له يخرج هذه الوصية ويقرأها لهؤلاء الأحياء الوقوف الخاشعين للموت . وهذه الوصية اذا قرئت فى هذا الظرف الرهيب كان لها أكبر الاثر فى النفس

فهى من جهة الميت تدل على الامانة والصدق لأنه وهو فى حياته يعرف أن هذه الوصية أن تفشى إلا بعد وفاته حين لايمكن أن يناقش فيها ، فهو يقول الصدق لايهاب شيئاً فيه ، ثم

هو يخلص فى النصيحة لأنه لايبتغى من ورائها مأربا

ثم هى من جهة الحضور تكون كبيرة الواقع فى نفوسهم لأنها ثمرة الحياة الطويلة لصديق كانوا يعرفونه بالذات ويختلطون به ، وهم اذا كانوا يتهمونه بالنفاق فى الحياة فانهم لن يستطيعوا اتهامه بذلك وهذه الوصية تقرأ لهم وهو منسطح فى نعشه ينتظر أن يهال التراب عليه . واذا كانت حياة الفرد درامة حاوية لمختلف الحوادث ، فان هذا الفصل الأخير منها هو أروع مافيها وأدعى الى عظة الاحياء

وواضح أنه ليس كل انسان قادراً على أن يكتب مثل هذه الوصية ، فانها تحتاج الى القدرة على الاداء كما تحتاج الى ذكاء وليس كل انسان موهوباً بهاتين الهبتين . ولذلك فهى اذا شاعت فانما تشيع بين الكهول أو الشيوخ الذين يستطيعون أن يتخلصوا من حياتهم خلاصة يمكن أن ينتفع بها غيرهم . وعندئذ يقول المستر بابسون أنه يصبح للجنازة قيمة كبيرة فى الاجتماع والاخلاق فلا يتأفف الناس من حضورها بل يتهيأون ويتزاحمون لسماع الكلمة الاخيرة التى يقولها الميت وهذا كله حسن والاقتراح الى هنا يعد بدعة مفيدة . ولكن لنا من هذا الاقتراح عبرة اخرى وهى : ماذا كنا نكتب لو أننا ترشحنا للوفاة وأوشكنا على سكنى حى الموتى ؟

أن هذا السؤال يجعلنا نراجع أنفسنا ونتساءل : ماذا انتفعنا بحياتنا وما مقدار ماالتذذنا من من العيش وما هى عبرتنا من هذه الدنيا التى تقلبنا بين أحوالها المختلفة ؟

ومثل هذا التساؤل يعيد الينا توزننا ويردنا عن الشطط الذى نندفع أحيانا فيه وننساق فيه انسياقا لأنه أشبه شىء بالوقوف يقفه الرجل وهو يعدو ليعرف كم قطع من المسافة ، وماذا بقى له ، وهل انحرف عن الجادة الحسنة وهو يعدو أو لا ؟

فنا كثيرون يندفعون فى اللهو ، وكثيرون أيضا يندفعون فى جمع المال كادحين مجهودين ولكنك لو عرضت على واحد من هؤلاء وهؤلاء مثل هذه الوصية التى يقترحها المستر بابسون وسألتهم : ماذا تكتبون عندما تترشحون للموت ، وماهى العبرة التى سينتفع بها الشاب منكم وأية كلمة حكيمة تنطقون بها أو ينطق بها عن لسانكم حين تسطحون أمام أصدقائكم للعبرة والذكرى ؟

لو أنك سألتهم هذا السؤال لجعلتهم يفيقون مما يشبه الذهول ويراجعون أنفسهم . لأن الواقع أن كثيرين منا ينساقون فى الحياة انسياقا تحملهم الحياة كما يحمل سيل النهر حطامة الشجر وهم لذلك يحتاجون الى مايذكرهم بوجوب التساؤل عن الغاية من الحياة واسلوب المعيشة والعبرة من ملذاتها ومشقاتها . ولو كلفوا أنفسهم كتابة هذه الوصية لانتفعوا بها من هذه الوجهة كما ينتفع بها أصدقاؤهم بعد وفاتهم

الانسان والاقدار

اذا تأملنا أحوال الدنيا بل اذا تأملنا النواميس الطبيعية ذاتها لم يسعنا الا الاعتراف بأن كل شيء مقدر قبل ان يكون . وذلك ان مافى العالم الآن من طاقة تتهيأ لأن تكون عملا وحركة فى الغد القريب أو البعيد سواء أكان ذلك فى الجماد أم الحيوان لن تتجاوز حدودها المقررة الآن الكامنة فى طبيعتها . ولو كنا مثلا قادرين على قياس القوى الطبيعية الكامنة فى التقلبات الجوية ومقدار الماء فى السنة الآتية لاستطعنا أن نتنبأ بعدد قناطير القطن التى ستنبتها أرضنا فى السنة الآتية . والعالم يسير بنواميس لاتتغير ومافيه من طاقة نجهلها اليوم ستكون عملا فى الغد نجهله أيضا

ومن أحسن ما قاله امرسون « ان القضاء والقدر هو الاسباب المجهولة » وذلك أن نتائج الغد الواقعة هى أسباب اليوم الكامنة المجهولة . وأكثر الناس ايمانا بالحظ واستسلاما للقدر هم الملاحون فى البحار والضاربون فى الصحراء والفلاحون لأنهم تكتنفهم جميعهم قوى يجهلونها وهم لو علموها لاحتاطوا من شرها

وقد كان القدماء أكثر منا استسلاماً للاقدار لهذا السبب بل كان أخيل الاغريقى القديم يعتقد أن الآلهة نفسها تخضع للاقدار . ولكن لما فشت المذاهب الفلسفية بين الاغريق وأخذت المناقشة تمحص الآراء شرع المفكرون ينتقدون هذه النزعة ويبينون الاضرار التى تنجم عن أفكار الانسان لما فيه من عزيمة وارادة

ونحن الشرقيين مشهورون بالاتكال على الحظ نقول بأن كلا منا قد قسم له حظه فى هذه الدنيا حتى اننا نعبر عن النجاح بالتوفيق ومعنى الحظ واضح فى هذه اللفظة وللفيلسوف الالمانى نيتشه ملاحظة حسنة عن ايمان الشرقيين بالقدر يجدر بنا ألا ننساها أبداً . وهى قوله : ان الشرقيين قد نسوا شيئاً خطيراً فى عقيدتهم عن القدر وهو : ان ارادتهم جزء من هذا القدر نفسه

فاذا نزلت بنا مصيبة أو اذا رأينا الفشل يلوح امامنا فلا نستسلم لها بحجة انهما مقسومان لنا بل يجب ان نكافحهما . وكفاحنا لها هو جزء من هذا القدر الذى نؤمن به . فان ارادتنا لم تخرج عن نظام الكون وتشذ عن نواميسه ، بل هى جزء منها وهى بذلك جزء من هذا القدر الذى يسير به عالمنا

كنا قديما نؤمن بان الموت قدر محتوم أو حظ مكتوب لا يتغير ولكننا الآن نطالب مصلحة الصحة بكل صراحة بان تنقص عدد الوفيات فى القاهرة . ثم نأخذ احصاء الوفيات عندنا

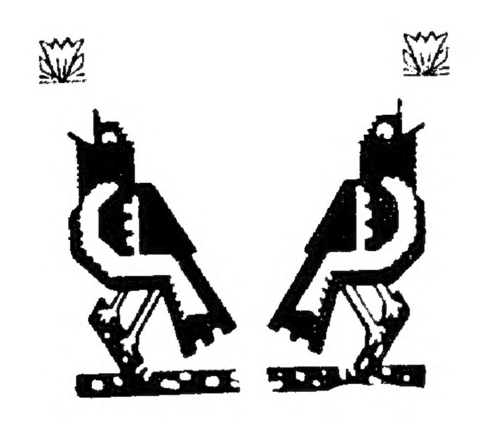
ونقابله بما عند الامم الاخرى ونعزو الزيادة عندنا الى أسباب نطالب مصلحة الصحة ونطالب الاهالى بمعالجتها . ولو أن أحد الاطباء نسب وفاة أحد الناس للقدر لتوقاه جميع المرضى

وكنا قديما نعزو الفقر للقدر ولكننا الآن نعزوه لاسباب اقتصادية واجتماعية ونطالب الحكومة بأن نعالج الفقر أينما تراه

وكنا قديماً نعزو الاخفاق كما نعزو «التوفيق» الى القدر ولكننا الآن نبحث بحثاً مادياً فى أسباب النجاح فنطلب من الشاب الذى ينشد التقدم أن يكون صحيح الجسم مستنيراً دءوباً يعتمد على نفسه ويتفاءل ولا يتشاءم

وهناك من الناس من يحسن الايمان بالقدر فيعتقد ان الاقدار تخدمه على الدوام وهو بذلك يستهوى نفسه الى النجاح . وتلك كانت حالة نابليون عندما كان يعتقد أن له نجماً دائم الصعود لا يأفل أبداً فكان تفاؤله هذا يبعثه على النجاح ومن أحسن الرسوم التى تخيلها عنه أحد الرسامين رسم يمثله وهو يعبر جبال الالب بجيوشه ينحدر بها الى ايطاليا وفوقه عقاب يحلق وأمامه نجم يضىء الطريق . وهذا الرسم يمثل ذلك الايمان المفيد بالقدر وهو أن نستهوى أنفسنا الى النجاح ونجعل الاقدار تخدمنا بدلا من أن نستهويها الى الفشل ونخضع للاقدار كأننا عبيد

وخلاصة القول أن الاقدار هى نواميس الكون التى لا تتغير ويمكننا استخدامها بطريقين الاول : زيادة معارفنا عنها ، والثانى : ألا ننسى أن ارادتنا جزء منها



فهرست الكتاب